١

الحرب الباردة على الكينونة العربية

اللغة هوية



مختار الغوث

صوفيا

الحرب الباردة على الكينونة العربية

(١)

اللغة هوية

الحرب الباردة على الكينونة العربية

(١)

اللغة هوية

مختار الغوث

صوفيا
Σοφία

الحرب الباردة على الكينونة العربية

(١)

اللغة هوية

مختار الغوث

الطبعة الثانية - 2021

ISBN 978-9921-721-41-6

صوفيا Σοφία

الكويت - حولي - الدائري الثالث - مجمع بروميناد - ميزانين 2

البريد الإلكتروني: info.sophiakw@gmail.com

هاتف: 52224643-965+

@sophia_kwt

الفهرس

تنويهٌ وإهداء

لولا الله ثم تلك الكوكبة من الأحباب، في شرق الوطن العربي وغربه، ما كان هذا الكتاب. ما أقولها تواضعا، ولا مبالغة، وإنما هي الحقيقة فقط. فكثير من أفكاره، وما بُنِيت عليه من معلومات، ما كان لي أن أهتدي إليها، لولا ما أعاروني، وأهدوا إلي، ودلُّوني عليه، وأعانوني على الحصول عليه من الكتب التي ما كان لي سبيل إليها قبلهم. وأخص بالذكر أخي الفاضل محمدا السعيدي، فإني مدين له بكثير مما اطلعت عليه من تاريخ الجزائر وحال العربية فيها، فقد كان طوال الأعوام التي قضيتها في تأليف هذا الكتاب يبعث إلي بما أسأله من مراجعهما، ويطوف بي على مكتبات الجزائر، إذا زرتها، حتى أصيب منها ما أريد. وله علي يد أخرى، ليست دون هذه، هي أنه عرَّفني الرجل النبيل، حسين أعمر، وأخاه الفاضل الدكتور بو زيد أعمر، فتفضل علي بو زيد بكثير من الكتب، والمقالات والبحوث المهمة عن العربية والأمازيغية في الجزائر، وما زال يبعث إلي بما يقف عليه في الصحف والمواقع. أما أخي محمد صالح باكلا، فكان يبعث إلي بما احتجت إليه من مكتبات الرياض، ويرتاد معرض الرياض الدولي كل عام؛ ليشتري لي منه ما سألته، ويصحبني إذا جئت الرياض إلى مكتباتها حتى أقضي منها وطرا، وكان -إلى ذلك- وسيلتي إلى الأخ علي سالم بلخير، الموظف بمكتبة الملك فهد الوطنية بالرياض، وقد رفدني علي بكثير من المراجع المهمة. وتطوَّل علي الفتى النبيل عمر القديمي بكتب نفيسة، أفدت منها كثيرا، كـ«الهيمنة اللغوية»، لروبرت فليبسون، و«المذكرات»، لمحمد كرد علي، وكُتُب المرحوم علي فهمي خشيم، وعرَّفني الرجلَ الأصيل، والعالم الجليل، الدكتور محمدا الأوراغي، يوم كان يعمل بجامعة الإمام محمد بن سعود بالرياض، فأهدى إلي كتبه النفيسة كلها، إذ زرته بالرباط صيف عام ١٤٣٧ هـ،

وكانت معرفته من أعظم ما يفاد. وفتح لي أخي العزيز الدكتور صالح معمار مكتبته العامرة، فكنت أستعير منها ما أطقت حمله، وكان قبل ذلك قد أعطاني مفتاحها؛ لأرتادها متى شئت. وكان لأخويَّ الفاضلين الدكتورين مصباح أبو زنيف، ومحمد حيان فضل عظيم في تصوير عشرات الكتب والبحوث والمقالات من مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، بالرياض.

أما الدكتور إبراهيم سالم الجهني، والأستاذان محمد باعوم، وعبد الرحمن النحياني، فكانوا يبحثون عن كل ما يرون أنه يفيدني، فيهدونه إلي، أو يعيرونني، إن كان في مكتباتهم، فيمكث عندي ما شئت، فكنت -من أجل ذلك- أشعر بأنهم شركائي في البحث، ويحملون من هَمِّه ما حُمِّلت، وقد أفدت مما أعاروني من الكتب أيما إفادة. أما أخي العزيز، وصديقي الحبيب، الأستاذ هاشم الرفاعي، فكان يتسقط لي في المواقع الكتب والبحوث والمقالات التي يرى أنها مظانّ لما أريد، وهو في أمريكة، فيبعث بها إلي، وكنت إذا تعاصَى علي تنزيل كتاب أو مقالة، في موقع من المواقع، أو وجدت موقعا محجوبا، فيه ضالتي، اتصلت به، فاستخرج لي منه ما أردت، ثم بعث به إلي، وقد رفدني بكثير من البحوث المهمة. وهي واحدة من أياديه الكثيرة علي، وليست بأعظمها، وكلها عظيمة.

أما أخي العزيز الدكتور محمد مقبل اللهيبي، فكان بريدي الميمون إلى مكتبة جامعة الملك عبد العزيز بجدة، وقلَّما سألته أن يبحث لي فيها عن كتاب إلا جاءني به، وكانت كلمته التي يلقى به سؤالي، كلما سألته، وما أكثر ما سألته: «أبشر يا دكتور». وكان طه الحافظ بريدي إلى مكتبات القاهرة، يوم كان يدرس بها، وكان له الفضل في حصولي على كثير من الكتب المهمة التي عزَّ علي وجودها في السعودية. ولما لم أجد سبيلا إلى كتب علي محمد درويش؛ لأنها مطبوعة في دار رايتسكب بأسترالية، تذكرت أخوي العزيزين، محمودا الطالب، ومسعود مظاهري، وكان محمود يومئذ يدرس بأسترالية، أما مسعود فيقيم بها منذ بضعة عقود، فكان لي منهما ما أردت، فصور لي مسعود أحدها، بعد أن استعاره من مكتبة جامعة ملبرن، وراسل محمود مؤلفها، فبعث إليه بسائرها، فجاءني مع أقرب قادم، وكان الحصول عليها من الأماني التي قلَّما تُبْلَغ. وتفضَّل أخي الفاضل الدكتور صالح بن عياد الحجوري بمراسلة الدار

التي طبعت «الغارة على اللغة العربية»، فأحضره لي، واتصل بالدكتور علي القاسمي، بالمغرب، فسأله نسخة من كتابه «الجامعة والتنمية»، بعد أن أعيتني السبلُ إليه، فتفضَّل بإرساله إلي، وكان يعرض علي أن يبعث إلي بما أردتُ من مكتبته بجدة. ورفدني أخواي العزيزان، الأستاذ خالد أحمد عبد الله (البحرين)، والأستاذ محمد حسن تقي (عُمان) بما سألتهما من النصوص المتعلقة بالتشريع اللغوي في البحرين وعُمان، وتفضل إخوتي الأعزاء، الدكتور ناظم عبد الملك سعيد، والدكتور وليد العمري، والدكتور مختار الفجاري، والأستاذ عبد العزيز أبو سيف، والدكتور مختار بو غانم، والأستاذ فيصل الموروكي، والأستاذ مصطفى محمد سالم، والأستاذ عبدالعزيز الردادي، بترجمة بعض النصوص من الإنجليزية والفرنسية. وتفضل المفن التشكيلي الأستاذ عبد الله علي براك برسم الغلاف.

وثم طائفة من الأحباب، كان فضلها على هذا العمل كفضل أولئك، إلا أني سأذكر أسماءها دون ما أسدت إلي، على عِظَمه، تجنبا للإطالة التي أرى أنها غير مستحبة في هذا المقام، منها صديقي الدكتور خالد علواني (تونس)، والدكتور بكري الحاج (رئيس مجمع اللغة العربية بالسودان)، ورفاقي وأصدقائي، الدكتور محمد با بكر، والدكتور حسن ثاني، والدكتور بوشعيب راغين، والدكتور يوسف الجوارنة، والدكتور عائض الردادي، والدكتور سليمان السناني، والدكتور محمد الصفراني، والدكتور ماجد القرني، والدكتور أيمن الرشيدي، والأستاذ عبد الرحمن الفريدي، والأستاذ عبد الله صالح الصغير، والأستاذ يوسف الذبياني، والأستاذ عبد العزيز محمد مصطفى، والأستاذ محمد الشريف، والأستاذ عبد الله مطر الحجيلي (المدينة المنورة)، وأخي رفيق الطلب الدكتور راشد الرشود، وأخي الدكتور زياد الدريس، والدكتور عبد الله الوشمي، والأستاذ سلمان الرشود، والأستاذ سلطان الكامل (الرياض)، والدكتور زهير عبيدات (الأردن)، وصديقاي العزيزان، الأستاذ عبد الرحمن مرشود العلوني، والأستاذ عبد الرحمن دادا (جدة)، والدكتور زكي صديقي (مكة)، والشيخ منير الرجراجي (المغرب)، والدكتور الطالب بن المجتبى (الكويت).

وإليهم جميعا أهدي هذا العمل الذي هو ثمرة عونهم، شكرا لأياديهم الجسام علي وعليه. وما أقول كما قال المتنبي:

لا خيل عندك تهديها ولا مال فليسعد النطق إن لم يسعد الحال

فعندي الحب، والدعاء الموصول بظهر الغيب، وهما خير وأبقى من الخيل والمال والثناء.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

هذه الكتب الستة هي الحلقات الأولى من سلسلة، أُزمع تأليفها عن العربية وتحديات العصر. حملني على تأليفها ما علمت من ارتباط الأمم بلغاتها، وكونها مفاتيحَ عقولها، ومستودع تواريخها وثقافاتها، وأردية علومها وأفكارها، والدليل على أفئدتها، وهويتَها التي هي معناها الذي إذا زال انقرضت من حيث هي أمم، وإن بقيت من حيث هي أعراق. وما علمت -مع ذلك- من غفلة جلِّ العرب عن هذه الحقيقة، أو عدم علمهم بها، وعدم عمل بعض من يعرفها بما تقتضي، وما ذاع فيهم من الاستخفاف بها، والازورار عنها إلى اللغات الأجنبية التي يتبلَّغون بها من الجاه والمعاش ما لا تبلِّغ العربية في هذا العصر، وما اتصف به بعضهم من بغضها، واحتقارها، والتجني عليها، على عظمتها، وإقرار كثير ممن عرفوها بأنها اللغة التي لم يُخلق مثلها في البلاد، وإن أرادها بعضهم بسوء، على ما تقتضي السياسة والمنافع. وهي خصلة تُمنَى بها الشعوب المغلوبة في زمن الهزيمة والهوان، وتُمنَى بما هو أسوأ منها، من ردِّ كل سوء في حياتها إلى لغتها وثقافتها، وجعْل التبدل بها شرطَ التماثل منه. ثم ما رأيت من كيد أعدائها، وجدِّهم في إخراجها من الحياة، لجدهم في استتباع العرب، وطمس هويتهم، وأخْذ طرق التقدم والاستقلال عليهم، وكسْر لحامهم، والحؤول بينهم وبين تراثهم، وإماتة كل معنًى في ثقافتهم، يوقظ العزة والتأبي، ويُعْدي على الممانعة؛ لئلا يكونوا أكثر من قطيع مطيع، يسوقونه حيث شاؤوا. وما رأيت من جدهم في تشويهها، والصرف عنها، وتبغيضها إلى أهلها، بل إلى الناس كافة، بتحميلها كل خطيئة، وإلصاق كل منقصة بها، وكيف جاز ذلك عليهم وعلى غيرهم، حتى غدا مسلمة من المسلمات، وما صار إليه العرب من

استصعابها، حتى غدت غولا، يفزعون منها، ويضيقون بها، ويشنؤون تعلمها، وزادهم اصطناع غيرها للعلم، والمدن، وكلِّ مهمةٍ في الحياة، وقصرها على ما لا خطر له، ولا غَناء فيه، كأنما يريدونها لغة من اللغات الشرقية القديمة التي لا مكان لها في غير الكنائس، والديرات، والبحث الأكاديمي المتطرف، لا يضرُّ جهلها، ولا ينفع علمها غيرَ الأكاديميين. ورأيت كيف يُفتَح عليها كل باب من أبواب الشر، ويحرَّض عليها من كان يفخر بسدانتها من الشعوب الإسلامية، ويتقرب إلى الله بتعلمها وتعليمها، وإذاعتها في الناس، ويؤثرها على لغته، وتُجعَل أخواتها اللائي جاورنها قرونا كثيرا ضرات، يوهم أهلهن أن كل تمكين لها نيل منهن، وطمس لهويات أهلهن، وأن دخولها في بلادهم مع الإسلام إنما كان استعمارا، وبغيًا وعدوانا. وتنفق الأموال على التمكين لها وللعاميات في التعليم والإعلام، لتضارَّ بها وتزاح من الحياة، وتخرج من كل موطن، كانت تنفرد به. ورأيت كيف يجدُّ الاستعمار في مسخها، ونقض بنيتها، وانتهاك هويتها، وحذوها على لغته، وامتصاص ثقافتها، وحشوها بثقافته؛ ليسهل عليه مِن فهمها وفهم أهلها، ومراقبتهم، ما ييسر له طمس فكرهم وثقافتهم، ومحو ذواكرهم، وإفناء خصوصيتهم، ليكونوا سَلَمًا له، على سوء ما يريد بهم، وهوِّن ما يبيِّت لهم. وهذا الكيد -على طوله- لا يزداد إلا تجددا، ولا تزداد أساليبه إلا تنوعا، ولا يزداد مبيتوه إلا جدًّا فيه. فألَّفت هذا الكتاب تبيانا لذلك، ولما قُلِّب من الحقائق، لعل الله -تعالى- ينبه به غافلا، أو يوقظ نائما، أو يرشد حائرا، أو يكشف ملتبسا. ولولا جذوة الأمل التي أوقد نبينا -صلى الله عليه وسلم- بين جوانحنا، وأخْذُه علينا سبل اليأس والقنوط، ودفْعه إيانا إلى العمل، كائنة ما كانت عواقبه، إذ قال: «إذا قامت القيامة وفي يد أحدكم فسيلة، فليغرسها» -لكان في مواجع العرب، وما ادلهمَّ من ليلهم، ما يشغل عن هذا ونحوه. ولكني أرجو أن يكون من الكلمة الطيبة التي (تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها). وقد عرضتُ لما عرضت له من قضايا العربية، وما تلاقي من تحديات، من حيث هي هوية، لا من حيث هي لسان فقط، لبيان أن كل نيل منها نيل من العرب، من حيث هم أمة وحضارة، وليس نيلا منها من حيث هي لسان، كما يحسب من لا يعرفون علاقة اللغة بالهوية؛ إذ كانت اللغة هي أهلها؛ فكل نيل منها، وكيد لها، إنما يراد

بـه كيدهـم والنيـل منهم.

وقـد سـميت الكتـاب الأول مـن هـذه السلسـة «اللغـة هويـة»، وبينـت فيـه معنـى أن اللغـة هويـة، ومـا ترتـب علـى إدراك ذلـك مـن عنايـة الشـعوب الواعيـة بلغاتهـا، وصونهـا، وتعظيمهـا، وإنزالهـا مـن حياتهـا أرفـع المنـازل، ووازنْـتُ ذلـك بحـال العـرب مـع العربيـة، وبيَّنـت بُعْـدَ مـا بينهـم وبيـن تلـك الشـعوب. وكان غـرضُ تقريـر العلاقـة بيـن اللغـة والهويـة علـى الوجـه الـذي فعلـت بيـانَ خطرهـا، وأن مـا تلاقـي العربيـة مـن كيـد وتحـدٍ غايتـه طمـس هويـة العـرب؛ لأن في طمسـها طمسـا لخصوصيتهـم، وكسـرا لإرادتهـم، وإخضاعـا لهـم لما يريـد بهم عدوهـم؛ إذ كانت الخصوصيـة والاعتـداد بهـا همـا مـا يُبنَـى عليـه الشـعور بالتميـز، والحـرص علـى بقائـه، ومـا يتبـع بقاءه مـن التأبي علـى التذويـب، والاسـتتباع، ومتى طمسـت، مُحيَ ذلـك الشـعور، وحـلَّ محلـه النـزوع إلـى المماثلـة، وحـب الفنـاء فـي الغالـب، طلبا للكمـال، وتعويضـا عن الشـعور بالنقص. وسـميت الكتـاب الثاني «اللغـة والإبداع والتعليـم»، وبينـت فيـه أن اللغـة الأم تسـبق إلـى العقـول، فتتملَّكهـا؛ مـن أجل ذلك كانـت هـي بـاب العلـم، والميـزان الـذي يـوزن بـه سـائر اللغـات، والعيـن التـي تُرَى بهـا الأشـياء؛ فيتعـذَّر فَهْـم مـا كُتـب بغيرهـا مـا لـم يُترجَـم إليهـا، كمـا يتعـذر الإبداع بغيرهـا؛ لأن شـرط الإبداع اسـتيعاب العلوم وفقههـا فقها يترتـب عليـه تملُّكها، وأن تصيـر جـزءا مـن الفكـر والخيـال والشـعور، ولا تُفْقَه العلـوم والآداب ذلك الفقه إلا أن تكـون باللغـة الأم؛ لأن غيرهـا مـن اللغـات حجـاز دون العلـوم والآداب، يعسـر اختراقـه، فـلا يُعـرَف منهـا إلا مجملهـا معرفـة تحـول دون تمثلهـا. كمـا أنـه لا يبلـغ خبايـا النفـس، ويبيـن عنهـا إلا اللغة التـي صيـغ معهـا العقل والخيال والشـعور حين صيغـت، أمـا غيرهـا، فإنمـا يبين عـن مجمـل المـراد، دون دقائقه وتفاصيلـه. وبيَّنـت مـا ترتـب علـى قلـة علـم العـرب بالعربيـة من تقليـد، وضعـف نتـاج، ومـا ترتـب علـى اصطناعهـم اللغـات الأجنبيـة فـي التعليـم مـن التخلـف، وضـلال السـعي، وهـدْر الأمـوال، والأعمـار، والجهـود؛ لأن اللغـات الأجنبيـة، لمـا كانـت حجـازا بيـن غيـر أهلهـا والعلـم، كان لزامـا أن يأخـذ عليهـم التعلـم بهـا مسـالك التقـدم، ويبقيهـم تبعا لأهلهـا، لا يـرون أبعـد ممـا يـرون، ولا يفكـرون فـي غير مـا يفكـرون فيـه. وعرضتُ للبحـوث، والتجـارب، والدراسـات الميدانية التـي درسـت التعليم باللغات الأجنبية

في الوطن العربي، وما كان له من آثار غير محمودة في تحصيل الطلاب، وما كان للتعليم بالعربية من عكس ذلك. كما عرضت لتجارب الشعوب في التعليم بلغاتها، وما ترتب عليه من تقدم وتنمية، وتوطين للعلم. وبينت ضعف طلاب العرب في اللغات الأجنبية، وضعف الأساتيذ الذين يدرِّسون بها، وأنهم لا يعرفون منها ما يؤهلهم للتعليم بها، ولا يعرف منها الطلاب ما يمكنهم من قراءة ما يقرر عليهم من الكتب المؤلفة بها، وما تبع ذلك من التعويل على المختصرات الضعيفة التي لا تبني فكرا، ولا تقدم علما، وما ترتب عليه من اصطناع لغة هجينة من العربية الفصحى والعامية واللغات الأجنبية، لا نظير لها. وإنما أردت بهذا الكتاب أن أُثبت أن مستقبل العرب العلمي والحضاري رهن بالتعريب، وأن لا مستقبل لهم في لغة، اصطنعوها أكثر من مائة عام، فما زادتهم إلا بعدا مما أرادوا من التنمية والتقدم، وإنما حملهم على اصطناعها أول مرة مَن أراد بهم سوءا من الدول المستعمرة، فبقاؤهم على ما فعلت بهم، وترددهم ما سوغت به فعلتها، وهم يقدرون على التحول عنه، مما يعسر حمله على الوعي والرشد، وإرادة الخير.

وسميت الكتاب الثالث «التجني على الهوية»، وتناولت فيه ما أُلصق بها من تهم، كالصعوبة، والشيخوخة، وعدم الصلاحية للعلم، وأن ما نُسب إليها من ذلك ما كان في معرض الدرس العلمي البحت، وإنما قيل بعضه في معرض التبغيض، وتسويغ الدعوة إلى التبدل بها. وبينت حقيقة اللغة الإنسانية، وأن ليست فيها لغة صعبة بإطلاق، وأخرى سهلة بإطلاق، وإنما السهولة والصعوبة إضافيتان، وكل لغة من اللغات فيها ما يصعب وما يسهل، وأن صعوبة اللغة -إن صحت- لا تسوغ التبدل بها، ففي العالم لغات، تُعرَف بأنها أصعب من العربية، وما همَّ أهلها -مع ذلك- بالتبدل بها، وإنما صبروا عليها، وعدوها قدَرًا، ما لهم إلا التكيف معه؛ فبلغوا بها ما أرادوا، وأن اللغات كلها صالحة لأن تكون لغات علم، وليس فيها ما لا يصلح للعلم بالطبع، وأن كل لغة عظيمة كانت يوما لهجة فقيرة، محدودة الانتشار، لا علاقة لها بالعلم، ثم صارت إلى ما صارت إليه بسلطان أهلها، وجدهم في ترقيتها. وشيخوخة اللغة لا معنى لها مادامت تؤدي ما يريد أهلها، واتصال حياة العربية وقدمُها فضيلة من فضائلها؛

لأنها ربطت حاضر العرب بماضيهم ومستقبلهم، وأتاحت لهم أن ينتفعوا بأقدم تراثهم كما ينتفعون بأحدثه، وحال تغير غيرها بين الشعوب وتراثها المكتوب قبل قرون يسيرة، وجَعلَه تراثا أجنبيا، لا تفيد منه إلا أن يترجم إلى لغاتها الحديثة كما يترجم من اللغات الأجنبية. وأردت بهذا الكتاب بناء وعي علمي بحقيقة اللغة الإنسانية، بمعزل عن الدعاية المغترضة، والتجني المدفوع بدوافع غير علمية، لِمَا أرى من أن أكبر تحدٍّ يواجه العربية أن يحتقرها أهلها، ويحتقروا أنفسهم، وهو أمر، عمل عليه الاستعمار في كل بلد حلَّه؛ لأنه يعتقد أن تقرير ذلك في نفوس الشعوب هو السبيل إلى إضعافها، وتعليقها بما عنده، وإيهامها أنه خير مما عندها، فإذا صارت إلى ذلك، سهل عليه أن يبلغ منها ما أراد، وإنما كان تجنِّي مَنْ تَجنَّى على العربية أثرا من آثار ذلك. وإذا استعادت الأمة ثقتها بنفسها ولغتها، وشُفِيَت مما استنبت فيها الاستعمار من عُقَد وأمراض ثقافية، حقَّرت إليها نفسها، وعظَّمت ما يريد الاستعمار أن تعظِّم منه، كانت مهيأة لأن تواجه سائر التحديات، وما لم تُشْفَ منها، فلا مطمع في أن يتغير ما بها.

وجعلت عنوان الكتاب الرابع «كيد الهوية»، وبينت فيه جانبا من أساليب الكيد ووسائله، كالحكومات الخفية في الوطن العربي، وكيف اصطنعها الاستعمار لإخراج العربية من الحياة واصطناع لغته مكانها، وأعضاء المجامع اللغوية العربية، وكيف استُعملوا في النيل من العربية، ومسْخها، وطمس هويتها، وإلحاقها باللغات الأوربية في نظامها، والأدباء واصطناعهم في انتهاك اللغة وأدبها شكلا ومضمونا، وتجريء الناشئة عليها، وتحقيرها إليهم، وتحقير تراثها، وتعليقهم بتراث الغير، والتوسل بالأدب إلى إشاعة القيم الغربية، وكيف تُكاد العربية في التعليم، ويستعمل في التنفير منها وتبغيضها إلى أهلها، واستعداء غير العرب في الوطن العربي على العربية، وحملهم على المطالبة بترسيم لغاتهم، لجعلها ضرات، تضارُّ بها العربية، ويحال بها دون أن تنزل في أهلها المنزلة اللائقة بها كيدا لها، وتمهيدا لإحلال لغة المستعمر محلها بزعم أنها هي اللغة التي يلتقي عليها المختصمون، ويرضى باصطناعها المختلفون، وإخراج العربية من سوق العمل، والتعليم باللغات الأجنبية، وفرض اللغات وتغيير الثقافات، وما أريد بذلك من إخراج العربية من الحياة باللغات الأجنبية. وكان غرض هذا

[illegible] بجانب من التحديات التي تواجه العربية، وابتعاث روح [illegible] لما يراد بها، واتباع الأساليب العلمية في ذلك، وعدم الاشتغال بما لا [illegible] له من الأساليب العتيقة. وختمتُ هذا الكتاب ببيان أسباب كيد الهوية، وهي أسباب قد أفضتُ في الحديث عنها فيما سلف من فصول الكتاب، وإنما كان ما ذكرت في آخره كالخلاصة له.

وجعلت عنوان الكتاب الخامس «الهوية بعد الحادي عشر من سبتمبر»، وإنما خصصت الحادي عشر من سبتمبر لأنه من الحقب الفاصلة في تاريخ العرب الحديث، فقد شُنَّت فيه الغارة على العربية لإخراجها من حياة العرب، وإن كان أكثر ما تُوُسِّلَ به إلى ذلك مما توسل به الاستعمار الأوربي، مذ دخل البلاد العربية في القرن التاسع عشر، غير أن قوة أمريكة العسكرية والاقتصادية، وبطشها، وسلطانها في العالم جعلت لوسائل الحرب القديمة من التأثير ما لم يكن لها في عهد الاستعمار الأوربي. فقد جعلت أمريكة العالم الإسلامي عدوا بديلا من الاتحاد السوفييتي بعد سقوطه، وكان مقتضى ذلك أن تسعى في تفكيكه فكرا وثقافة ومجتمعات؛ لتقضي عليه كما قضت على الاتحاد السوفييتي، وأن تعيد بناء ثقافته، وتمحو ذاكرته كما محت ذواكر الهنود الحمر، وتحقِّر إليه نفسه وثقافته ولغته؛ لينزع عن الاعتداد بها، والعمل على التمكين لها، إلى مماثلة أمريكة، ومسالمتها، والرضا بسيطرتها كما رضي بها الهنود الحمر واليابان بعد الحرب الثانية. وبيَّنتُ ما توسلتْ به إلى ذلك من نشر الإنجليزية بالتكثر من المدارس والجامعات التي تعلِّم بها، وافتتاح فروع للجامعات الأجنبية، والجامعات التي تدرس باللغات الأجنبية في الوطن العربي لعولمة التعليم، وتغيير القيم، وتيسير فرض مشروع الشرق الأوسط الكبير، وإحلال الإنجليزية محل العربية لغةً للمال والأعمال، والحياة العامة، وتغيير مناهج التعليم بحذف ما ترى أنه يبغِّضها إلى العرب، ويحملهم على الانتقام منها، ووسْم العربية بالإرهاب، وتخويف الحكومات إياها، وجعلها سبب انتشار الغلو، وتحريض غير العرب على معارضة الهوية العربية، والمطالبة بتغيير الدساتير لإخراج ما يُثبت منها هوية البلد العربية، والترويج للعامية، وإحلالها محل الفصحى، وحَمْل الحكومات العربية على الترخيص لإذاعات وقنوات فضائية، تصطنع

العامية بدلا من الفصحى.

وسميت الكتاب السادس «مسخ الهوية»، ودرست فيه بعض ما نال العربية في هذا العصر من تغيُّر، بحذوها على اللغات الأوربية، مبنًى ومعنًى. وقدّمت بين يديه مدخلا، بينت فيه ارتباط اللغة بأهلها على كل حال يكونون عليه، ودرست الدخيل، وغلبته على ألسنة المثقفين والعلماء، وأسباب ذلك النفسية والحضارية، واستعلانه في الحياة العامة، وما يُخشَى على العربية منه، وعرضت للعربيزي، وأسباب ظهورها، ومضارِّها على العربية، وهجْر المعجم العربي، وما يَحتجُّ به هاجروه لهجره، وتبديل دلالة الكلم العربي، بتفريغه من معانيه، وحشوه بمعاني الكلم الأجنبي، من غير صلة بينهما، تسوغ التبدل، وما ترتب على ذلك من تأثر الفكر بالفكر، والشعور بالشعور، والذوق بالذوق، وتبدُّل مرجع العربية الثقافي. ودرستُ مسخ مباني العربية، وعَنَيْتُ به التصرف في الكلم والأساليب تصرفا لا وجه له في العربية، حذوا على لغة أجنبية، والغلو في الاشتقاق من الأسماء الجامدة كما تَشتَقُّ منها الإنجليزية والفرنسية، والتكثر من النحت، والإتيان منه بكل غريب، على ما فيه من تنافر، وغموض، ومخالفة لأوزان العربية، والتكثر من التركيب المخالف لسنن التركيب في العربية، وحذو الجملة العربية على الجملة الإنجليزية والفرنسية، وكثرة الفضول، وقلةِ العلم بالعربية، والتكثر من جمع ما ليس من دأب العربية أن تجمعه من الأسماء، والإفراط في استهلاك المجاز والعبارات العتيدة من الإنجليزية والفرنسية، على وجه جعل كل ما يدرُج على أقلام العرب وألسنتهم مترجما منهما ترجمة حرفية، وحذو النص العربي على النصوص المكتوبة بهما في كل شيء، وأسباب ذلك. وعرضت للترجمة وما تركت من سيئ الأثر في العربية، وبينت سبب قلة تأثيرها قديما في العربية، وشدة تأثيرها فيها في هذا العصر، وكيف بدأت في عهد محمد علي باشا، وما انتهت إليه في هذا العصر، وألممت بعربية أهل المغرب العربي، فبينت أهم سماتها، وما تخالف فيه عربية المشرق، ودرست بغاية الإيجاز لغة ثلاثة من كتَّابه المشهورين، دراسة بيَّنت ما فيها من واضح الأدلة على قلة الزاد من العربية؛ لأدلل على أن ذلك هو سبب تأثرهم غير المحمود بالفرنسية. وبقي من السلسلة كتابان، لعلهما يلحقان هذه قريبا، هما

الصراع اللغوي في المغرب العربي، والسياسة اللغوية في الوطن العربي.

وقد تعمدتُ التعمق، وطول النفس في البحث والتحليل، على وجه ربما حمل على الظن أنني خرجت عما كنت فيه، أو استطردت منه إلى غيره، وإنما تعمدت ذلك تعمدا؛ لأبين بعض الحقائق المجهولة أو المنسية، وأُبَصِّر العرب ببعض ما يخفى منها، هذا إلى أن بعض الموضوعات التي قد تبدو علاقتها بالهوية غير قوية، لا يعرفها بعض القراء، إما لأنها ليست مما يهتمون به، وإما لأنهم قد نسوها، وتبيانها لمن لا يعرفها، وتذكير من يعرفها بها مهم للتنبيه على التحديات التي تواجه العرب والعربية.

أسأل الله الكريم رب العرش العظيم أن يجعله خالصا لوجهه الكريم، ويتقبله بقبول حسن، ويبلغني ما أردت به.

الهويـة

الهويـة: مصـدر صناعـي مـن «هُـوَ»، اصطنعـه بعـض فلاسـفة المسـلمين لربـط الخبـر بالمخبَـر عنـه كمـا يُربَـط بينهمـا فـي الفارسـية بـ«هَسْـتْ»، وفـي اليونانيـة بـ«أَسـتين»، وفـي السُّـغْدية بـ«أسـتي»[1]، وفـي الإنجليزيـة بــ verb to be، وفـي الفرنسـية بــ être verbe، وفـي الألمانيـة بــ sein. وإنمـا اصطنعـوه لهـذا المعنـى لمَّـا لـم يجـدوا فـي العربيـة لفظـا يقابـل «أسـتين»، سـوى «هـو» فـي نحـو: «هـذا هـو زيـد»، فقـد زعمـوا أنـه بمعنـاه، وأنـه ليس بضمير يدل على المفرد المذكر الغائب فحسـب، وقالـوا إن اسـتحداثه لهـذا المعنـى ممـا تقتضيـه ضـرورة العلـوم النظريـة، وصناعـة المنطـق، ثـم اشـتقوا منـه «الهُوِيَّـة»[2]. وإنمـا جعـل الفلاسـفة «هـو» مقابـل «أسـتين» علـى مـا تقتضـي الترجمـة الحرفيـة مـن مقابلـة كل لفـظ مـن العبـارة المترجَمة بلفظ مـن العبـارة المترجِمـة، ولـو لـم يكـن بالمعنـى حاجـة إليـه، لضعفهـم فـي اللغتيـن، وعـدم إدراكهـم ما بيـن نظاميهما من تباين، وإنمـا المترجَـم المعنـى؛ فمتى أُدِّيَ، لم يُلتَفَـت إلـى اللفـظ[3]، لا أن العلـوم النظريـة وصناعـة المنطق تقتضيـه. و«هو» –في العربيـة– إذا اسـتعمل بيـن المبتـدأ والخبـر، أو مـا أصلـه المبتـدأ والخبـر، فإنما يراد بـه التوكيـد، وإزالـة اللبس، ويسـمى حينئـذ ضميـر الفصـل؛ لأنـه يَفْصِـل فـي الأمر حيـن الشـك وعـدم ظهـور القرينـة، لدلالتـه علـى أن الاسـم بعـدَه خبـرٌ لمـا قبلـه، وليس بصفـة، ولا بـدل، ولا غيرهمـا، من التوابع والمتممـات[4]، ولا يراد به الربط بيـن ركنـي الجملـة كمـا يُربـط بينهما بفعـل الكينونة فـي اللغات الآريـة؛ فترجمته به لا تصـح، كمـا أن مجيئهـم بعـده بخبر نكـرة، في نحـو قولهم: «زيد هـو حيوان»، لا يصـح، وإنمـا هـو خطأ مـن أخطـاء المناطقـة، فـإن مـا بعـد ضميـر الفصـل لا يكـون

(١) كتاب الحروف، ١١١، وتفسير ما بعد الطبيعة، ٥٥٧ وما بعدها.

(٢) الموضعان السابقان.

(٣) مفاهيم الترجمة، ١٩.

(٤) انظر: النحو الوافي، ١/ ٢٤٤.

إلا معرفة أو شبه معرفة[1]. وخطأ هذه العبارة دليل آخر على خطأ الترجمة، وعدم صحة ترجمة «أستين» بـ «هو». وهو خطأ كان يقع في مثله بعض سكان المستعمرات الفرنسية، إذا تكلموا بالفرنسية، فقد كانوا يقولون: (l'homme lui fort) (الرجل هو قوي)، بدلا من (l'homme est fort) (الرجل يكون قويا[2]، أي إنهم يجعلون «هو» مكان «يكون»، كما فعل بعض فلاسفة المسلمين في العصر العباسي. وإنما وقع سكان المستعمرات الفرنسية في هذا الخطأ لأنهم يتكلمون بالفرنسية عن غير سليقة، ولا معرفة تامة بها؛ فوافق خطؤهم خطأ من ترجموا «أستين» بـ «هو»، بدلا من «يكون»، و«يوجد» لعدم معرفتهم باليونانية. وكان أصحاب الترجمة الأولى من الفُرْس، وتدل اللغة التي كتبوا بها على أنهم ما كانوا يجيدون العربية، وربما تأثروا -إلى ذلك- بترجمة السريان، وكان السريان أقلَّ منهم علما بالعربية، فضلا عن قلة علمهم باليونانية، وكانت الترجمة الحرفية هي طريقة بعضهم، كيوحنا البطريق، وابن الناعمة الحمصي: ينظرون إلى كل كلمة مفردة من كلمات النص اليوناني الذي يريدون ترجمته، وما تدل عليه من المعنى، فيأتون بلفظة عربية ترادفها في الدلالة على ذلك المعنى، فيثبتونها، حتى يأتوا على النص. وهي طريقة رديئة، وبسببها وقعت في الترجمات السريانية أخطاء فاحشة؛ فاللغات تختلف في خواص التراكيب والنِّسَب الإسنادية؛ فلا تصح فيها الترجمة الحرفية، وليس في اللغة المترجِمة ما يقابل كل كلمة من اللغة المترجَمة[3]. هذا إلى ما توهموا من أن في «أستين» معنى فلسفيا ليس فيه، وحَمَّلوه ما لا يحتمل، على ما يقتضي الإعجاب من النظر إلى المعجَب به بعين الرضا، وتوهُّم أن فيه من الكمال ما ليس فيه؛ فيُعدَل عن تطلب الحقيقة إلى تسويغ ما يُقِرُّ الوهم في النفوس من فضائله بكل مسوغ، وحَمْلِ ما يصدر منه على أمثل ما يبلغ العقلُ من المعاني، كما قال الفارابي وابن رشد إن «هو» في نحو هذه الأساليب يدل بالحقيقة على الوجود، وارتباط المحمول بالموضوع في جوهره، وإن معناه في قولهم: «زيد

(١) النحو الوافي، ١/ ٢٤٦.

(٢) اللغة، ١٦٥.

(٣) الغيث المسجم في شرح لامية العجم، ١/ ٧٩، وحنين بن إسحاق: دراسة تاريخية ولغوية، ٣٣.

هو حيوان أو إنسان»: الإنسان جوهره أو ذاته أنه حيوان، وفي قولهم: «زيد هو كاتب»: زيد موجود كاتب[١]. وكان بعض من تأثروا بأرسطو من غير العرب يرون في هذا الرابط مثْل الذي رأى بعض فلاسفة العرب؛ ولذلك بالغوا، فجعلوه موجودا في الجملة الفعلية أيضا، وساووا بينها وبين الجملة الاسمية فيه، بأن حللوها تحليلا، جعله مقدَّرًا فيها، وإن كان لا يُنْطَق، فقالوا إن جملة: «الحصان يجري» تساوي: «الحصان يكون جاريا». وهو خطأ، نَسَأَ في عمره ما اتصل به من معانٍ غيبية؛ فإن بعض الفلاسفة، لما خُدعوا باسم فعل «الكون»، جعلوا الكون المطلق الذي يدل عليه فعل الكينونة مقابلا للعوارض التي تدل عليها المسندات. وقد بُنِيَ منطق بأسره على وجود فعل الكينونة وجودا حتميا، جَعَلَه رباطا ضروريا بين طرفي الجملة، فعلية كانت أو اسمية، وتعبيرا عن كل إثبات، وأساسا لكل قضية[٢].وقد نبه الدكتور طه عبد الرحمن على ما أتى التراجمة وفلاسفة الإسلام من خطأ في هذه الترجمة، لَمَّا حاولوا تعريب الفكر «الوجودي» الأرسطي المرتبط باللسان اليوناني، فأفسدوا معاني الألفاظ، وتراكيب الجمل، بجعْلهم «الوجود»، و«هو»، و«كان» مقابلة للرابط اليوناني، ثم استقروا على «وُجد»، بعد أن نقلوه من فعل يدل على حدث محسوس إلى رابط بين تصورات منطقية؛ فصيروا الجملة الثنائية ثلاثية؛ لتطابق رسم القضايا الأرسطية؛ فأنتجوا تعابير فلسفية سقيمة مخلَّة بنحو العربية[٣]. وجاوزوا ذلك إلى نسبة العربية إلى النقص في صرفها، كما فعل ابن سينا، والضيق المتأصل في تركيبها، كما قال الفارابي؛ إذ لم تطابق اليونانية. ولو علموا أن فعل الوجود ظاهرة لغوية، عرضت لبعض اللغات دون بعض، لما فعلوا، ولاتقوا الأخطاء التركيبية والمنطقية، والأوهام الغيبية التي كانت فلسفة الوجود مصدرها[٤].

والثقافة التي جعلت الفارابي وابن رشد وغيرَهما من فلاسفة المسلمين يرون في فعل الكينونة من الدلالة على الوجود والجوهر، وحقائق الأشياء ما لا يدل

---

(١) التعليقات، ٢١، وتفسير ما بعد الطبيعة، ٥٥٧ وما بعدها.
(٢) اللغة، ١٦٣ وما بعدها.
(٣) سؤال المنهج، ١٠٩.
(٤) السابق، ١٠٧.

عليه، وجعلته -في نظرهم- ضروريا للعلوم وصناعة المنطق، جعلت بعض الغربيين المعاصرين يقولون إنه «من سمات اللغات التي بلغت من الحضارة شأوًا عظيما»، و«ثمرة جهد كبير من جهود التجريد»[1]. وإن كان لا يتبين ما بُني عليه هذا الرأي، ولا كيف يكون الفضول دليلَ حضارة، و«ثمرةَ جهد كبير من جهود التجريد». وإنما فعل الكينونة زائدة، لا يفيد ذكرها، ولا يضير حذفها، ويتم الحكم دونها، وليست بمهمة، لا للكلام، ولا للعلوم والمنطق، وإنما يُحتاج في الكلام إلى الموضوع والمحمول وحدهما، بل ذهب بوزانكيه إلى أن الحكم يمكن أن يتم دون موضوع نحوي، ودون فعل الكينونة، بل دون فعل من أفعال النحو ألبتة[2]. ويصدِّقه استغناء كثير من اللغات عنه، لعدم الحاجة إليه، كما استغنت عنه العربية بالرابطة الذهنية المعتادة بين الخبر والمخبر عنه في الجملة الاسمية، وكما كانت تستغني عنه اللغات الآرية، فإنها إنما اصطنعته في زمن متأخر[3]، وكانت قبل ذلك خالية منه خلوَّ العربية، فكان يقال في يونانية «الإلياذة»: «لأن الملك أكثر قوة»، و«آخرون قريبون مني»، وفي الفارسية القديمة: منايتا ڤشتاسپا (أبي ڤشتاسپا)، وفي السنسكريتية: tvam varunas Varuna (أنت ڤارونا)، وفي الروسية: zavtrak gotov (الغداء حاضر)، و dom nov (البيت جديد)، إلخ[4]. والتجريد في حذف هذا الفعل في العربية تعويلا على العلاقة الذهنية بين الموضوع والمحمول أظهر منه في إبقائه في اللغات الآرية الحية، واللغات كلما ارتقت كانت أميل إلى الحذف والاختصار، والاستغناء عن غير الضروري من الألفاظ، بخلاف اللغات البدائية. وإذا صح ذلك، تبينَ عدم وجاهة ما يذهب إليه بعض الدراسات الاستشراقية من أن تجرد العربية من فعل الكينونة دليل ضعف في تفكير العرب المنطقي[5].

وما «أستين»، وما في معناه من الألفاظ، بأكثر من رابط، يربط المحمول

---

(١) انظر: فلسفة اللغة العربية، ٢٧ وما بعدها.

(٢) السابق، ٢٧.

(٣) اللغة، ١٦٣ وما بعدها.

(٤) السابق، ١٦٤.

(٥) اللغة والهوية، العشيري، ١٠٨.

بالموضوع[١]، ولا يدل على الوجود، وإن تُرْجِم به إلى العربية، ولا على التلازم الجوهري بين الموضوع والمحمول، كما يبدو من السياقات التي ترد فيها استعمالاته، نحو: He is standing، فإن المراد به ليس الإخبار عن ارتباط المحمول بالموضوع في الوجود، وإنما نسبة صفةٍ إلى من اتصف بها في وقت من الأوقات؛ لأن الفعل رمز الزمن[٢]. وإذا صح هذا كان رابطا من الروابط التي تستعمل في بعض اللغات، بين بعض الكلمات، كـ «را» و«إت» في الفارسية والعبرية[٣]، والكاف، والگاف، والتاء، في النوبية[٤]. وكما لا يصح أن يُتَمَحَّل لهذه الروابط مقابل في الفصحى، ولا أن يتوهم أن لها من المعاني الفلسفية ما ليس لها، ما ينبغي أن يتمحل لـ«أستين» في اليونانية.

وقد اصطنع بعض الفلاسفة «الموجود» مكان «هو»، و«الوجود» مكان «الهوية»، وهو -على عدم دقته، وتأثره بالترجمة الحرفية أيضا- أمثل من «هو»، غير أن «هو» و«الهوية» هما اللذان غلبا في استعمال الفلاسفة والمتكلمين، وأعرض أكثرهم عن «الموجود» و«الوجود»؛ لأن «الموجود» -في نظرهم- مشتقٌّ، وكل مشتق يخيِّل ببِنْيَته موضوعا، لم يصرَّح به[٥]، ولأن الأسماء المشتقة -كما قال ابن رشد- إنما تدل على الأعراض؛ فخاف بعض المترجمين أن يُظَنَّ أنه إذا استُعمِل في العلوم للدلالة على ذات الشيء إنما يراد به عرَض فيه؛ فتركوه إلى «الهوية»؛ إذ كان لا يَعرِض فيه هذا العرَض[٦]. هذا إلى أن «هو» ليس باسم، ولا كلمةٍ في العربية، ولذلك آثروه على «الموجود»[٧]. وآثر بعضهم التعريب على الترجمة، فاشتق من «هَسْت» الفارسية مصدرا صناعيا، هو «الهستية»، بمعنى «الوجود»[٨]. ولقد كان خيرا من هذا وذاك، وأسلم من كل ما قد رأينا، ومما يحاذِر الذين اصطنعوا «هو»، و«الهوية» أن يُجعَل مكان «الهوية» «الأيس»،

---

(١) فلسفة اللغة العربية، ٢٧.
(٢) اللغة، ١٦٥.
(٣) انظر: قواعد اللغة الفارسية، ٩٤.
(٤) انظر: اللغة النوبية، ٨٢.
(٥) كتاب الحروف، ١١٣.
(٦) تفسير ما بعد الطبيعة، ٥٥٧ وما بعدها.
(٧) كتاب الحروف، ١١٣.
(٨) موسوعة مصطلحات علم الكلام الإسلامي، ١٤٠٩.

فقد كان يعني الكينونة والوُجْد[1]، ثم أُميت، ولم يبق منه في كلام العرب إلا «ليس»، وهي مركبة من «لا»، و«أيس»، وتعني: لا يوجد. وما زال «الأيس» بهذا المعنى مستعملا في العبرية، يقولون في الإثبات: «يَشْ لخا شتا عينايم» (توجد لك عينان)، وفي النفي: «لويش» (ليس). وموت «الأيس» في العربية يجعل له من التفرد وعدم الاشتراك ما يَحرص عليه العلماء في اصطلاحاتهم، وما حَرَص عليه الذين آثروا «هو» و«الهوية» على «موجود» و«الوجود». وكان الكندي يستعمل «أيس»، و«ليس» بمعنى الموجود والمعدوم[2].

والهوية -عند بعض فلاسفة المسلمين- تعني الوجود[3]، وتعني عند بعضٍ مطابقةَ الشيء نفسَه[4]، وخصوصيتَه، ووجودَه المنفرد الذي لا يقع فيه اشتراك[5]، وتعني عند جمهور الصوفية الوجودَ بأسره[6]، وترتبط عند بعضهم بـ«أنا»، فيما يتعلق بالذات الإلهية، في مثل قوله -تعالى-: (إني أنا الله)، وإذا كانت «الهوية» فيما يتعلق بالله تطلق على الذات المغيبة، فإن «الإنية» تطلق على معقول العبد لها[7]. وعند ابن سينا: المبدأ الذي لا يتوقّف على غيره، ويتوقف عليه غيره[8]. والمشهور عند فلاسفة المسلمين ومتكلّميهم أنها حقيقة الشيء التي يتَميَّز بها من غيره[9]، ويسميها بعضهم «وحدة الذات»[10]. وهي عند علي بن محمد الجرجاني: «الحقيقة المطلقة، المشتملة على الحقائق اشتمال النواة على الشجرة، في الغيب المطلق»[11]. وقال التهانوي إنها «عبارة عن التشخُّص، وهو المشهور بين الحكماء والمتكلمين، وقد تطلق على الوجود الخارجي، وقد تطلق على الماهية مع التشخص، وهي الحقيقة

---

(١) لسان العرب، (أ ي س، ل ي س).
(٢) رسائل الكندي الفلسفية، ١٨٢ (هامش).
(٣) فلسفة اللغة العربية، ٩.
(٤) فقه الفلسفة، ٢/ ٣١٣ وما بعدها.
(٥) التعليقات، ٢١.
(٦) الموضع السابق.
(٧) رسائل الكندي الفلسفية، ١٠١ (هامش).
(٨) الموضع السابق.
(٩) المعجم الفلسفي، ٢٠٨، والتعريفات، ٣٢٠.
(١٠) المعجم الفلسفي، ٢٠٨.
(١١) التعريفات، ٣٢٠.

الجزئية»[1]. والتشخص: «المعنى، يصير به الشيء ممتازا عن الغير، بحيث يُمَيَّز، ولا يشارِكه شيءٌ آخر، وصِفةٌ، تمنع وقوع الشركة بين موصوفيها»[2]. وهي في هذا التعريف تجمع بين الماهية ووحدة الذات، وهذا هو المعنى الذي استقرَّت عليه، حتى لا يكاد يعرف لها معنى غيره، في الشائع من الاستعمال، وهو الذي عرَّفها به المعاصرون، كقول أمين المعلوف: هويتي: ما يجعلني غير مماثِلٍ لغيري[3]. أما العلاقة بين «الهوية» بمعنى الماهية، والأصل الذي اشتقت منه «هو»، فهي أن الرابط اليوناني والفارسي الذي ترجم بـ «هو» يعني «الموجود»، كما فهمه بعض فلاسفة المسلمين، ولمَّا كان «الوجود» عندهم هو عين الماهية[4]، وكانت «الهوية» مصدرا صناعيا بمعنى «الوجود»، استعملت «الهوية» في معنى الماهية.

وفي تراث فلاسفة المسلمين كلمات ترادف «الهوية»، أشهرها: العينية، والهذية، والوحدة، والتشخص، والإنية[5]. وإن كان بعضهم يفرق بين «الهوية» و«الإنية»، ويرى بعضٌ أنهما مترادفتان[6]، ويرى بعض المتكلمين أن الإنية «أول مراتب الإثبات فيما بيننا، وهي إثبات وجود الشيء فقط»[7]، ويرى بعضٌ أن معناها معنى «الهوية»، وإن كان لا يطابقه[8]؛ إذ الهوية هي التشخص، أي الوجود الخارجي، أو الماهية مع التشخص. والفرق بين «الإنية» و«الماهية» أن «الإنية» تتضمن معنى الوجود، و«الماهية» لا تتضمنه[9]، وعند أهل المنطق أنها: «الوجود الفردي المتعين، مقابل «الماهية»، وعند الفلاسفة: «الذات العلية، على أنها هي هي دون حاجة إلى بيان صفة»[10]، وعند الكندي الموجود الحق،

---

(١) كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، ١٧٤٥ وما بعدها.

(٢) التعريفات، ٨١.

(٣) الهويات القاتلة، ١٤.

(٤) الأثر الفلسفي في التفسير، ٨٣ وما بعدها.

(٥) انظر: التعليقات، ٢١، والمعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة، ١٢٦، وموسوعة مصطلحات الفلسفة عند العرب، ٩٤٧.

(٦) الموضع السابق.

(٧) موسوعة مصطلحات علم الكلام الإسلامي، ١١٣٣.

(٨) المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة، ١٢٦، وموسوعة مصطلحات الكندي والفارابي، ٣٢.

(٩) المعجم الفلسفي، ١/ ١٧١. وما يذهب إليه العارفون باليونانية أن «أن» فيها تعني الوجود أو الموجود، و«أون» تعني الكائن، فهي اسم فاعل من مصدر الكينونة (رسائل الكندي، ٩٨ هامش).

(١٠) المعجم الفلسفي، ٢٧.

والشيء الموجود[1]. وعند المتكلمين: «تحقُّق الوجود العيني، من حيث مرتبته الذاتية»[2].

وإذا كانت «الهوية» مشتقة من «هو»، فإن فيما اشتقت منه «الإنية» خلافا كبيرا، فمنهم من يرى أنها مشتقة من «إنَّ»، في قولهم: «إنَّ الشيء موجود»، لتفيد التأكيد والقوة في الوجود، ومنهم من يقرؤها «الأَنِيَّة»، نسبة إلى «أنْ» المخففة، أو الضمير «أنا»، ومنهم من يقرؤها «الآنيَّة»، نسبة إلى «الآن»، ومن يقرؤها «الأينيَّة»، من «أين»، نسبةً إلى الوجود في المكان، و«الأَيِّيَّة»، نسبة إلى «أيٍّ»، وكلها بمعنى تحقق الوجود[3]. ومنهم من يرى أنها مشتقة من «أُنْ»، و«أون»، في اليونانية، وكلتاهما تدل على التأكيد، إلا أن «أُون» أشد تأكيدا، إذ هي دليل على الأكمل، والأثبت، والأدوم، فلذلك يسمون الله «أون»، وإذا أرادوه لغير الله جعلوه «أُن» مقصورا[4]. ويرى بعض المحدثين أنها معرَّبة من «إين» اليونانية، بمعنى «كان» و«وُجد». وإذا كان المراد بـ «كان» الرابط الذي يربط المحمول بالموضوع، فقد رأينا أن الكلمة اليونانية المستعملة فيه هي «أَستين»، وليس «إين»[5]، إلا أن تكون كلمة بمعناها، أو مشتقة منها، كما يرى عبد الرحمن بدوي أنها تعريب لمصدر الكينونة اليوناني، ولفظه (أَيْنَيْ) الذي يقابل to be بالإنجليزية وêtre بالفرنسية، وأنها «آنية»، لا «إنية»، وأن دعوى أنها مشتقة من «إنَّ» التي تفيد التأكيد في العربية -كما يرى أبو البقاء- تخليط[6]. ولعل هذا سبب ما ذهب إليه بعض الباحثين من أن بعض القراءات التي قرئت بها خطأ[7]، وإن لم يبيِّن صوابَه.

وقد بنى بعض الباحثين على اشتقاق «الهوية» من «هو» أن مفهوم الهوية في الثقافة العربية يبدأ من الغير، وليس من النفس، بعكس مقابلها في اللاتينية (Identity)، فإنه مشتق من «أنا»، فالفرق بينهما أن الإحساس بالذات في

---

(١) رسائل الكندي الفلسفية، ٢١٥ (هامش).
(٢) موسوعة مصطلحات علم الكلام الإسلامي، ٢٣٣.
(٣) المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة، ١٢٦.
(٤) موسوعة مصطلحات علم المنطق عند العرب، ١١٧.
(٥) المعجم الفلسفي، ١/ ١٦٩.
(٦) رسائل الكندي، ٩٨ (هامش).
(٧) المعجم الفلسفي، ١/ ١٦٩.

الثقافة العربية يبدأ من تحديد الغير[1]. وهذا إنما يُنسب إلى العقل الأوربي: أنه لا يعرف الإثبات إلا من النفي، ولا النفْسَ إلا من الغير[2]، لا إلى العقل العربي أو الثقافة العربية. والمعروف في الثقافة الأوربية أنه: لا أصدقاء حقيقيين دون أعداء حقيقيين، وأن مَنْ لم يَكره غيره لم يمكنه أن يحبَّ نفسه[3]، وأن البشر جُبِلوا على أن يَكرهوا، وهم في حاجة إلى أعداء من أجل التحديد بالهوية والحافز[4]. وعلى هذا بُنِيَت سياسة الغرب في اصطناع العدو لحاجة شعوبه النفسية إلى أن تَكره؛ لأن الكُره هو الذي يجمعها، ويشعرها بالوحدة والتميز، ولهذا كانت السياسات الغربية المعاصرة لا تفرغ من عدو إلا اصطنعت عدوا مكانه، مخافة أن تتفكك شعوبها، إذا شعرت بضعف الروابط بينها، كما اصطنعت الإسلام والمسلمين عدوا بعد فراغها من الاتحاد السوفيتي. ثم إن «الهوية» لفظ، استحدثه الفلاسفة والمتكلمون في العصر العباسي، لا ليدلَّ على ما يدل عليه «هو»، من الغيرية، ولا ليكون مقابلا لـ «أنا»، وإنما ليؤدي معنى اللفظ الذي يربط الخبر بالمخبَر عنه في اليونانية والفارسية، وإنما حَملت على استحداثه الترجمةُ غير العالمة، ولذلك عدل عنه بعضهم إلى «الوجود»، و«الهستية»، ليدلوا بهما على ما يُسمَّى اليوم «الكينونة»، المشتقة من «كان» التامة التي بمعنى «وُجِد»، وهي تسمية، يطلقها بعض الكتاب المعاصرين على الهوية، كما قالت حنا أرندت: إن الألمانية «هي لغة الكينونة»[5]. وإنما استعملَ «الهوية»، و«الهستية» مَن استعملهما في هذا المعنى لَمَّا لم يجد في العربية لفظا يدل عليه، ورأى آخرون أن «الوجود» بمعناه؛ فاستغنوا به عنهما، لا لأن للكلمة أصلا في الثقافة العربية، حَمَل على تَخَيُّرها لهذا المفهوم، ولا علاقةً لغويةً، أو معنوية بين مفهوم «الهوية» الذي استقرت عليه، و«هو» ضميرا للغائب، تسوِّغ اشتقاقه منه.

ولعل المرحوم مولود قاسم - إذ جعل «الإنية» مرادفة لـ Identity- قد

---

(١) أزمة الهوية العراقية في ظل الاحتلال، ٥١.

(٢) مسألة الهوية، ٨٣.

(٣) صدام الحضارات، ٧١.

(٤) السابق، ٢٤٥.

(٥) أحادية الآخر اللغوية، ١٤ (مقدمة المترجم).

لمَح اشتقاقها من «I»، فرأى أن ترجمتها بالإنية المشتقة من «أنا» أولى من ترجمتها بالهوية المشتقة من «هو»، واستأنس لذلك بما قال إنه وجد عند ابن سينا، من استعمال «الإنية» في معنى «الهوية»[١]؛ ولذلك جعلها عنوان كتابه «إنية وأصالة»، وترجم بها الكلمة الألمانية (Ichcit) في قول فيخته: إنَّ وجود أمة من الأمم بوجود إنيَّتها (Ichcit) وإنيتها هي شخصيتها، وللشخصية ثلاثة أركان: الدين، واللغة، وحب الوطن[٢]. واللغة والدين أهم أركان الثقافة[٣]، والثقافة هي الهوية. وجعَلَها مرة مرادفة للذاتية، و«بطاقة الهوية»[٤]. وكان المرحوم، الدكتور عثمان أمين يرى أن «الإنية» عند الفارابي وابن سينا هي الذات المفكرة الواحدة المستمرة بعينها، وهي مباينة للموضوع، مغايرة للجسم، ويشار إليها في اللغة بـ «أنا»[٥]. وإذا صح ذلك تعيَّن أن تكون -في كلامه- مشتقة من «أنا»، لا من شيء مما قد رأينا من الكلمات التي ذهب الباحثون إلى أنها مشتقة منها، وصحَّ ما ذهب إليه مولود قاسم من أنها تدل على الماهية، وصحت ترجمة (Icheit) بها. ويؤيد ذلك أن إثبات «الإنية» من المسائل التي عُنِي بها ابن سينا في معرض «إثبات الشعور بالذات، وأن جوهر النفس مغاير للبدن»[٦]. على أن ابن سينا ليس بأول من استعملها، فقد وردت في كلام الكندي، والحلاج، والفارابي، وإنْ أدري لعلها كانت مستعملة قبلهم أيضا. وهي -عند الكندي- بمعنى الموجود، أو الوجود، كما يبدو من قوله: «يتضح لك أن الله -جل ثناؤه- وهو الإنية الحق التي لم تكن ليس، ولا تكون لَيْسًا أبدا، ولم يزل ولا يزال أيس أبدا»[٧]، والوجود عند فلاسفة المسلمين هو عين الماهية، والماهية هي الهوية. ووردت «الإنية» و«الهوية» في قول الحلاج: «يا هو أنا، وأنا هو، لا فرق بين أنيتي وهويتك

(١) إنية وأصالة، ٥٤.
(٢) أصالية أم انفصالية، ٢/ ٣٧٦.
(٣) صدام الحضارات، ١٣٣.
(٤) مولود قاسم نايت بلقاسم، ١٢٨ وما بعدها.
(٥) فلسفة اللغة العربية، ٨٨.
(٦) الموضع السابق.
(٧) رسائل الكندي، ٢١٥.

إلا الحدوث والقدم»[1]، غير أنهما لا تعنيان في كلامه هذا شيئا مما تقدّم من معاني «الإنية» و«الهوية»، وإنما هما مصدران صناعيان من «أنا» و«هو»، بمعناهما اللغوي. وإنما أراد الحلاج: أنا أنت، وأنت أنا، لا فرق بيني وبينك، وإن اختلف اللفظان الدالان علينا (أنا، وهو)، فإنَّ تباينهما لا يعني تبايننا، وهو معنى قوله في هذه العبارة: «يا هو أنا وأنا هو»، وقوله الشهير:

أنا من أهوى، ومن أهوى أنا، نحن روحانِ حللنا بدَنا
فإذا أبصرتُه أبصرتَني، وإذا أبصرتَني، أبصرتَنا

وإن كان شوقي ضيف يرى أن «الإنية» في كلامه هذا تعني الوجود[2]. أما الفارابي، فيعدُّ «الإنية» مصدرا صناعيا من حرف التوكيد «إنَّ»، الدال في اليونانية على الثبات، والدوام، والكمال، والوثاقة في الوجود، والعلم بالشيء، وليست مشتقة من «أنا»، ولذلك قال إن الفلاسفة تسمي «الوجود الكامل إنية الشيء، وهو بعينه ماهيته، ويقولون: «ما إنية الشيء؟»، يعنون: ما وجوده الأكمل، وهو ماهيته»[3].

وهوية الشعب: ما لا يشارَك فيه من صفات معنوية، والصفاتُ المعنوية التي تتمايز بها الشعوب هي الثقافة، والثقافة هي: جوانب الحياة الإنسانية التي تُكتَسب بالتعلُّم، لا بالوراثة[4]، وهي جماع السمات الروحية والمادية والفكرية والعاطفية التي تميز فئة من الناس بعينها، وتشمل الفنون، والآداب، وطرائق الحياة، كما تشمل حقوق الإنسان، ونُظُمَ القيم، والمعتقدات، والمعرفة، والأخلاق، والرموز، والقانون، والنظرة إلى الكون، والحياة، والموت، والإنسان، ومهامِّه، وقدراته، وحدوده، وما ينبغي أن يَعمَل، وما لا ينبغي أن يأمل، والعادات التي يكتسبها، من حيث هو فرد من جماعة[5]. وأوجزها ت. س. إليوت في أنها طريقة حياة شعب، يحيا في مكان واحد[6]،

(١) أخبار الحلاج، ٢٠ (نقلا عن: العصر العباسي الثاني، ٥٣١).
(٢) العصر العباسي الثاني، ٥٣١.
(٣) كتاب الحروف، ٦٢.
(٤) علم الاجتماع، ٨٢.
(٥) مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية، ٣٠، والمسألة الثقافية في الوطن العربي، ٢١٣، ومستقبل اللغة العربية بين محاربة الأعداء وإرادة السماء، ٩٥.
(٦) ملاحظات نحو تعريف للثقافة، ١٦٨.

واللغة أساسها[1]؛ لأن الشعب الذي يحيا معا، ويتكلم بلغة واحدة يفكر ويشعر تفكيرا وشعورا يختلفان عن تفكير شعب، يستعمل لغة أخرى وشعورِه[2]. واللغة هي لسان الثقافة، ووعاؤها، ورداؤها، والدليل على العقل الذي عليه مدار الإنسانية، ولذلك عرَّفه مارتن هيدجر الإنسان بأنه «كائن لغوي»[3]، على حين عرَّفه الفلاسفة الأولون بأنه «حيوان ناطق»، سواء أكان المراد بالنطق الفكر، أم كان المراد به الكلام، بعد ما تبين أنْ لا فكْرَ بلا كلام، ولا كلام بلا فكر، وأنَّ كل واحد منهما يستلزم الآخر، وأنْ لا سبيلَ إلى التفكير بغير اللغة. فمعنى أن الإنسان «كائن لغوي»، و«حيوان ناطق» أنه قادر على التفكير؛ لأنه قادر على الكلام[4]، كما يرى كثير من الفلاسفة واللغويين. وإنما مفردات اللغة أجساد للمعاني، وأدلة عليها، حتى حين يفكر المرء في صمت، فإنَّ فكرَه مناجاةٌ للنفس صامتةٌ، فإذا نطقَ، أخرجَ فكره أصواتا[5]. من أجل ذلك قال فخر الدين الرازي إن الألفاظ لا تخطر إلا مرافِقةً للفكر، وقال زين الدين الساوي: «فكْر الإنسان في ترتيب المعاني قلَّما ينفكُّ عن تخيُّل ألفاظها معها، حتى كأنَّ الإنسان يناجي نفسه بألفاظ متخيَّلة، إذا أخذ في التروي والتفكر»[6]. وقال غوسدروف: «إن التفكير ضاجٌّ بالكلمات»، وقال أوسكار وايلد -وكان يعارض القول بتقدُّم الفكر على اللغة-: إن الأفكار تولد أبدا مكسوة لا عارية، ونحن، إذْ نبحث عن كلماتنا، إنما نبحث عنها بكلمات أخرى، وقال ميرلوبونتي: إن المعنى مأخوذ حقًّا في الكلام، والكلام ليس إلا المعنى الخارجيَّ، واللغة حالة خاصة من اتحاد النفس والبدن، وكما أن النفس لا بدن لها، وأن البدن شيء خارجي غريب عنها، ليس للأفكار لغة خارجية، وإنما الأفكار هي اللغة، وما نقع فيه من وهْم يجعلنا نقول بوجود فكرٍ قبل الكلامِ مستقلٍّ عنه، غير أن الأفكار التي انتظمت، وأُبين عنها من قبلُ

---

(١) في علم الكتابة، ٢٥٢.

(٢) ملاحظات نحو تعريف للثقافة، ١٦٩.

(٣) ما هو طريق مارتن هيدغر إلى اللغة؟.

(٤) اللغة بين القومية والعالمية، ٢١.

(٥) فلسفة اللغة، ٥٩، واللسان والإنسان، ٧٨.

(٦) البصائر النصيرية، ٥٨.

هي التي يمكن أن نستدعيها في صمت، وبها نتوهم أن لنا حياةً داخلية بغير لغة. والحقيقة أن هذا الصمت الظاهر يعجُّ بالكلام، وهذه الحياة الداخلية هي لغة داخلية[1]. وقال واتسون: إن الفكر «ليس شيئا أكثر من الكلام الذي بقي وراء الصوت، إنه كلام الحنجرة»[2]. وقال هوبز: إن المعرفة ما كانت لتأتي إلى حيز الوجود دون اللغة[3].

وإذا كان من الفلاسفة واللغويين مَنْ يَرى أن الفكر يسبق اللغة، وأن له وجوداً مستقلاً عنها، وأنْ لا ارتباطَ نوعيًّا بينهما، وأن اكتساب اللغة ليس شرطاً للتفكير، ويستدلون على ذلك بأن الصُّمَّ البُكْم يفكّرون كما يفكر غيرهم، لكنْ بغير لغة، وأن المرء يطَّرح اللفظ؛ إذا تبين أنه غير ملائم لما أراد، ويتطلَّب غيرَه حتى يُهدَى إليه، فإن لم يُهدَ إليه أمسك عن الكلام، وأن الكلام قد تُنسَى ألفاظه، دون معانيه، إلى غير ذلك من الأدلة[4] - فمما لا خلاف فيه أن اللغة (الكلام) لا تكون إلا أثرا للفكر، وترجمانا له، وأنْ ليس لها وجود قبله، أو دونه، وأنها كالورقة، وقطعةِ النقد: الفكرُ في وجهها، والصوتُ في قفاها، ولا يمكن فصل أحدهما عن الآخر إلا بتجريد، يفضي إلى خلْق علْم للنفس، وآخرَ للصوت[5]، وأن الفكرة -إن قدِّر أنَّ لها وجوداً قبل اللغة- وجدانٌ مَحْضٌ، كالشوق، والفرح، والسرور، والحزن، والرضا، لا سبيل لغير مَنْ يَجِدُه إلى معرفته، أو تَطْلُعَ عليه اللغة، فتكشف عنه ظلمات العدم، فيخرجَ إلى أنوار الوجود، كما تنشقُّ الأرحام عن الأجنة. ولولاها «لم تكن لتتعدَّى فوائدُ العلم عالِمَه، ولا صحَّ من العاقل أن يفتِّق عن أزاهير العقل كمائمه، ولتعطَّلت قوى الخواطر والأفكار من معانيها، واستوت القضية في موجودها وفانيها. نَعَمْ، ولَوَقَعَ الحي الحسَّاسُ في مرتبة الجماد، ولكان الإدراك كالذي ينافيه من الأضداد، ولبقيت القلوب مُقَفَّلة، تتصوَّن على ودائعها، والمعاني مسجونةً في مواضعها، ولصارت القرائح عن

(١) في الفكر واللغة، ٣٨ وما بعدها، واللغة، ٣٦ وما بعدها.
(٢) العلاقة بين اللغة والفكر، ٢٠ وما بعدها.
(٣) اللغة في المجتمع، ١١٤.
(٤) في الفكر واللغة، ٣٢، والغريزة اللغوية، ٧٤.
(٥) اللغة الأب، ١٥، ونشأة اللغات وحاجة الأمة للمجمع اللغوي، ١٧.

تصرُّفها معقولة، والأذهان عن سلطانها معزولة»[1]. ولعل أصحاب المنطق بنوا على هذا أن «مَنْ كان في المنطق أعلى رتبة، كان بالإنسانية أولى»[2]، كما بنى عليه خالد بن صفوان أنه «لولا التِّبْيان، لكان المرء بهيمة مهملة، أو صورة ممثَّلة»[3].

---

(١) أسرار البلاغة، ٣ وما بعدها.

(٢) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ١ / ٢٤٢.

(٣) رسالة في مائية العقل (نقلا عن: بنية العقل العربي، ٢٠).

واللغة: ما يجري على الألسنة، من كلام مُصطلَح عليه[1]، أو «عبارة المتكلم عن مقصوده»، وليست هي المفرداتِ في المعجمات، والقواعدَ في كتب النحو والصرف، وحْدَها، فإنما هذه تفسير للكلم، ووصْف لنظام اللغة، أو هي الجانب الشكلي من اللغة، وليس التفسير والوصفُ هما المفسَّرَ والموصوفَ. وقد يجهل المرءُ معجماتِ اللغة وقواعدَها الصناعية وهو عارف باللغة، كما كان العرب قبل تأليف المعجمات وكتب النحو والصرف، وكما كان بعضُهم بعْدَه، بل كان منهم من يجتوي النحو، ويذمُّ تعلُّمه[2]، ويكره ما وضع النحاة منه، كما قال أحدهم:

ماذا لقيتُ منَ المستَعْربينَ ومِنْ ... تأسيس نحوهمُ هذا الذي ابْتدَعوا
إن قُلتُ قافيةً فيه يكونُ لها ... معنى يخالف ما قاسوا وما وضعوا
قالوا: لحَنْتَ، وهذا الحرف منخفضٌ، ... نصْبٌ، وهذا ليسَ يرتَفِعُ
وحرَّشوا بينَ عبدِ الله، واجتهدوا، ... وبينَ زيْدٍ، وطالَ الضّرْبُ والوَجَعُ
إني نشأت بأرض، لا تُشَبُّ بها ... نارُ المجوس، ولا تُبنَى بها البِيَعُ
ولا يطا القردُ والخنزير ساحتها ... ولكنْ بها الْهَيْقُ والسِّيدان والصَّدَعُ
ما كلُّ قوليَ معروف لكم فخذوا ... ما تعرفون، وما لم تعرفوا فدعوا
كمْ بيْنَ قومٍ قد احْتالوا لمنطقِهمْ ... وآخرينَ على إعرابِهم طُبِعوا
وبين قومٍ رأوا شيئا معاينةً، ... وبين قوم رووا بعض الذي سمعوا[3]

وهم -مع ذلك- أعلم باللغة ممن جَمعَ مفرداتها، ووصَفَ نظامها، واستخرج قواعدها. وللغة معنى وراء الشكل، وما يجري على ألسنة الناس من كلام مصطلح عليه، هو مضمونها، أي ما تحمل من المعاني، والعلوم، والفِكَر،

---

(١) المقدمة، ٥/ ٢٩٦.

(٢) انظر: البيان والتبيين، ١/ ٤٠٢.

(٣) الإمتاع والمؤانسة، ٢/ ١٤٠.

والثقافات. واللغة بهذا المعنى هي التي تنسب إلى «الإرهاب»، و«الظلام»، و«الأصولية»، والجوع، والفقر، والشعر، والشغف، والوفرة[1]، والوضوح، والعدْل، والصداقة، والحرية، وحقوق الإنسان، والدموع، والميل إلى التفصيل، والتحليل، والتوسع، وبيانِ المعنى الكلي، وجَمْعِه في صيغ واضحة وقريبة[2]، أو الميل إلى الإيجاز، واللمحة الدالة. فإنما هذه صفات مضمون الكلام الذي يجري على الألسنة، وليست بصفاتٍ لشكل اللغة، أي نحوها وصرفها وألفاظها. وهي بهذا المعنى قد تُطلق ويراد أهلها، ويُطلق أهلها وتكون هي المرادة، كقول لويس لابورير: نحن الفرنسيين نتَّبع تسلسل نظام التفكير في أقوالنا كلها، وهو نظام الطبيعة. وقولِ أنطوان دي ريفارول: قد يكون المبهم إنجليزيا، أو إيطاليا، أو يونانيا، أو لاتينيا، ولا يكون فرنسيا، فما ليس بواضح ليس بفرنسي[3]. فإنما هذا وصف لمذهب الفرنسيين في الكلام، وهو جزء من ثقافتهم، وليس وصفا للفرنسية، من حيث هي نظام نحوي وصرفي، ولذلك أسنده لويس وأنطوان إلى الفرنسيين لا إلى الفرنسية، وأسند أوتو جسبرسن ما يشاكله إلى الإنجليزية، وهو يعني به الإنجليز، فقال: الإنجليزية تفوق الفرنسية في أمور كثيرة، منها منطقيتها، وأنها منهجية، وحيوية، ورسمية، ومتَّزِنة، ولا تهتمُّ بالأناقة، وإنما يهمها الانتظام المنطقي[4]. فإن الذي «يهتمُّ» هو الناس، لا اللغة، لكنْ لَمَّا كانت اللغات مستودَعاتٍ لما تنطوي عليه أفئدة أهلها من علومٍ ومعارفَ وأفكار، ومستودعاتٍ لثقافاتهم، ومعارضَ لمذاهبهم في القول، نُسبَ ذلك إليها، على سبيل المجاز. وهذا ما يبين عنه قول كلود ليفي شتراوس: إذا قلنا «الإنسان»، فإنما نريد اللغة، وإذا قلنا «اللغة»، فإنما نعني المجتمع[5]. أما الإنجليزية، والفرنسية، مِنْ حيث هما معجم، ونحو وصرف، فصالحتان -كغيرهما من اللغات- لأن تُبِينا عن كلِّ ما أراد مَن يتكلم بهما: حقوق الإنسان، والآداب، والفنون، والشرائع،

(١) طريق العودة، ١٩.
(٢) انظر: التعصب، ١٤٨، والهيمنة اللغوية، ٣٩٩، والاستشراق، ٤١٢، واللغة العربية بين الاستجابة لمتطلبات التنمية وهاجس المحافظة على الهوية، ١٣١.
(٣) عبر منظار اللغة، ٢١، ومكانة اللغة الفرنسية في المغرب.
(٤) الموضع السابق.
(٥) تعريب التعليم الجامعي: ضرورات ملزمة، ومنافع مؤكدة، واعتراضات مفندة، ٢٨.

والقوانين، والفلسفة، وغيرها، وصالحتان للإيجاز، والإطناب، والإجمال، والتفصيل، والتحليل، والأناقة، وضدها، والاتزان وضده، إلخ. فقد استعمل الإمام الغزالي (الفارسي، الفقيه، المتصوف، الفيلسوف، المتكلم) العربيةَ، فوعظ وعلَّم، وتفقَّه وتكلَّم، وتفلسف، واستعملها الإمام مالك بن أنس (العربي الحجازي، الفقيه، المحدِّث)، فعلَّم، وألَّف، فأجمل الغزالي وفصَّل، وحلَّل وأطنب، وسبَح في عالم الروح، والملكوت، وخاض لجج الفلسفة، وعلْم الكلام، والفقه، والأصول، وقرَضَ الشعر، وأوجز مالك بن أنس، وأجمل فيما قال وكتب، واقتصر على الحديث والفقه. وكتب بها المصريون المعاصرون: أحمد حسن الزيات، وطه حسين، والعقاد، فكان الغالب على الزيات المقالة، من حيث النوع الأدبي، والإيجاز، من حيث الأسلوب، والعناية بالمناسبات، والقضايا العامة، من حيث الموضوع، وكان الغالب على طه حسين الإطناب، والتاريخ، والأدب، والسيرة، والترجمة، والرواية. وكتبَ بها العقاد في العلم، والفلسفة، والعقائد، والنقد، واللغة، والأدب، والسياسة، والاجتماع، والتاريخ، وكَتَبَ المقالة، والقصة، والسيرة، والترجمة، فأجمل وفصَّل، وأوجز وأطنب. وكتب بها كل مَنْ تعلَّمها من الشعوب قديما وحديثا، كالفرس، والسريان، واليهود، والصابئة، والترك، والكرد، والقبط، والبربر، والهنود، والأفغان، والأرمن، والزنج، والفرنج، فكان ما أودعوها هو ما أودعوا لغاتهم، أو يمكن أن يودعوها، إن شاؤوا، من معان، وموضوعات، وعلوم، وطرائقِ تفكير، وتأليف، ولم تغيِّر من ذلك أنظمة العربية النحوية والصرفية، ولا حالت دون بلوغ ما أرادوا. وكان الإمام الغزالي ربما ألَّف الكتاب من كتبه باللغتين العربية والفارسية، فلا تختلف النسخة الفارسية عن النسخة العربية إلا في اللغة، وكان موسى بن سيار الأُسواري يجلس في مجلسه، فتقعد العرب عن يمينه، والفرس عن يساره، فيقرأ الآية، «ويفسِّرها للعرب بالعربية، ثم يحوِّل وجهه إلى الفرس، فيفسِّرها لهم بالفارسية، فلا يُدرَى بأي لسان هو أبين»[1]. فالموضوع واحد، والمعالجة واحدة، وإنما اختلف الوعاء الذي أُخرجا فيه (اللغة).

ومما يبين عن معنى اللغة هذا أن المفردات يكون لها في كلام الناس من

(١) البيان والتبيين، ١/ ٣٦٨.

المعاني أكثرُ مما تُورِد المعجمات، فما تورد المعجمات من معاني «الحمامة» و«الجبل» -مثلا- هو ما وُضِعتا له في الأصل (الطائر المعروف، و«ما علا من الأرض واستطال، وجاوز التلَّ ارتفاعا»)، أما ما توحيان من معانٍ، وتْخطران من ذكريات، وتوقعان في القلوب من تأثير، مما يمكن أن يسمَّى دلالتهما الرمزية التي هي روحهما، فليس من دأب المعجمات أن تعنى بإيراده، ولو عُنِيَت به، لتعذَّر عليها إحصاؤه، والإبانة عن بعضه؛ لأنه غير ثابت، ويختلف فيه أهل اللغة الواحدة، باختلاف الزمن، والثقافات الفرعية، والبيئات، والتجارب، وبعضه كأنغام الموسيقا، يوقع في النفس من التأثير، ويوحي إليها من المعاني، ما لا يبين عنه لسان. فالحمامة -مثلا- في قول الشاعر:

تُذَكِّرُني أمَّ العلاء حمائمٌ، تجاوبْنَ إذ مالتْ بهنَّ غصونُ
تَمَلَّأ طَلاً ريشكُنَّ من الندى وتَخْضرُّ مما حولَكنَّ فنونُ
ألا يا حماماتِ اللِّوى، عُدْنَ عودةً؛ فإني إلى أصواتكنَّ حزينُ
فعدنَ، فلمَّا عُدنَ كِدْنَ يُمِتنَني، وكِدتُ بأسراري لهنَّ أُبينُ
وعُدنَ بقَرْقار الهديرِ، كأنما سُقِينَ حُمَيَّا، أو بِهنَّ جنونُ
فلمْ ترَ عيني مثلَهنَّ حمائمًا، بَكيْنَ، ولم تدمعْ لهنَّ عُيونُ

وقول الآخر:

رُبَّ ورقاءَ هتوفٍ في الضُّحى ذاتِ شَجْوٍ، صَدَحَتْ في فَنَنِ
ذَكَرَتْ عَهْدًا وإلْفا سابقًا؛ فبكتْ حُزْنًا؛ فهاجتْ حَزَني
فبكائي ربَّما أرَّقها وبكاها ربما أرَّقني
ولقد تبكي فما أفهمُها، ولقد أبكي فما تفهمُني
غيرَ أني بالجوى أعرِفُها وهي -أيضًا- بالجوى تعرفني
أتُراها بالبكا مولعةً؟ أم سقاها البين ما جرَّعني؟

- ليست بطائر، فحسب، ولكنها الوفاء، والشَّجا، والفَقْد أيضا، وكلُّ ما يَرِدُ على الخيالِ من صور، ويَخْطِر بالقلب من معان، ويخامره من شعور، مِنْ ذِكْر الحمام، وأسطورةِ «هديل» التي تلمِّح إليها هاتان القطعتان، وهي تدَّعي أن فرْخا من الحمام قتله جارح من الطير، على عهد نوح -عليه السلام-؛ فالحمام ينوح عليه أبدا، كما لَمَّح إلى ذلك أبو العلاء المعري في قوله:

إيهِ، لله دَرُّكُنَّ؛ فأنْتُنْـ ـنَ اللواتي تُحْسِنَّ حِفظَ الوِدادِ

مـا نَسيتُنَّ هـالكًا فـي الأوانِ الـ ـخال، أوْدَى مِـنْ قَبـلِ هُلْـك إيـاد

وهـذا المعنـى، ومـا يلابسـه مـن إيحـاء، وما يترك في النفس من آثار، هـو معنى الحمام، حين يرِد في الأدب العربي، في مقام الحزن، وقلَّما يُذْكَر فيه من حيث هو طائر، فحسب. وPigeon (الحمامة) في الإنجليزية، وPigeonne في الفرنسية، رمز للسلام، ولعله مستوحًى من قصةٍ، وردت في التوراة، تقول إن نوحا -عليه السلام- لما تقضَّى الطوفان، بعث بغراب، ينظر له حال الأرض، فخرج متردِّدًا، ثم أرسل الحمامة؛ لِيَرَى هل قَلَّ الماء، فلم تجد مقرًّا لرجليها، فرجعت إليه، فَلَبِث سبعة أَيام، ثم أرسلها مرة أخرى، فعادت إليه عند المساء وفي منقارها ورقة زيتون خضراء، فعلم أَن الماء قد قَلَّ، فَلَبِثَ سبعة أَيام أُخَرَ، ثم أرسلها فلم تَعُدْ؛ فعلم أن الأرض قد يبست، وغدت صالحة للحياة[1]. ولعلَّ هذه القصة هي أصل اتخاذ الغربيين الحمامة التي تحمل في منقارها غصن زيتون رمزا للسلام، كما يتخذون الحمامة التي تحمل في منقارها رسالة رمزا للحب، وهو معنى مستوحى من حمام الزاجل الذي جلبه الصليبيون من بلاد المسلمين، وما تزال قرابين أبنائهم الملونة تزيَّن بهذه الصورة[2].

والجبل في قول الله - تعالى -: (وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال)، وقولِ الفرزدق:

أحلامنـا تَـزِنُ الجبـال رَزانـةً وتَخالُنـا جِنًّـا، إذا مـا نجهـلُ

وقولِ عروة بن حزام:

تَحمَّلتُ من عفراءَ ما ليس لي به، ولا للجبـالِ الراسـياتِ، يَـدَانِ

ليس هو «ما علا من الأرض واستطال، وجاوز التل ارتفاعا»، وإنما هو الثِّقَل، والرزانة، والثبات. وmountain (الجبل) في الإنجليزية رمز للضخم، يقال فيها: عندي جبال من الأعمال، وجبال من المصاعب، وجبال من الزبدة، ولا يستعمل رمزا للثقل والرزانة، كما في العربية، ولا يهيج لقلبِ الإنجليزي من المشاعر، ولا لخيالِه من الصور ما يهيج للعربي. من أجل ذلك ساغ أن يقال إن العربية هي العرب، والإنجليزية هي الإنجليز، وإنَّ كلَّ لغة هي أهلُها؛ لأنها وعاء

---

(١) سفر التكوين، الإصحاح الثامن.

(٢) شمس العرب تسطع على الغرب، ٥٢.

ثقافتهم، ومشاعرهم، وما أنتجت عقولهم، وكلّ ما ليس وراءه منهم إلا الأبدان.
أما اللغة -من حيث هي شكل-، فقابلة لأن تَحْمِل ما حُمِّلَت، ولأنْ يتكلَّم بها كلُّ من تعلَّمها، وليست بالتي تدل على أهلها، ولا بالتي توصف بأنها هوية، وإن كان المضمون الذي هو الهوية لا ينفك عن الشكل، ولا وجود له دونه، كما أن الشكل وحده لا وجود له دون المضمون إلا في كتب النحو والصرف.

وإنما يُدرِك معاني الألفاظ الرمزيةَ أهلُ اللغة، دون من يتعلمونها من غيرهم، وهم الذين يتأثرون بها ما لا يتأثر غيرهم، أما من يتعلمونها، فـ«الحمام» و«الجبل» عندهم لا يعنيان أكثر مما يَرِد في المعجمات العربية، كما لا يزيد معنى Pigeon وMountain عند مَنْ يتعلمون الإنجليزية -من غير الإنجليز- على ما يَرِد في المعجمات الإنجليزية، ولو زادا عليه، بأن عَرَفوا مِنَ الأدب والثقافة ما تدلاَّن عليه من المعاني، أو بعضَ ما تدلان عليه، ما كان لهما أن يوقعا في نفوسهم من الأثر، حين يُذْكَران، ما يوقعان في نفوس العرب والإنجليز؛ لأن التأثير أثر من علاقات الشعوب بما ترمز إليه ألفاظها، وليس مما يُحْدِثُه التعلُّم. **فألفاظ اللغات الأجنبية عند من يتعلمها من غير أهلها كأيقونات** الحاسوب، وأزرار الآلات: تدل على معنى واحد، ودلالتها عليه دلالة آلية، لا صلة لها بالشعور، وهي عند أهلها ملأى بالأسرار والرموز، شديدة اللصوق بالأفئدة، والاستعمالُ والثقافة هما اللذان وضعا لها تلك الأسرار والرموز، وما لا تُبِين عنه المعجماتُ، وكتبُ النحو، والصرف، والبلاغة، وجعلا لكل مفردة منها وكلِّ أسلوب موضعا من القلب، لا يبلغه غيرُهما من مفردات اللغات وأساليبها. وقد تتفق اللغتان في استعمال الكلمتين المترادفتين فيهما فيما تُستعاران له من المعاني اتفاقَ العربية والفارسية فيما تستعار له «يد» و«دَسْت»[(١)] من غير أن يتطابق أثراهما في أهل اللغتين كما يتطابق ما ترمزان إليه. فـ«الحمار» و«donkey» رمزان للبلادة في العربية والإنجليزية، بيد أن العربي قد يعدل عن «الحمار» إلى «donkey» في بعض المقامات؛ لأنه يجد لـ «الحمار» من الشناعة ما لا يجد لـ «donkey». هذا إلى أن الكلمة الإنجليزية -إذ يستعملها العربي- إنما تكتسب ما تكتسب من المعاني الرمزية من كونها مرادفا معجميا للكلمة

(١) إلجام العوام عن علم الكلام، ١٧ وما بعدها.

العربية، ومع ذلك يبقى ما فيها من شحنات دون ما في الكلمة العربية. وقد يُتعمَّد استعمال الكلمة العربية في بعض المقامات؛ لأن الكلمة الإنجليزية تقصّر عن أداء ما تؤدي، كأن يكون المرء غضبان؛ فيكون ما في الكلمة العربية من شحنات هو ما يشفي الصدر، ويذهب الغيظ. وإنما اكتسبت الكلمة العربية رمزيتها وما فيها من شحنات من استعمالها في المقامات التي تستعمل فيها، حتى غدت في الشعور العربي عَلَمًا على تلك المعاني، ورمزا لها، دون ما يرادفها من الكلمات، ولا يبلغ ما في النفس غيرُها، بخلاف الكلمة الإنجليزية، فليس لها -لحداثة عهدها بالثقافة بالعربية- رصيد ثقافي نفسي، وما كانت موافقتُها الكلمةَ العربية في الدلالة المعجمية والمجازية وحدها لتكسبها ما فيها من إيحاء وتأثير، حتى لترادفُها فيهما كما ترادفها في الدلالة على أصل المعنى (الحيوان). وقد يزيد هذا وضوحا قول الكاتبة الأمريكية الهندية الأصل، بهارتي موكرجي، إنها تعلمت معنى «الخوف»، من المذابح التي وقعت بين المسلمين والهنادكة عام ١٩٤٦، وكانت أعنف الحوادث في ذواكر الناس، وقد حملت قبيلتَها آل موكرجي على الهجرة من قريتهم، فجاؤوا محملين بحكايات الإحراق والنهب والاغتصاب، ومن دموعهم وكوابيسهم وعويلهم تعلّمت معنى «الخوف» بالبنغالية، وما فيها من ألم، وصدى، وإنها ما تعرف اليوم كلمة إنجليزية، يمكن أن تؤدي معنى «خوف» بالبنغالية كما رأته في وجوه قومها يومئذ[1]، وما قال بعض كتاب المغرب، من أنهم لم يستطيعوا الكتابة بالعربية في بعض المعاني[2]؛ لأنهم يجدون للكلمة العربية من الفظاعة ما لا يجدون لمرادفتها الفرنسية. ويرغب بعض العرب في فلسطين المحتلة عن اللفظ العربي إلى مرادفه العبري؛ لأن أثره دون أثره، كما يستعملون «شيروتيم» بدلا من «مراحيض»، وكلّ كلمة، تدل على ما لا يحسن التصريح به[3]. وفي دراسة للغة طلاب بعض الثانويات التونسية أن ثلثهم يتكلمون بالفرنسية إذا غضبوا، وفسّر بعضهم ذلك بأن استعمال الكلام الأجنبي في بعض المقامات ضرب من

---

(١) طريق العودة، ٢٢.

(٢) اللغة والسلطة والمجتمع في المغرب العربي، ١٤٦.

(٣) اللغة العربية في إسرائيل، ١١٨.

ضروب الكناية عما يُتصاوَن عنه من نابي الألفاظ؛ فإن اللفظ الأجنبي يؤدي ما يؤدي اللفظ العربي، لكن قلة استعمال العرب إياه نزعت منه ما يتلبَّس به اللفظ العربي من رمزية، أو نزعت بعضه[1]. فإذا كثر استعماله، غدا كاللفظ العربي في رمزيته، وصار مرادفا له في كل شيء، كما أن المجازات والكنايات المهذَّبة إذا كثر استعمالها غدت كالحقيقة في صراحتها، وزال الفرق بينها وبين الألفاظ ذات الدلالة الصريحة على ما يُكنَّى عنه، حتى لا يفرِّق بينها إلا العارف بتاريخها. وهذا معنى قول اللغويين إن «المجاز متى كثر استعماله كان حقيقة، عُرْفا»[2]، وقول ابن جني: «المجاز إذا كثر لحقَ بالحقيقة»[3]. والمعتدُّ به في الثقافات ليس أصول معاني المفردات والأساليب اللغوية، وإنما ما يُحدِث لها الاستعمال من معان، وآثار، وإيحاء، قد تُنْسِي معانيها اللغوية[4]. ولهذا قال إدوارد سابير إن من الخطأ الظنَّ أنه يمكن فهم الثقافة من المراقبة الدقيقة وحدها، دون إرشاد من الرمز اللغوي الذي يكسو الثقافة أهميةً، ويجعلها مفهومة عند الناس. فالناس لا يَحْيَوْن منعزلين في عالم الحس، وإنما توجههم لغة، هي وسيلة التعبير والاتصال بينهم. وهذا العالم قد بَنَتْه -إلى حد كبير- بناءً غير واعٍ عاداتُ اللغة. وليس في اللغات لغتان متطابقتان تطابقا تاما، يجعل كلا منهما تُبِين عن واقع الأخرى كإبانتها عن واقعها، والعوالم مختلفة كاختلاف المجتمعات، وليست عالما واحدا، يسميه كلٌّ بما يشاء[5]. وهذا معنى قول اللغويين إن لكل لغة نظرةً خاصة إلى العالم، ليس حتما أن تكون مطابقة لنظرات اللغات الأخرى، وإن المرء يستقبل ما تسمح به لغته، وما عوَّدته إياه، وهيَّأته لاستقباله، وهي تتحكم في نظرته إلى العالم، وإنَّ «كل لسان يقطِّع الواقع كما يشاء، وينظم المعقولات، ويولِّد تأويلا للعالم»[6]. والشعوب إذ تشير إلى الأشياء في لغاتها تهتم أكثر شيء بإيحائها، وهو إيحاء لا يطابق إيحاء اللغات الأخرى؛ إذ من غير

---

(١) التعريب والازدواجية في تونس، ٢٩٨.
(٢) المزهر في علوم اللغة، ١/ ٣٦٨.
(٣) الخصائص، ٣/ ٤٤٧.
(٤) جدلية الحرف العربي وفيزيائية الفكر والمادة، ٨.
(٥) الموسوعة اللغوية، ٢/ ٤٦٠ وما بعدها.
(٦) اللغة وتمثيل الهوية: تحليل مفهومي، ٢٩، واللغة والهوية، العشيري، ٤٢.

الممكن أن تَعْنِيَ كلمتان من لغتين مختلفتين -تَعُدُّ المعجمات إحداهما مرادفة للأخرى- شيئا واحدا. وإننا، إذ نتكلم عن العالم بلغتين مختلفتين، لا نتكلم عن عالم واحد، وإنما نتكلم عن صورتين لعالمين اثنين؛ ولهذا قال جوستاف لوبون: إن الأمم إذا ما اختلفت، دلَّت الكلمات المتقابلة عندها على طُرُز من التفكير والشعور، تبلغ من التباعد ما تبدو لغاتها معه عارية من المترادفات؛ فتستحيل الترجمة من إحداها إلى الأخرى[1]. من أجل ذلك تصعب الترجمة لاختلاف «عوالم» اللغات، وتبايُن المقولات الفكرية المستعملة في كل لغة. واختلاف العوالم، وتباين المقولات مما يحول دون تداخل الحضارات، وتبادل اللغات والألفاظ والمعاني[2]؛ فإن كل قوم يَحْشُون لغتهم بعالمهم الثقافي. والثقافة هي التي توجِّه فهْم المرء لما يقرأ ويسمع؛ إذ لكل لفظ في لغة من اللغات معنى رمزي، تصنعه ثقافة أهلها، ومن قرأ نصًّا بلغة أجنبية حمَّل كل لفظ منه ما عهد من دلالةِ «مرادفِه» في لغته، ولم يكن في وسعه أن يفهمه على وجه آخر، ولا أن يفهم منه ما يفهم منه أهله؛ لأنه في عالمه الثقافي يختلف عنه في عالمهم. ومعنى ذلك أن الأشياء في عالم الثقافة ليست هي الأشياء في عالم المادة. وإذا كانت اللغات تدل على عوالم شتى، فكل نصٍّ، تُرْجِمَ، اطُّرح من عالمه ما ليس في عالم اللغة التي يترجَم إليها، فلم يبق منه إلا معناه المعجمي، وما تشترك فيه الثقافات، وتتلاقى عليه العقول، من المعاني؛ من أجل ذلك عُدَّت الترجمة ضربا من الغش والتشويه، وخيانةِ الأصل العفيف، والفكر الأصيل، تسوِّغه الحاجة إلى المعرفة، وشُبِّه بالمرأة في أنها إما أن تكون جميلة وليست بوفية، وإما أن تكون وفية وليست بجميلة، ومن النادر أن تكون جميلة ووفية، وقد تكون غير وفية ولا جميلة[3]. ويغلب على الترجمة أن تكون قليلة البهاء، منزوعة الروح، لتجرُّدها من الرمز، وما يتبعه من إيحاء وتأثير، وليس في

---

(١) جدلية الحرف العربي، ٧٠.

(٢) انظر: البحث اللغوي وأصالة الفكر العربي، ١٨، واللغة والسحر، ٥٣، والترجمة الأدبية مهمة شاقة لكنها ممتعة، ١٤٠، والإشكالية اللغوية في الفلسفة العربية، ١٤.

(٣) انظر: أزمة اللغة والترجمة، ١٠٣ وما بعدها، ومن إشكالات الترجمة الأدبية وخصوصيتها الثقافية، ٢١٩، ودفاعا عن اللغة العربية، ٢٤، والترجمة من حيث هي عامل هام من عوامل العدوى اللغوية، ٩، ومصير وحدة الجزائر، ٢٧٠، وإنية وأصالة، ٣٣ (هامش)، وأصالية أم انفصالية، ٢/ ٣٧٦، وحركة الترجمة في تونس، ٥١، وأزمة اللغة والترجمة، ١٠٣ وما بعدها.

وسعها أكثر من التقريب، ولهذا كانت جديرة بأن توصف بالعدوان والخيانة؛ لأنها تعتدي على الكلام، فتنزع روحه، وتسلبه خصائصه، وتحيله كلاما باردا، لا يكاد يبين عن شيء مما كان يبين عنه، وتُلْبِسه رداء ثقافة أخرى، ليس بينه وبينها سبب؛ فلا يلائمه، وكل ما في وسعها هو أن تقرِّبه إلى من تترجمه إلى لغته بالقدْر الذي تبعِّده عن أصله، كما قال الكاتب الأمريكي البلجيكي الأصل، لوك سانت في قصيدة للشاعر الفرنسي أندريه بريتون، عنوانها «الاتحاد الحر» (L'union libre)، من أكثر النصوص مجونا في الأدب كله، وصفَ فيها محبوبته بأوصاف لا تتأتى في الإنجليزية: لم تكن ترجمة القصيدة إلى الإنجليزية قبيحة، لكنها كانت خالية من السحر والموسيقى، كانت شدة تحرج الإنجليزية من النصوص الماجنة سبب غياب السحر والموسيقى، وكانت سلاسل الحرير التي يتألف منها تركيب حروف الجر وأسمائها في الفرنسية مصدرا للسحر وقوته. لا شك أن اللغات تتفاوت، وأن ليس من العدل قياس تفاوت اللغات ذلك بميزان واحد، ومع ذلك، إذا ترجم الشعر الفرنسي إلى الإنجليزية، بدا الإصدار الإنجليزي جافيا، لا سحر فيه، ألبتة[١]. ويطَّرد ذلك وعمقُ المترجَم، وبلاغته، وتأثُّله في ثقافة المنشئ، وإيغاله فيها، وفقهُ منشئه باللغة، واقتداره على التفنن فيها؛ فإن ذلك يجعل الكلام خاصا، لا يمكن أن يُترجَم منه إلا مجمل معناه. ولهذا كانت ترجمة بعض فنون الأدب أمراً غير ممكن، كما قال الجاحظ إن «الشعر لا يستطاع أن يترجَم، ولا يجوز عليه النقل، ومتى حُوِّل تقطَّع نظمه، وبطل وزنه، وذهب حسنه، وسقط موضع التعجب»[٢]؛ لأنه موغل في الثقافة، والتجارب الخاصة، ويَتفنَّن في نظم اللغة تفننا يجعل كلَّ تغيير فيه -وإن قلَّ- مخلاً به، ويجرده من «موضع التعجب»، بخلاف ما يقع فيه الاشتراك من المعاني والحقائق، كالنثر العلمي. ويقال مثل ذلك في الفلسفة، والأديان، والعلوم، كما قال الجاحظ -أيضا-: «قال بعض من ينصر الشعر ويحوطه ويحتجُّ له: إن الترجمان لا يؤدي أبدا ما قال الحكيم (الفيلسوف)، على خصائص معانيه، وحقائق مذاهبه، ودقائق اختصاراته، وخفيات حدوده، ولا

---

(١) الفرنسية دون دموع، ٩٧.
(٢) الحيوان، ١/ ٧٤ وما بعدها.

يقدر أن يوفيها حقوقها، ويؤدي الأمانة فيها، ويقوم بما يلزم الوكيل، ويجب على الجريِّ (الوكيل). وكيف يقدر على أدائها وتسليم معانيها، والإخبار عنها على حقها وصدقها، إلا أن يكون في العلم بمعانيها، واستعمال تصاريف ألفاظها، وتأويلات مخارجها مثل مؤلف الكتاب وواضعه؟ فمتى كان -رحمه الله تعالى- ابنُ البطريق، وابن الناعمة، وابن قرة، وابن فِهريز، وثيفيل، وابن وهيلي، وابن المقفع مثلَ أرسطاطاليس؟ ومتى كان خالد مثلَ أفلاطون؟»[1].
وقال: كلما كان الباب من العلم أعسر وأضيق، والعلماء به أقل، كان أشد على المترجم، وأجدر أن يخطئ فيه، ولن تجد ألبتة مترجما يفي بواحد من هؤلاء العلماء[2]. ولما كان استيعاب هؤلاء التراجمة للفلسفة التي يترجمون ضعيفا، ولم يكن علمهم باليونانية كعلم الذين يترجمون عنهم من أهلها، كانت ترجمتهم بما هو معروف من الضعف، وقلة الرونق، والعجز عن أداء المعنى، فضلا عما ارتكب بعضهم من ترجمة حرفية، لم تكن تزيد على وضع الكلمة مقابل الكلمة، فإن لم يجدوا لها مقابلا أبقوها بلفظها الأعجمي؛ فتعذر على قارئ ما ترجموا أن يفهم كثيرا منه. وهو من أسباب ما يقع في الترجمة إلى العربية في هذا العصر، لقلة علم التراجمة باللغة الأجنبية التي يترجمون منها، وما يترتب على ذلك من قلة فهم ما يقرؤون بها، فعجزهم عن تأديته بالعربية. هذا إلى أن الأصل ألا تتطابق دلالات الألفاظ «المترادفة» من اللغات المختلفة، ولا سيما الجانب الرمزي منها، وإنما تتوافق -إن توافقت- في أصول المعاني، وأن ما في بناء اللغات من تباين يمنع أن تتساوى في البيان.

ومما يَتْبَعُ هذا أن المعرفة المستخلصة من اللغة لا يصونها من الضياع أن تترجم إلى لغة أخرى[3]؛ إذ الألفاظ معبأة بمعارف وثقافات، ليست في مرادفاتها من سائر اللغات، فإذا ماتت الألفاظ، أو تُرْجِمت، ضاع ما في جوفها؛ لأن اللغة التي تترجَم إليها ليس فيها من الألفاظ ما يبين عن تلك المعارف كما هي في لغتها. وإذا كانت اللغة «تحمل العالم في جوفها»، كما قال جاك دريدا،

---

(١) الحيوان، ١/ ٧٥ وما بعدها.

(٢) السابق، ١/ ٧٧.

(٣) عند ما تموت اللغات، ٣٣ و ٧٧.

فإن انقراضها ذهاب لما في جوفها، وما في جوفها هو الأمة التي كانت تتكلم بها، فكرا، وآدابا، وعلوما، وثقافة، وفنونا، وتجارب، وقصصا، وحكايات، وتراثا شعبيا، وطرائق في الحديث عن العالم، تزول بزوالها الحكمة المتراكمة، ومعارفُ، جمعتها أجيال من البشر عن الطبيعة، والنبات، والحيوان، وحالة الجو، والتُّربة، وكانت أثرا للتفاعل بينها وبين البيئة آلافَ السنين، وهي خسارة، لا سبيل إلى تعويضها، ولا إلى استعادتها[١]، ولا إلى معرفتها بعد أهلها، ومن غير الممكن أن تُسمَع بعدهم، وإن حُفِظ بعضها مسجَّلا؛ فإنَّ تجارب الناس شيء ليس كالذي يترجمه عُلماء الآثار[٢]، كما قال كين هيل: إنك إذا فقدتَ اللغة، فقدتَ حضارة، وثروة عقلية، وأعمالا فنية فقدانا يشبه «إلقاء قنبلة على متحف اللوفر»[٣]؛ لأن شبكة الأنماط الثقافية لحضارة ما مفهرسة في اللغة التي تعبر عنها[٤]. وقسْ ذلك بما آل إليه أمر الترك، مذ غيَّر مصطفى كمال كتابتهم، وأسقط ما في لغتهم من مفردات إسلامية (عربية وفارسية)، وهو أكثرها، فأسقط بقدره من حضارتهم، وتاريخهم، فحلت محله مفردات وعبارات فرنسية وإنجليزية، تحمل من الثقافة الفرنسية والإنجليزية بقدرها، وسلب الترك حضارتهم وثقافتهم ومحا ذاكرتهم، وحال بينهم وبين ما كُتِب بلغتهم قرونا كثيرا، وهو ملايين الكتب والوثائق المطبوعة والمخطوطة؛ فتعذرت عليهم قراءة ما كُتِبَ بها وفهمه، كشواهد قبور الأجداد الذين توفوا قبل قرن، فكان لزاما على من أراد أن يعالج ذلك أن يحيي اللغة العثمانية ويعلمها، كما فعل الرئيس التركي رجب طيب أردغان[٥].

من أجل ذلك كان حزن اللغويين على موت ما يموت من اللغات، وعدُّه مأساة؛ لأنه موت لكل ما كان في قلوب أهلها وعقولهم من معان ومعارف، واللغة إذا ماتت وبقي أهلها، بقيت في قلوبهم وثقافاتهم مجاهل، لا تَطُورُها لغة من اللغات، كما قالت مارتا -وهي امرأة من قبيلة التوفا السيبيرية- إنه لا

(١) عند ما تموت اللغات، ٢١.
(٢) لغات في الطريق إلى الاندثار، ١٠٥.
(٣) عندما تموت اللغات، ٧.
(٤) الموسوعة اللغوية، ٢/ ٤٦٠ وما بعدها.
(٥) تركيا: إحياء اللغة العثمانية إرث ثقيل في ميزان السياسة، والرئيس أردغان يدعو لإثراء اللغة التركية.

يمكنها البيانُ عن معرفتها بيانا سليما ومؤثرا بالروسية؛ لأنها تفتقر إلى الكلمات التي تدل على معانٍ بعينها، كرائحة لبن غزلان الرَّنَّة، وغزال الرنة الفحل ذي ثلاثة الأعوام الذي يُرْكَب[1]. ويقال في أهل اللغة إذا انقرضوا ما يقال في اللغة إذا انقرضت، فأهل اللغة إذا انقرضوا انقرض معهم ما تشتمل عليه لغتهم من علوم، وثقافات، ومعارف، وبقي ما دُوِّن منها أوعيةً مغلَّقة، لا يُنتفَع بها كما لا يُنتفَع بما فُقِدَت مفاتيحه؛ لأن الذي يستوعب دلالات ألفاظ اللغة، ويدرك إيحاءها هو أهلها وحدهم، فإذا ذهبوا لم يبق من لغتهم إلا حروف، لا تدل على أكثر مما تدل عليه الآثار الباقية من الديار. ففي غابات الأمزون -مثلا- علاج للسرطان، مستخرَج من نبات، لا يعرفه إلا الشمانيون المحليون، وتَكْسَب شركات الأدوية نحوا من خمسة وثمانين مليارا كل عام، من أدوية، صُنِعت من نبات، كان سكانها أولَ من عرف فوائده الطبية. وتذهب التقارير الموثوق بها إلى أن ٨٧ ٪ من أنواع النبات والحيوان الحي لَمَّا يعرفه العلم الحديث، وإنما يَعرِفه ويعرف خصائصَه، وأسماءَ ما يُصنَعُ منه من الأدوية الكثيرةِ أهلُ ذلك الإقليم، وربما لا تكون له أسماء في لغة أخرى من لغات العالم، فإذا انقرضوا أو انقرضت لغتهم، ذهبت أسماء تلك الأدوية، وجُهِل ما اتصل بها من معارف، وما يمكن أن تستعمل في علاجه من أمراض. وما يَعرِف العلمُ اليومَ من الأحياء هو بعض المخلوقات التي تمكن رؤيتها بالعين، أما سائرها، فقد يكون كثير منه معروفا في لغات، لو دُرِست، لكان من الممكن أن تَسُدَّ نقْص العلم؛ إذ أكثرُ ما يَعرف البشر من أمر الطبيعة لا وجود له إلا في اللغات غير المدونة[2]. والمنظمات الدولية -إذ تَحْمي اللغات، وتسجِّلها، وتخشَى أن تندثر- إنما تسارع في حماية تراث علمي وثقافي، لا جَرَم أنْ ستخسر الإنسانية كثيرا بموته، وتفقد كل ما اشتملت عليه اللغات، إذا هي اندثرت. فكل كلمة من كلماتها، وعبارة من عباراتها محمَّلة بثقافة أهلها، مُبِينة عن عقائدهم، وما بلغوا[3].

وإذا كان أدب الأديب يدل عليه: يبين عن عقله، وعلمه، وعواطفه، وثقافته،

---

(١) عند ما تموت اللغات، ٣٥.

(٢) السابق، ١٩.

(٣) مقدمة لدراسة بلاغة العرب، ١٩.

وحياته، وعلاقاته، وتفكيره، فإن أدب الأمة يدل على ذلك منها أيضا، ولذلك أَلَّف أحمد الحوفي -مثلا- كتابا، أبان فيه عن جانب من حياة الجاهليين من شعرهم، كما أَلَّف العقاد كتابا، سماه « ابن الرومي: حياته من شعره». وإذا كان المرء مخبوءا تحت لسانه، فكل أمة مخبوءة في لغتها[1]. فأناشيد ترقيص الأطفال -مثلا- تدل على كيفية تربية نساء العرب أطفالهن، وما كنَّ يرجون لهم من معالي الأمور، وكيف كنَّ يُعَلِّقْن قلوبهم بها منذ الصغر، وهنَّ يرقِّصنهم. وقول ذي الإصبع العدواني:

يا عمرُو، إلا تَدعْ شتمي ومَنْقَصتي، أضربْكَ حتى تقولَ الهامةُ اسقوني

يدل على عقائد الجاهليين في الثأر، وما يزعمون من أن بومة تخرج من رأس القتيل، فتقف على قبره، وتنادي كلَّ من رأت، تقول له: اسقوني اسقوني، أي اسقوني من دم القاتل، تحرِّض على الأخذ بثأره. و«الكَسْع»، يدل على طريقة، كانوا يتبعونها في رفع اللبن من ضرع الناقة، بأن يُنْضَح الضرع بالماء، ثم يلوِّث الرجل يده بالتراب، ثم يكسع الضرع كسعاً حتى يدفع اللبن إلى فوق، ثم يأخذ بذنبها فيجتذبها به اجتذاباً شديداً، ثم يكسعها به كسعاً شديداً[2]. وقول رؤبة:

فقُلْتُ: لَوْ عُمِّرْتُ عُمْرَ الحِسْلِ وعمْرَ نوحٍ زَمَنَ الفِطَحْلِ،
والصَّخْرُ مُبْتَلٌّ كطِينِ الوَحْلِ[3]

يدل على ما كانوا يعتقدون من وجود دهر، يُسمَّى الفِطَحْل، لم يُخلَق الناس فيه بعد، وأن الصخور كانت رطبة. وقول الشاعر:

أما والله، إن بني نُفَيلٍ لحلاَّلون بالشرَّف اليَفاعِ
أناسٌ، ليس تُكسَر خلفَ ضيفٍ أوانيهم، ولا شُعَبُ القِصَاعِ

يدل على عادة من عاداتهم، هي أنهم كانوا إذا «رحل الضيفُ أو غيره عنهم، وأحبُّوا ألا يعود، كسروا شيئا من الأواني»[4]. وقول عمارة بن الوليد المخزومي:

خُلِقَ البيضُ الحسانُ لنا وجيادُ الخيل والحِبَرُ
كابرًا كنَّا أحقَّ بها حينَ صيغَ الشمسُ والقمرُ

---

(١) سؤال الهوية الكردية، ٢٧.
(٢) لسان العرب، (ك س ع).
(٣) السابق، (ف ط ح ل).
(٤) بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، ٢/ ٣٣١.

يـدلُّ على شـهوات فتيـان سـراة قريـش فـي الجاهليـة، وكيـف يصيبونهـا. وقـول الموريتانييـن فـي بـطء السير: فـلان «يِقْـدِمْ الظَّلْ» يـدل علـى جانـب مـن ثقافتهـم، وكيـف كانـوا يقيسـون الزمـن، ومـا كانـوا يعرفـون بـه دخـول الظهـر والعصـر، فقـد كانـوا يقيسـون الظـل بالقدميـن، فيُلْصِـق القائـسُ بعقـب قدمـه أطـراف أصابـع القـدم الأخـرى، ثـم يتمـادى فـي المشـي علـى هـذا الوجـه حتـى يأتـي علـى آخـر الظـل، فحتـمٌ أن يكـون سـيره غايـةً فـي البـطء؛ لأن قدميـه لا يكـون بينهمـا مـا يكـون بيـن قدمـي الماشـي مـن تباعـد. ويـدل قولهـم لمـن يُكَنُّـون عـن جنونـه: «أنـت مجنـون؟ ولَّ متخـطٍّ نُتافـة؟»، علـى أنهـم يعتقـدون أن النُّتافـة -وهـي الشـعر الـذي ينسـل مـن الجلـد بعـد نقْعـه فـي الرمـاد أيامـا، قبـل أن يدبـغ- مسـكونة، وأن مَـنْ تخطَّاهـا مُـسَّ. وكذلـك قولهـم: «سـمِّ وْدِيرْ فَيْـدَكْ حديـدة»، أي: قـلْ بسـم اللـه، واجعـلْ فـي يـدك سـكينا، فقـد كانـوا يعتقـدون أن الجـن تخافهـا، فـلا تقـرب حاملهـا، ولذلـك تمكـث المـرأة إذا ولـدت أربعيـن يومـا وهـي تحمـل فـي يدهـا سـكينا، أنَّـى يَمَّمـت، لا تفارقهـا، فـإن قعـدت وضعتهـا بجانبهـا، وتجعـل أخـرى تحـت رأس وليدهـا، حتـى تأتـي عليـه أربعـون ليلـة، لاعتقادهـم أن الجـن فـي هـذه المـدة تتربـص بالصبـي وأمـه.

وقـول المذيـع ومضيـف الطائـرة العربيـان اليـوم: «سـيداتي سـادتي»، ليـس عبـارة، يُنبِّهـان بهـا علـى مـا يُلْقِيـان إلـى السـامعين، فحسـب، وإنمـا هـو -أيضـا- دليـل علـى جانـب مـن ثقافـة العـرب النفسـية، فـي هـذا العصـر، ومـا يَسِـمُها مـن ولَـع بالاسـتهلاك، وحـب الممثالـة، ورضًـا بالاتبـاع، وقنـوعٍ بالتقليـد مـن الإبـداع؛ إذ هـو ترجمـة حرفيـة للعبارتيـن: الإنجليزيـة ladies and jentelmen، والفرنسـية: Mesdames et messieurs اللتيـن تقـالان فـي هذيـن المقاميـن ونحوهمـا. كمـا يـدل علـى ثقافـة الإنجليـز والفرنسـيين التـي تسـاوي المـرأة بالرجـل، وقـد تُقدِّمهـا عليـه مجامَلـةً، وتقسِّـم الحيـاة بينهمـا، كمـا يبـدو مـن عدولهـم عـن لفـظ يشـملهما مخافـةَ أن تُفهَـم منـه الرغبـة عـن إشـراكها معـه فـي الخطـاب كمـا تُشـرَك فـي شـؤون الحيـاة، ومـا قـد يعنـي ذلـك مـن هضمهـا، أو الاسـتهانة بهـا، أو تجاهلهـا، أو أن الرجـل هـو المـراد بالخطـاب دونهـا، أو أنهـا تابعـة لـه، وليـس لهـا أن تُذْكَـر معـه احتقـارا لهـا. فهـو -إذن- مُبيـن عـن جانـب مـن ثقافـة العـرب الحديثـة، كمـا أن العبارتيـن اللتيـن هـو ترجمـة لهمـا مبينتـان عـن جانـب مـن ثقافـة الإنجليـز والفرنسـيين، وليسـتا عبارتيـن، يُبَلَّـغ بهمـا

المراد بمعزل عن ثقافة أهلهما، شأن الرموز والأرقام. وكذلك سائر الأساليب العربية الحديثة، دالة على ثقافة العرب الحديثة، مبينة عن تفكير أهلها، كما كانت العربية القديمة دالة على ثقافة العرب الأوائل، مبينة عن تفكيرهم. فهي -اليوم- لغة مرسومة على محياها هزيمة العرب النفسية، وتقسُّم هواهم بين متناقضات الماضي والحاضر، وعبوديتهم المختارة للغرب وثقافته، وكَسْلهم العقلي، وعجزهم عن الإنتاج، والهوان على النفس، واصطناع ثقافة الغير على علاتها، ومتابعته على غير بصيرة. وهي أمور، تظهر -أيضا- في كثرة الدخيل من الكلم، والأساليب المحذوة على أساليب الفرنسية والإنجليزية، واستهلاك مجازاتهما، وعباراتهما الجارية مجرى الأمثال، وتحريف الكلم عن معانيه، وما يسمى العربيز، والفرانكو أرب، والعرنسية، والفرنبية، وما تأتي به الجوالات ومواقعُ التواصل الاجتماعي، من رسائل، وكتبُ العلوم، والولع باللغات الأوربية خاصة، وابتغاء العلم فيها دون غيرها، وخوف الدوائر من التعريب، وافتعال الحجج الواهية لتعطيله. ويطَّرد هذا وحالُ كل امرئ وجماعة، ونظرتهم إلى أنفسهم وإلى الغير، فالمغرب العربي، لما كان أثر الفرنسية فيه أقوى، وتعلقه الثقافي والعاطفي بفرنسة أشد، كانت آثار الفرنسية في لغته أظهر، وتمكُّنها من قلوب أهله أشد، ولما كان الشعور القومي في العراق والشام أقوى، كان التأثر بثقافة الاستعمار الإنجليزي والفرنسي أضعف، والتعرب والتعريب أقوى، واللغة العامية والفصحى أدنى إلى الصحة والسلامة من الدخيل، إذا قيست إلى عربية أهل المغرب العربي الفصحى والعامية، ومكانتها في التعليم والحياة أعظم من مكانتها هنالك؛ لأن الاستعمار الثقافي لم يمسس روح الثقافة العربية في المشرق كما مسَّه في المغرب. ويقع هذا التباين في المجتمع المصري، فالمؤسسات التي هي أشد اعتدادا بتاريخها العلمي، وهويتها، كالأزهر، ودار العلوم، أشد من غيرها تمسكا بالعربية، وعربيتها أصح وأنقى، والمؤسسات التي لا تعرف إلا الإنجليزية، وترى التعليم بها شرطَ التقدم، تغلب عليها الإنجليزية، ويكثر في كلامها الدخيل من الأساليب والمفردات، لغير حاجة؛ لأن الذين يستعملون ذلك يباهون به، ويعدونه دليل علْم، وحداثة، وتميُّز، وفيهم من يعتزُّ بأنه يجهل العربية اعتزازَه بأنه يعرف ما يعرف من الإنجليزية

أو الفرنسية، يكني بذلك عن حداثته ورقيه. والمؤسسات والأشخاص الذين هم بين هؤلاء وأولئك تختلط في كلامهم العربية والإنجليزية، وهم في سكرة ثقافية؛ لِمَا يتشاكس في عقولهم من مذاهب وأفكار.

(٢)

وبين اللغة والثقافة صلات من نوع آخر وثيقةٌ، يعرفها الذين يعرفون لغتين، ويجمعون بين ثقافتين، أكثر من غيرهم، فإنهم يعبرون عن بعض الأمور تعبيرا جيدا في إحدى اللغتين، ويعجزون عنه في اللغة الأخرى، إذ لا يكون له مرادف فيها[١]. وقد يكون من غير الكثير أن تَجِد ألفاظُ لغة ما يرادفها في لغة أخرى مرادفة تامة، وليس للترجمة -مهما يبلغ المترجم من إتقانها- أن تنقلها على أصلها، إذ التصورات التي تمثلها لغة لا تتحد هي وتصوراتٌ، تمثلها ألفاظ لغة أخرى اتحادا ذاتيا معنى ومبنى[٢]، كما قال مالك حداد: ما بين فكرتنا العربية، وألفاظنا الفرنسية إلا توافق تقريبي[٣]. وكل لغة مكيفة مع متكلميها وثقافتهم، فهي تقول كل شيء فيهم، وكل شيء يصدر عنهم[٤]، ولكنها عيية حَصِرة، إذا عرضت للغير وثقافته، كما قال سابير: العوالم التي يعيش فيها الناس متمايزة، وليس في العوالم عالم، تصفه علامات أجنبية عنه[٥]. ولكل لغة من الأساليب التي تحاكَى بها المعاني كما هي في نفوس أهلها ما ليس لغيرها من اللغات، ولا تقوم لغة مقام أخرى في بلوغ ما في النفس، بالغا ما بلغ علم المرء بها. وكل لغة تنفرد بنظام في رصْف الألفاظ وتأليفها، يتعذر معه نقل المعنى من معانيها إلى لغة أخرى إلا بأساليب مختلفة، تغير الفكرة نوع تغيير، يكبر أو يصغر على قدر تقارب اللغات أو تباعدها[٦]. فاللغات أنساق من الرموز المنطوقة، وكل نسق منها يختلف عن غيره في اقتران وحداته، واشتقاقها، واشتقاق اقتران بعضها

---

(١) عولمة الثقافة، ١٣.
(٢) القديم والجديد، ٦٣.
(٣) السجال اللغوي وتطور التعريب في الجزائر بعد الاستقلال.
(٤) الإعلام وانهيار السلطات اللغوية، ٨١.
(٥) نعم ولا، ٣٩.
(٦) النقد العربي الحديث ومدارس النقد الغربية، ٦١.

من بعض، وهذا الاختلاف النحوي والصرفي لا بد أن يؤدي إلى اختلاف في التبليغ، فيكون المعنى الذي يحصله هذا يهمله ذلك، وما يؤلف بينه هذا يفصله ذلك، وما يلمح إليه هذا يفصح عنه ذلك، بل ما يدركه هذا إدراكا صرفيا يدركه الآخر إدراكا نحويا، والعكس صحيح[1]. فأساليب التوكيد في العربية -مثلا-، وطرق القصر، والوصل والفصل، إلخ، وما يؤدي كل واحد منها من المعاني، يَثقَفُها العربي في العقد الأول من عمره، فإن رام أن يبين عما تبين عنه بلغة أخرى، لم يستطع؛ لأن أنظمة اللغات لا تتوافق، ولا يقوم بعضها مقام بعض، وما تعوَّد الناس أن يبينوا عنه من المعاني إنما يبين عنه ما تعوَّدوا أن يخرجوه فيه من المباني[2]. هذا إلى أنَّ ما يُبين عنه المأثور من العبارات الجارية مجرى الأمثال، كقرَّت عينه، وثَلِجَ صدره، واحترق قلبه، وله عندي يد، ولله دره، وقولِ أهلِ الحجاز في عاميتهم المعاصرة: يا حْلَيْلُه، ويا سلام، وقول المصريين: بَقَا، وأُمَّال، وقول بعض أهل المغرب العربي: گاع، إلخ -لا تبين عنه لغة أخرى، ولا يترجَم، إلا أن يوضع في وعاء من ثقافة اللغة التي يترجم إليها، ولو كان ما يُفهَم من ظاهره ضدَّ ما يراد منه، كأن تُترجم «أَثْلَجَ صدري» بـ: It warms my heart، بالإنجليزية، و: ça m'a rèchauffè le Coeur، بالفرنسية، مع أن العبارتين تعنيان: أدفأ قلبي، والدفء والثَّلَج ضدان، بيد أن الدفء هو ما يريح الإنجليز والفرنسيين لبرد بلادهم، والبرد هو الذي يريح العرب لحرارة بلادهم، أما الحرارة، فلا تريح، وإنما تعذِّب وتُقلق. وقول الإنجليز: It rains cats and dogs، لا يُفْهَم في العربية إلا أن يترجم بـ: «مَطَرٌ كأفواه القِرَب»، فالمطر الذي كأنه -من غزارته- ماء ينسكب من أفواه القرب هو أشد ما يعرِف العرب من المطر دفْقا وانسكابا، وهذا ما يريد الإنجليز من هذه العبارة، مع أن المراد منها في الأصل قد يكون تشبيه قطْر المطر في عظمه بالقطط والكلاب. غير أن العبارتين -على توافقهما في المراد، وهو غزارة المطر- تنتميان إلى ثقافتين مختلفتين، كما تنتمي العبارتان السابقتان إلى بيئتين جغرافيتين مختلفتين. على أن هذه العبارات وما شاكلها من العبارات التي يمكن أن يترجم بها غيرها من

---

(١) سؤال المنهج، ١٠٧.
(٢) موت اللغة، ٩٥.

اللغات الأخرى عزيزة الوجود، وأعزُّ منها من يعرفونها ويعرفون نظائرها من اللغات التي يترجمون منها أو إليها.

وثم صنف من العبارات يمكن أن يترجم إلى اللغات كلها ترجمة حرفية، فتُبِين عن معناه اللغوي، دون معناه العرفي، وهو المراد، كقول العرب: «فلانة تَعْقِر النُّوقَ»، يريدون أنها لجمالها تجعل راكبي النوق يطيلون الوقوف والنظر إليها، وهم على ظهورها حتى يعتقر مكانُ ركوبهم[1]. فقد خصص الاستعمال العبارة بهذا المعنى، مع أنها تحتمل غيره، كأنها تعقر النوق من كثرة ما تركبها، أو أنها تعقرها للضيف، أو تعقرها لضخمها. وكقول الموريتانيين: «فلان ما يَشمّ التراب»، و«شَا مُطَفْية النيران»، و«ينغرف من وجهه الدهن»: يكنُّون بالعبارة الأولى عن أن المرء ما يصلي، والعلاقة بين الصلاة وشم التراب واضحة، وبالثانية عن أن الشاة شديدة السمن، كثيرة الشحم، فإذا شُوِيت أطفأ ما يذوب من شحمها النارَ التي تُشْوَى عليها، ومعنى العبارة الثالثة أن وجهه يمكن أن يُغْرَف منه الدهن، كناية عن نضارته وبهائه، ولا يخفى ما بين الدهن والنضارة. هذا إلى صنف من المأثورات، لا يكاد يقوم مقامه في الإبانة عما في النفس شيء من كلام الأمم الأخرى، كالعبارات والنصوص التي تلمِّح إلى تاريخ، وشعائر، ووقائع بعينها، أو جانب من الثقافة الخاصة، يتوقف على العلم به معرفة معانيها، ولا يعلمها إلا أهلها، إلا أن تُشرَح لغيرهم شرحا، يستعان به على تقريب المراد، وإن كان لا يمكن نقْل بعض ما تدل عليه نقلا دقيقا، بحيث يُفْهَم كما يريده أهله؛ لأنه لا نظير له في غير لغتهم[2]، كقول العرب: «الصيفَ ضيَّعتِ اللبن»، و«خذْ من جِذْعٍ ما أعطاك»، و«رجَع بخفَّي حنين»، و«إذا ما القارظ العنزي آب»، و«ما يومُ حليمة بسرٍّ»، و«ما يُقَعْقَعُ لي بالشِّنان»، و«دون ذا ويَنْفُق الحمار»، و«تسألني برامتينِ سَلْجَما»، و«على أطراف الثمام»، وقولهم للثقيل، إذا أقبل من بعيد يريد المجلس: «يا حَدادِ حُدِّيه»، أي: اصرفيه عنا[3]، وقولهم: «عيلَ ما عالَه»، أي ما أظرفه، و«ركب على لومي هَجَاجِ»[4]، وقول

(١) جدلية الحرف العربي، ٧٤.

(٢) علم اللغة الاجتماعي، ١٣٦ وما بعدها.

(٣) كتاب النوادر لأبي مسحل الأعرابي، ١٠٤.

(٤) السابق، ١٥٢.

سعد بن عبادة وسعد بن معاذ للنبي -صلى الله عليه وسلم- يوم الأحزاب، وقد بعثهما ينظران له صحة ما بلغه من نقض كعب بن أسد القرظي عهده -: «عَضَلٌ والقارة»[١]، وقول علقمة الفحل:

رَغا فوقهمْ سَقْبُ السماءِ، فداحِصٌ بشِكَّته، لم يُستلَب وسَليبُ

وقول النابغة الذبياني:

فبتُّ كأني ساورتْني ضئيلةٌ من الرُّقش، في أنيابها السمُّ ناقعُ
يُسَهَّد من نوم العشاء سَليمها لِحَلْي النساء في يديه قعاقعُ

وقوله:

لهنَّ عليهم عادةٌ، قد عرفْنَها إذا عُرِّض الخَطِّيُّ فوقَ الكَواثبِ

وقول عوف بن الأحوص:

ومستنبحٍ، يخشى القَواءَ ودونه من الليل بابا ظلمةٍ وستورُها

هذا إلى مفردات وعبارات، يُجْهَل أصلها، لقِدَمها، أو قلة استعمالها، فلا يُعلَم منها إلا مجمل معناها، والمقام الذي تقال فيه، كقول العرب: «بعينٍ ما أرينَّك»، و«إمَّا لا، فافعل»، وقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: «أرِبَ، مالَه؟»[٢]، وقول عمر: «أرِبْتَ عن ذي يديك»[٣]، وقولهم في الطلاق: «استفلحي لأمرك»[٤]، و«خذْ عنْكَ»[٥]، و«دُهْ دُرَّينِ، سعدُ القَيْن»[٦]، و«سِرْ عنك»، و«سُقِطَ في يده»، و«صَرَّ عليه رجلَ الغراب»، و«اذهبي، فلا أندَهُ سَرْبَك»[٧]. من أجل ذلك كانت معرفة اللغة وحدها لا تكفي المترجِم، بل يجب أن تزاد إليها معرفةُ بيئتها، والعلم بثقافتها؛ لأن المترجَم ثقافة، وإنما يَخْرُج المجتمعُ اللغويُّ من المجتمع الثقافي[٨].

ومن هذا الألفاظ التي تَصنع لها المأثورات الدينية والأدبية والشعبيةُ معانيَ،

(١) عضل والقارة هم الذين غدروا بأصحاب الرجيع (انظر: سيرة ابن هشام، ٣/ ١٦٩ وما بعدها).
(٢) المعجم في الأساليب الإسلامية والعربية، ٥١.
(٣) السابق، ٦٤.
(٤) السابق، ٦٩.
(٥) السابق، ٢٤٥.
(٦) السابق، ٢٦٢.
(٧) السابق، ٥٠.
(٨) انظر: علم اللغة والترجمة، ٥١، والعربية الفصحى الحديثة، ٢٨١.

لا تدلُّ عليها بنفسها، حقيقة ولا مجازا، كالمعاني التي يصنع الأدب للأمكنة وحيوانها في النفوس، وما يحمِّلها من معان، ربما لا تكون فيها أو في بعضها حقيقة، كما صنع الشعر العربي للعقيق، والحِمَى، وإِضم، وزرود، واللِّوى، والبَان، والعَلَم، والعُذَيب، وبارق، وحاجِر، وسَلْع، وكاظمة، وذي سلَم، ونجْد، وبرَدَى، ووحش وجرة، وجآذر جاسم، إلخ، ثم تغدو دلالتها على تلك المعاني وما توحي، دلالة خاصة بها، لا يقوم مقامَها غيرُها من ألفاظ اللغة، ولا تبين عنها لغة أخرى، ولا يَفْهمها، ويَستشعر ما توحي ويتأثر به إلا أهلُها؛ لأنها من ثقافة، لا يعرفها غيرهم، وإن كان يمكن أن يتصوَّرها، كما لا يَسْتَشْعِر دلالةَ «البان»، و«الحمى»، و«جآذر جاسم» وإيحاءها في قول ابن سينا:

تبكي إذا ذكرتْ عهوداً بالحِمَى ... بمدامعٍ تَهْمي ولمَّا تُقْلِعِ
وتظلُّ ساجِعةً على الدِّمَنِ التي ... دَرَستْ بتكرارِ الرياحِ الأرْبَعِ

وبهاءِ الدين زهير:

يُحدِّثُني زيدٌ عن البان والحِمَى ... أحاديثَ يحلو ذكرها ويطيبُ
فقلت لزيد: إنها لَبَشارةٌ، ... وإني لَنَشْوانٌ بها، وطُروبُ

وعديِّ بن الرِّقاع:

وكأنها بين النساء أعارها ... عينيه أحورُ من جآذر جاسمِ
وسنانُ، أقصده النعاس، فرنَّقت ... في عينه سِنَةٌ، وليس بنائمِ

إلاَّ عارفٌ بالشعر العربي القديم، عالمٌ بدلالة «البان»، و«الحمى»، و«جآذر جاسم» فيه، وما صنعت لها كثرة الورود فيه مقترنة بذكر الأحباب والشوق إليهم، من معان وظلال. ولم يفطن إلى ذلك القاضي الجرجاني -رحمه الله-، إذ قال إن ذكر «وحش وجرة» في البيت المنسوب إلى امرئ القيس:

تَصدُّ وتُبدي عن أَسيلٍ، وتَتَّقي ... بناظرةٍ من وَحْشِ وَجْرَةَ مُطْفِلِ

و«جآذر جاسم» في بيت عدي بن الرقاع، من حشو الكلام الذي لا فائدة في ذكره، ولو حُذِف لاستُغني عنه، وإن الشاعرين إنما ذكرا وجرة وجاسما «استعانة بهما في إتمام النظم، وإقامة الوزن»[(١)]. أما ما زعم النقاد من أن شعراء العرب إنما خصُّوا عيون وحش وجرة وجآذر جاسم بالتشبيه دون وحش سائر الجزيرة

(١) الوساطة بين المتنبي وخصومه، ٣٢.

لأنها أجملها عيونا، فمما لا ينبغي أن يُلتفت إليه، وإنما كان «يطلب به بعضهم الإغراب على بعض. وقد رأيت ظباء جاسم، فلم أرها إلا كغيرها من الظباء، وسألت من لا أحصي من الأعراب عن وحش وجرة، فلم يروا لها فضلا على وحش ضَرِيَّة، وغزلان بُسَيْطَة[1]، وقد يختلف خَلْق الظباء وألوانها باختلاف المنشأ والمرتع، وأما العيون، فقلَّ أن تختلف لذلك»[2]. وهو كلام نفيس، ويدل على شخصية القاضي الجرجاني الفذة، المترفعة عن التقليد والمتابعة فيما لا يرى له وجها من أقوال الأولين، غير أنه خفي عليه أن ما يريد الشعراء من التشبيه بعيون وحش وجرة وجآذر جاسم هو المعنى الرمزي الذي صنع لها الشعر في شعور العرب، لا أن لعيون ظباء هذين الموضعين فضْلا على عيون غيرها من الظباء، وهذا المعنى الرمزي هو الذي علّق الشعراء بوحش وجرة وجآذر جاسم، وعيونها، وهو من المعاني التي يحدثها رد الفعل الشرطي.

وشبيه بما قال القاضي الجرجاني ما يُروى عن الشاعر العراقي أحمد الصافي النجفي، من أنه لما رأى نهر بَرَدى بدمشق بصق فيه احتقارا له، لبُعْد ما وجده مما خَيَّل إليه ما قال فيه الشعراء، وما روى «حَمَّاد عن أحمد بن داود السمني قال: ورد عليَّ كتاب المتوكل، وأنا على سواد الكوفة: أن ابْتَعْ لي تلَّ بَوَنَّى بما بلغتْ، فأتيتها، فإذا هي قرية صغيرة على تلٍّ، قد خَرِب ما حولها من الضِّيَاع، فابتعتُها بعشرة آلاف درهم، ولم أدْرِ ما حَمَلَه على ذلك حتى بلغني أنه غُنِّيَ بشعر مالك بن أسماء؛ فحرَّكه لِمَا كَتَبَ به»[3]. وشعر مالك الذي غُني به هو:

حبَّذا ليلتي بتلِّ بَوَنَّى، إذ نُسَقَّى شرابَنا ونُغَنَّى
من شرابٍ كأنه دمُ جوفٍ، يترك الشيخَ والفَتى مُرْجَحِنَّا
ومررنا بنسوة عَطِراتٍ، وسَماعٍ، وقرقف؛ فنزلنا
وحديث، ألَذُّه، هو مما تشتهيه النفوس، يوزَن وزْنا
منطقٌ صائب، وتلحن أحيا نًا، وخير الحديث ما كان لحنا

وهي قصة رمزية، إن كان المراد بحماد راوي الخبر حمادا الراوية، فقد مات حماد عام ١٥٥ هـ، وولد المتوكل عام ٢٠٥ هـ، وإنما أراد صانعها ما يصنع

(١) ضرية: موضع بنجد، وبسيطة: موضع ببادية الشام.
(٢) الوساطة بين المتنبي وخصومه، ٣٢.
(٣) سمط اللآلي في شرح أمالي القالي، ١/ ١٥.

الأدب للأمكنة من معان رمزية، مأتاها من كثرة ورودها فيه مقترنة بمحبوب أو مشتَهًى، كمجلس مالك بن أسماء بن خارجة، وما كان فيه من سماع، وشراب، وحديث، تلذه النفوس.

اللغة هوية

قد علمنا أن الهوية هي ما تختص به جماعة من الناس من صفات معنوية، سميناها الثقافة، وأن اللغة ثقافة؛ لأنها نبتت في قلوب الشعوب، وأزهرت في حسها، وسلكت معها في فجاج الحياة، وأشرفت أيفاعها، وهبطت غيوبها، فكانت سجلَّ علومها وعقائدها وتجاربها وذكرياتها، وأفراحها وأتراحها، وانتصاراتها، وهزائمها، وكانت مفرداتها رموزا، تشع بما تنطوي عليه أفئدتها من مشاعر، وأخيلتها من صور، وذواكرها من معارف، وعقولها من معان وفِكَر، وتنضح بتاريخها الطويل، وحياتها المديدة، ولكل أسلوب منها مكان من القلب، لا يبلغه أسلوب من لغة أخرى. ولذلك قيل إن قلب الشعب ينبض في لغته، وروحه يستكنُّ في لغة آبائه[1]، وكانت اللغة هي الدليل على قلبه وروحه، والمستودعَ الذي يوعي من تراثه ما لا يوعي غيرُه من الفنون، كالعمارة، والنحت، والرسم، فإن هذه يفتقر كلُّها إلى اللغة في حَلِّ رموزه، وتفصيل مجمله، وليس فيها ما يقوم مقام اللغة، أو يدانيها في البيان، فهي متحف الحضارة الصوتي الذي يحفظ من الماضي ما تحفظ الآثار التاريخية المادية، بل أكثر مما تحفظ، ورباط نفسي بين الأولين والآخرين[2]؛ لما تنشئ في المرء من شعور بوحدة الرابطة العقلية والنفسية والعاطفية التي تشد الناس بعضهم إلى بعض، وتختزن جانبا من اللاوعي الجمعي الذي يختزن التجربة المشتركة[3]، وتنسج خيوطا روحية، هي لحمة التعاطف، والمحبة، والحنان، والعصبية بين الجماعة[4]. وألفاظ كل لغة إنما قُدَّت على ما في قلوب أهلها من المعاني قدًّا، على وجه يجعل ما فيها لا يبين عنه غيرها من اللغات، وإن

(١) اللغة بين القومية والعالمية، ١٠٤ وما بعدها، واللغة العربية وتحديات العصر، ٤٧.

(٢) فن القول، ١٦٤.

(٣) اللغة والهوية، العشيري، ٤٢ وما بعدها.

(٤) السابق، ٤٨.

قاربه، كما أن أعضاء البشر، وإن تشابه ظاهرها، وما تؤدي من أعمال، ليس فيها ما يعمل عملا طبيعيا في غير البدن الذي هو منه، كما أن بعض الأعضاء الصناعية قد يظهر أنه يطابق الأعضاء الطبيعية، ويؤدي ما تؤدي، لكن يبقى بينها وبين الأعضاء الطبيعية بون كبير، لا يدركه إلا من عرف هذه وتلك. فالأسنان الصناعية، وإن حسُن رصْفها، ووافقت صورتها صورة الأسنان الطبيعية لا تؤدي ما تؤدي، ولا يجد مصطنِعها من الراحة ما كان يجد من أسنانه، من تمكُّن في موضعها، وتلاؤم فيما بينها، وفيما بينها وبين ما جاورها من الأعضاء. وأجزاء السيارات المقلَّدة لا تساوي الأجزاء الأصيلة التي صنعها مَنْ صنع السيارة، في طول بقائها، وملاءمتها لموضعها، ولِمَا جاورها من أجزاء، وأداءِ ما تؤدي من أعمال، وإنما تؤدي المراد أداء تقريبيا، إلى حين. كذلك اللغات المكتسبة: تقرِّب ما في النفوس، ولا تبلغه، ولا تطابقه كما تطابقه اللغاتُ الأم، كما أن الذي يخاطب من يوافقه في اللسان يجد من راحة النفس، إذ يتحدث إليه، ما لا يجد إذ يتحدث إلى غيره؛ لأنه يَشعر بأن الأول يثقف عنه ما أراد، من صريح المعاني، وخفيها، وقريبها وبعيدها، والمصرَّح به والمعرَّض، ويشعر بعكس ذلك حين يتحدث إلى من يخالفه في اللسان، فإنه يشعر أبدا بأنه ما فهم مراده، وأن عدم فهمه إياه يحول بينه وبين الذهاب في القول كل مذهب، بما يدخل السرور على قلوب السامعين الذين يعرفون اللسان، ويبين عن المراد بأبلغ الأساليب وأشدها تأثيرا، وأنه مكره -مادام يحدِّثه- على أن يتكلم كلام العامة، ويسير بسير الضعيف، وأنَّ حسْبَه أن يُبْلِغَه مجمل ما أراد، ولو بلغة مهلهلة. وإن تكلم بغير لغته، شعر بأن في النفس ما لا يستطيع الإفصاح عنه، وإن أفصح عنه فعلى وجه، غير الذي يريد، ودون الذي يريد؛ لأن معرفته بها معرفة آلية، وليس للمفردة منها معنى عنده إلا ما تورد المعجمات، ولا للأساليب إلا ما تذكر كتب النحو والبلاغة، وهي مفردات وأساليب جَمود، مجردة من الإيحاء، عارية من الأسرار والرموز، وبينها وبين القلب حجاب. وهذا سبب أن الإنجليزية -على سعة انتشارها في الهند، وعلى أنها هي اللغة الرسمية الثانية، واللغة الرسمية الأولى في بعض الولايات، ولغة القانون، والإدارة، والتعليم، والجيش، ووسائل

الإعلام، والتجارة، والأعمال، والسياحة[1] -لم تبلغ أن تكون لغة رمزية للهنود، ولا لغيرهم من الشعوب التي اصطنعتها، ولم تصلح للحلول محل واحدة من لغات الهنود الوطنية الخمس عشرة، ولا محل غيرها من اللغات؛ إذ معرفة اللغة وحدها، واصطناعها لبعض المقامات لا يجعلانها رمزية، ولا تكون اللغة هوية أو تكونَ رمزية[2]، ولا تكون رمزية إلا لمن ينتمي إليها تاريخا وثقافة، أما غيره، فإنما يستعملها استعمالا نفعيا منقطعا عن القلب والشعور، للدلالة على الحقائق المجردة، والأشياء الخارجية، كما تستعمل الأرقام والرموز في بعض العلوم.

فاللغة إذن هوية، ولما كانت هوية، كانت الشعوب رهنا بها وجودا وعدما: تبقى ما بقيت، وإن ضعُفت، وقلَّ استعمالها ومستعملوها، فإن ذهبت، ذهبت بذهابها الشعوب وانقرضت، وإن لم تنقرض من حيث هي سلالات، وإنما دخلت في غيرها، فاصطبغت بثقافته، وتكلمت بلغته، كما انقرض النبط، والفينيقيون، والسريان، ومن بقي من العرب بإسبانية، وصقلية، بانقراض لغاتهم، وإن لم تنقرض أعيانهم، وإنما دخلوا في العرب، والفرس، والترك، والإسبان، والصقليين، وانحلُّوا فيهم، وتكلموا بلغاتهم؛ إذ مردُّ تباين الشعوب إلى الثقافات، أما الألوان، وصور الأجسام، فآثار من آثار البيئة، وهي صفات قابلة لأن يتصف بها كل من بدَّل بيئته[3]، وليس فيها ما يوحِّد الشعوب، أو يؤلف بينها، ولا ما يصنع لها ما تلتقي عليه. وإن كان بعض الناس يرى أن الأمم إنما تجمعها الأنساب، وأن أفرادها أبناء عمومة، غير أن البحوث العلمية المستمدة من حقائق التاريخ، ومستكشفات علم الإنسان تثبت أنْ ليس في الأرض أمة أصلها واحد، وإنما ذلك وهْم، صنعته وحدة اللغة والتاريخ[4]. فلم يبق من السريان -مثلا- إلا القلة القليلة التي تتكلم بالسريانية في العراق، وتركية، وبعض مدن الشام وقراه، كمعلولا، وجبعدين، وبخعة، والحسكة، فبقاؤهم

(١) ما الذي جعل اللغة الإنجليزية هي اللغة العالمية من دون غيرها من اللغات؟.

(٢) انظر: أزمة اللغة والترجمة، ١١٨، والسياسة اللغوية لدى الأمم الحية، ١١٣، وكلمات العالم، ١٥٥، وصدام الحضارات، ١٣٦.

(٣) اللغة بين القومية والعالمية، ١٩.

(٤) محاضرات في نشوء الفكرة القومية، ١٥، واللغة والهوية، العشيري، ٤٨.

على قدر ما بقي من لغتهم، أما سائرهم، فانقرض. ولم يبق من الفينيقيين أحد، وإن كان المتوقع أنهم -كالسريان- وافرو العدد، من حيث هم سلالة، انداحت في الأرض، واصطبغت بثقافاتِ مَن خالطت من الشعوب. ودخل الباقون من العرب البائدة في العرب الباقية، ونَسوا لغتهم، وتعلموا لغة العرب الباقية؛ فغدوا في عدادهم. وإنما الفرق بين انقراض البائدين وانقراض الباقين أن انقراض البائدين انقراض أعيان، وانقراض الباقين انقراض لغات وثقافات، بيد أن الانقراضين واحد، ما دامت الشعوب منوطة بهوياتها، وقد بادت هويات الباقين، على بقاء أعيانهم، كما بادت هويات الغابرين ببيود أعيانهم، ولم يبق بين الباقي والبائد من علاقة إلا ما يقول المؤرخون والنسابون من أقاويل، قلَّ من يثق بها، لعدم وجود ما يكفي من الأدلة على صحتها؛ ولأن النسب «أمر وهمي، لا حقيقة له»[١]، ولا يصنع وحده هوية. وكذلك من دخل في العرب من الفرس، والروم، والأحباش، منذ الجاهلية، فقد تعرَّبوا، وبادت فارسيتهم وروميتهم وحبشيتهم، ولم يبق منهم إلا العروبة وحدها. وكذلك من دخل في العجم من العرب منذ الجاهلية إلى اليوم، فاستعجموا، وهم كُثْر، كما قال ابن دريد -مثلا- إن النَّبُوء حي عظيم، رحل كثير منهم، فنزل بتَوَّج من بلاد فارس[٢]، وقال عمر رضا كحالة إن خلقا عظيما من كلب بن وبرة نزلوا على خليج القسطنطينية[٣]، فتترَّكوا. ومعلوم مَنْ سكن فارس وخراسان، والهند والسند، وأفغانستان، وبلاد ما رواء النهر، وإفريقية، وبلاد الملايو، من العرب.

ولعل إمبراطور اليابان إنما أبى أن يتنازل عن اليابانية، كما أراد الأمريكيون أن يفعل، بعد انتصارهم عليه في الحرب الثانية؛ لأن الإنجليزية إذا حلَّت محلها صار اليابانيون أمريكيين، وتحللت هويتهم بذهاب لغتهم، طال الزمن أو قصر. وهو -أيضا- من أسباب حمْل الاستعمار الشعوبَ على تعلم لغته وترك لغاتها؛ ليمحو ثقافاتها، ويطمس هويتها، ويستنبت مكانهما ثقافته وهويته؛ فتنحلَّ فيه، بعد أن تزول دواعي الحرص على التميز منه، كما منع الحزب الشيوعي الصيني

---

(١) مقدمة ابن خلدون، ١/ ٢٠٨.

(٢) الاشتقاق، ٣٢٥.

(٣) معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، ٣/ ٩٩١.

أهل تركستان الشرقية استعمال لغتهم الإيغورية، وأجبرهم على الصينية[1]، وكما فعلت فرنسة، وبريطانية، وأمريكة[2]، وروسية، بل دول أوربة كلها، بالشعوب التي استلحقت، والشعوب التي احتلت بلادها، حتى قال بعضهم إنه لم تتوحد أمة من أمم أوربة إلا بالقوة والقهر والإرهاب لكل مَن تمادى في التكلم بغير اللغة التي تُلْزمه إياها الحكومة، وأبى أن يتخلى عن لغته[3]، وقال جلبير غرانغيوم إن «اللغة الفرنسية المفروضة في السابق تحمل بكل تأكيد علامة الاضطهاد والجور الاستعماريين»[4]، وكذلك كان يفعل الروس بالشعوب التي يحتلون بلادها[5]. ولسوف نرى ما فعلت بريطانية وفرنسة بأهل الأقاليم الذين كانت لهم لغات غير الإنجليزية والفرنسية. ولم تسلم اليابان من ذلك، فإنها لما احتلت تايوان، وكورية، ومنشورية، وأجزاء كبيرة من منغولية، في القرن التاسع عشر -أجبرت أهلها على ترك لغاتهم إلى لغتها، ولما انتزَعَت من الأوربيين في إبان الحرب الثانية بعض مستعمراتهم في جنوبي شرقي آسية، كإندونيسية، اجتهدت في حملها على لغتها وثقافتها، وكانت كثيرا ما تقمع التراث واللغة الوطنيين قمعا عنيفا[6]. وهو -أيضا- من أسباب أن تعليم اللغات الأجنبية سلَخ بعض الناس من أممهم، وجرَّدهم من انتمائهم، وجعل بعضهم يبيع وطنه، وجعل الزنجية السوداء تكوي شعرها لينبسط، ثم تصبغه بلون أشقر، وتصبغ شفتيها بلون أحمر؛ لتماثل شعور المستعمرين وشفاههم، وإن بقي كل شيء آخر منها يباين نظيره من المستعمرين. وجعَل الهندية الحمراء تتسمى باسم سُلتي (جنيفر Jennifer)، لا صلة ثقافيةً بينها وبينه سوى أن من يتسمَّون به أبادوا سلفها، واحتلوا أرضهم، ويسوءها أن تُدْعى باسمها الهندي؛ لأنه يدل على أصلها، وهي تود لو يُنسَى؛ فتذوب في الأمريكيين، ولا تتميز منهم. وجعلَ بعض الهنود الحمر يعدُّ هويته كابوسا، ويجاهر بأنه ودَّ لو لم يُخْلَق هنديا[7].

---

(١) اللغة والسياسة في عالم ما بعد ١١ سبتمبر، ٤٣.

(٢) انظر: الهيمنة اللغوية، ١٢ وما بعدها.

(٣) السياسة اللغوية والتخطيط: مسار ونماذج، ٧ وما بعدها.

(٤) اللغة والسلطة والمجتمع في المغرب العربي، ١٤٣.

(٥) عند ما تموت اللغات، ٨٠.

(٦) كلمات العالم، ٣٨.

(٧) انظر: أمريكة والإبادات الثقافية، ١٥ وما بعدها.

وما كان ذلك عن اختيار منهم، وإنما أُجبروا عليه إذ أُجبروا على لغة المستعمر، وأن يتناسوا لغتهم. وكان برات، مؤسس مدارس الهنود في أمريكة قد قال، يحض على هذه السياسة تجاه الهنود الحمر: «اللغة والدين هما خط الدفاع الأخير للهنود، ولا بد من القضاء عليهما»[1]. وكذلك فعلت اللغات الأجنبية ببعض العرب، ولا سيما أهل المغرب العربي، فقد صنعت منهم أناسا يعادون لغتهم وهويتهم، ويتنصلون من تاريخهم، ولا يرون في تعليمهم عيبا أو نقصا إلا عدوا العربية والإسلام سببَه، والفرنسية -دون لغات الأرض- علاجَه[2]. وهو ما أرادت فرنسة إذ علَّمتهم الفرنسية، لِمَا تُعين عليه من تغيير ثقافتهم، وأسْر عقولهم، وإخضاع أبدانهم، وتيسير الهيمنة عليهم، والعون على توجيههم، كأنْ تقاتل بهم أعداءها، ولو كانوا إخوانهم في الدين، وتحتلَّ ما تريد من البلدان[3]، فإنَّ تعلُّم الفرنسية فتحَ العقول والقلوب للأفكار والعواطف الفرنسية، وهدمَ الثقافات، وبدَّل الانتماء، كما قال الفرنسيون إن ميول السوريين وعواطفهم تتجه نحو فرنسة، مذ تعلموا الفرنسية[4].

واللغة أوثق العرا، ورمْز ما بين الناس من المشترك وحارسه الأمين[5]؛ لأنها آلة التفكير، ووسيلة التفاهم ونقل الأفكار والتراث من السلف إلى الخلف. ولهذا كانت تُحْدِث بين من يشتركون فيها توافقا في الفكر والشعور، يترتب عليه أن يكون بينهم من التقارب أكثر مما يكون بينهم وبين غيرهم[6]؛ ولهذا سَمَّاها فيخته «أسْمَنْت الشعوب». وإنما مردُّ ذلك إلى أن الذين تجمعهم لغة يشتركون في الثقافة، والثقافة هي الهوية، وأن اللغة هي التي تبين عن ذات صدور الأمة التي تتكلم بها، وخصائصها النفسية والفكرية: كيف تفكِّر، وتعقل الأشياء، وتشعر بها، وتنظر إليها، والاتفاق في ذلك من أسباب التوحد، كما قال فيخته: إن اللغة تلازم المرء في حياته، وتمتدُّ إلى أعماقه، وتبلغ أخفى

(١) أمريكة والإبادات الثقافية، ٩٣.

(٢) وزير التربية الجزائري الأسبق: فرنسا تريد استلاب عقول أطفالنا.

(٣) انظر: مولود قاسم نايت بلقاسم، ٣٢٠.

(٤) انظر: استعمار مصر، ١٦٩، والتباسات الهوية، ١٠، والهويات والتعددية اللغوية، ٣٨١، واللغة العربية ودورها في التشريع والقضاء، والغارة على العالم الإسلامي، ١٧، والاتجاهات الوطنية في الأدب العربي، ٢/ ٢٨٥.

(٥) اللغة، ٣٠٣.

(٦) محاضرات في نشوء الفكرة القومية، ١٥.

رغباته وخطراته، وتجعل من الأمة الناطقة بها كلاً متراصا خاضعا لقوانين، وهي الرابطة الوحيدة الحقيقية بين الأجسام والأذهان[1]. وإنما تربط بين الأجسام والأذهان؛ لأنها ترجمان ما في الصدور والعقول من أفكار، وأديان، وثقافات، هي التي يلتقي عليها الملتقون، وفيها يختلف المختلفون، وهي التي تصنع بتلك الترجمة المشتركَ من العقائد والأفكار والثقافات، وتغرسها في العقول والقلوب منذ أن يعقل المرء اللغة ويتعلمها، من حيث يدري ولا يدري، فإذا باطنه كباطن من يوافقه فيها، وإن تباينت الأجسام والألوان: يشتركون في استحسان ما يستحسنون، واستقباح ما يستقبحون، وحب ما يحبون، وكره ما يكرهون، إلخ. ولهذا قال أوغستان برنار: «إن الوحدة اللغوية تقود شيئا فشيئا إلى وحدة الإرادات»[2]. وهذا ما ترمز إليه أسطورة برج بابل الشهيرة، التي تقول إن الأرض كلها كانت لسانا واحدا، وحَدث في ارتحال بني آدم شرقا أن وجدوا بقعة في أرض شِنْعَارَ، فسكنوها، وقال بعضهم لبعضٍ: هَلُمَّ نَصنع لِبْناً ونشويه، ونبني لأنفسنا مدينة وبرجا، رأسُه في السماء، ونصنع لأنفسنا اسماً؛ لِئَلاَّ نَتَبَدَّدَ على وجه الأرض. فَنَزَلَ الرب لينظر المدينة والبرج اللذين كان بنو آدم يبنونهما، فقال: ها هُوذَا الشعب واحدا، ولسانه لسان واحد، وهذا ابتداؤهم بِالعمل، والآن لاَ يمتنع عليهم كُلُّ مَا ينوونَ أن يعملوه، هَلُمَّ ننزل ونبلبل لسانهم؛ حَتَّى لاَ يسمع بعضهم لسان بعض، فبدَّدَهم الرب من هناك على وجه الأرض، فَكَفُّوا عن بنيان المدينة[3]. فربُّ الأسطورة لما أراد تشتيت شمل بني آدم، بلبل ألسنتهم، فلم يفهم بعضهم بعضا، فكَفُّوا عن العمل الذي كان يجمعهم، وهو بناء المدينة والبرج، وكانوا -حين كان لسانهم واحدا- متحدي الأفكار والغايات، متوافقين في العمل، ولا يعجزهم شيء، وذلك ما كان يخشاه رب الأسطورة، فلما اختلفت الألسن تباينت الأفكار والغايات والعمل؛ فتقطَّع ما بينهم، ومضى كلٌّ لسبيله، وانقضى ما كان بينهم من تعاون. وما زال هذا الذي فعل «رب الأسطورة» ديدن الدول المستعمرة: تستعين على ما تريد من تمزيق

(١) في اللغة والفكر، ٨.

(٢) الفرنكفونية والسياسة اللغوية التعليمية الفرنسية بالمغرب، ٧٨.

(٣) سفر التكوين، الإصحاح الحادي عشر.

الشعوب، والمخالفة بينها بإحياء الميت من اللغات، والتبعيد بين المتقارب من اللغات، بجعل اللهجات لغات، وكتابتها بحروف غير التي كانت تُكتب بها.

ولهذا -أيضا- كانت اللغة هي الأساس الذي بُنِيَت عليه الدولة الحديثة، والتقت عليه الشعوب، وتوحدت، فعلى الفرنسية قامت فرنسة، وهي في الأصل لهجة أهل باريس، وكانت تسمى لهجة الإيل دي فرانس (جزيرة فرنسة)، وإنما اصطُنِعت لغة رسمية بإرادة من ملكها فرانسوا الأول؛ إذ كانت باريس مسكن البيت الحاكم، فصارت للهجته مكانة سياسية، مكنتها من التغلب على سائر اللهجات. وصارت القشتالية هي الإسبانية الفصحى في عهد الملك الفونسو العاشر في القرن الثالث عشر الميلادي[1]، وقامت إيطالية على التوسكانية، وكانت الألمانية، والاعتزاز بها وبمآثرها سبب قيام ألمانية النازية[2]، وكانت ألمانية في آخر القرن الثامن عشر تتألف من أكثر من ٣٦٠ دويلة، بينها خلافات كبيرة، منها الخلافات الدينية، ثم صارت أربعين دويلة في وسط القرن التاسع عشر، وظلت تتناقص إلى أن بلغت خمسا وعشرين، فاندمجت في دولة اتحادية، ثم انتهت إلى دولة موحدة توحيدا تاما عام ١٩٢٣ م[3]. نعم كان في ألمانية ما يسمى «الامبراطورية المقدسة»، لكن لم يكن لها سلطان حقيقي، وكانت كل واحدة من دويلاتها مستقلة استقلالاً تاماً، ولها حكومة، وجيش، وقانون، وكان الذي يحول دون اتحادها هو أَثَرة الملوك والأمراء، واستمساكهم بما كانوا يحظون به من منافع[4]. وظلت كذلك إلى أن هبَّ الأديب الألماني هَرْدِر في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، يقول إن اللغة هي وسيلة توحيد الشعوب، فعكف الأدباء على تراثهم القديم، ونسجوا حوله قصصاً وبطولات، خلبت ألباب الشباب، فتغنوا بجمال بلادهم، ومَجْد سلفهم، فتلاقت عواطفهم على الوحدة، فذلَّل ذلك الطريق لبسمارك، فتولى إيقاظ الشعور القومي، والحض على توحيد ألمانية[5]. ومما أعان على توحد ألمانية سعي ابني غريم الحثيث

---

(١) انظر: اللغة، ٣٣٠ وما بعدها، ومصير وحدة الجزائر، ٢٢٩.

(٢) السياسة اللغوية والتخطيط، ٧.

(٣) محاضرات في نشوء الفكرة القومية، ٣ و ١٩، والسياسة اللغوية والتخطيط اللغوي، ٥١ وما بعدها.

(٤) السابق، ١٣ و ٢٠.

(٥) هويتنا أو الهاوية، ٣٤ وما بعدها.

في جمع الألمان على لغة واحدة، ووضع معجم لهم، هو «معجم غريم»، فكانت وحدة اللغة هي التي سهلت الوحدة السياسية. فلما سقط جدار برلين بين شقي ألمانية، سكَّت الحكومة الألمانية ورقة نقدية، قيمتها ١٠٠٠ مارك، ووضعت عليها صورتيهما[١]. ولما انشقَّ الناطقون بالأفريكانية عن لغتهم الهولندية، وأرادوا أن ينشئوا وطنا عنصريا في جنوبي إفريقية، وهوية عرقية مستقلة، وكانت الإنجليزية منتشرة في جنوبي إفريقية، كان الأفريكانيون في حاجة إلى تقوية هويتهم العرقية بلغة تكون رمزا لها، وعقيدةٍ دينية مختلفة عن عقيدة هولندة -اشتقوا من الهولندية لغة، تختلف عنها، هي الأفريكانية، فكانت تتباعد عنها شيئا فشيئا حتى صارت لغة مستقلة[٢]. وفي دول الاتحاد الأوربي التي تتكلم بعدة لغات وطنية يَعرِف كل شعب هويته بلغته، ويقول المؤرخون إن ظهور أول دول أوربة كان مقترنا باللغات المشتركة، التي أصبحت فيما بعد لغات قومية. وبدأ ذلك في منتصف القرن التاسع عشر، وما تزال اللغة إلى اليوم علامة مميزة للهوية الوطنية، والأساس الذي تُبْنَى عليه العقيدة القومية، والوحدة الوطنية التي تستمد منها الدولة شرعيتها. وذابت كلٌّ من الدولة القومية، واللغة الوطنية في الأخرى، وأصبحت لِلُّغة سمات الدولة، من حيث القوة، والهيمنة، وغدت اللغة من أهم الأصول التي تُبنى عليها جنسية الشعب، ورمزا قوميا في كل مجتمع[٣].

واستعمرت هولندة إندونيسية ثلاثمائة عام، وكان الشعب مقسَّمًا بين مائتي لغة وطنية، والجامع الرمزي بينه هو العربية، من حيث هي لغة القرآن الكريم. وكان الهولنديون يضنون على الإندونيسيين بتعليمهم الهولندية مخافة أن «يُفسِدوا» عقول الطلاب وأخلاقهم، بأن يسقطوا الكلفة بينهم وبين الهولنديين، إذا هم أجادوا لغتهم، ويعدُّوا أنفسهم مساوين لهم، وقد رأوا السواد الأعظم من الطلاب الإندونيسيين الذين تعلموا الهولندية في العقود الأربعة الأولى من

(١) الأمم الحية أمم قوية بلغاتها، ٢٢.
(٢) كلمات العالم، ٤٢ و ٢٣٨ و ٣٠١.
(٣) انظر: الجمهورية العالمية للآداب، ٤٢، وكلمات العالم، ٣١٨، والازدواجية اللغوية الأمارة، ٥٩، وواقع اللغة العربية في أجهزة الإعلام، ٦٣.

القرن العشرين استوعب النظريات القومية الغربية، وتقلد نوعا من الاشتراكية[١]؛ فكان ذلك عونا على إزالة الهولندية من إندونيسية، فلم يبق لها أثر[٢]، وعونا للإندونيسيين على التوحد، وألا يجدوا من الصعوبات في اصطناع لغتهم لغةً رسمية ما وجدت مستعمرات فرنسة وبريطانية، ففي عام ١٩٢٨ -وكانت إندونيسية ما تزال مستعمرة- أعلن الحزب الوطني الإندونيسي أن الملاوية ستكون هي لغة إندونيسية الرسمية، ثم صدر قرار ثوري بإخراج الهولندية من إندونيسية، واستبدال الإنجليزية بها، وفي عام ١٩٣٩ اجتمع مؤتمر الشعب، فأقرَّ الملاوية لغة وطنية واحدة، فاجتمع عليها الشعب كله، فلما استقلت إندونيسية في منتصف العقد الخامس من القرن العشرين، قررت إنفاذ ما وعد به الحزب الوطني؛ فغدت ذات لغة وطنية رسمية، لا تنازعها السيادةَ لغةٌ أخرى. واستعمرت بريطانية نيجيرية، فلما خرجت منها، اتخذت الإنجليزية لغةً رسمية، فلم يتوحد عليها الشعب، وظل بينه من الحروب الأهلية، والتخلف ما هو معلوم؛ إذ لم يشعر بأن بينه ما هو مشترك، غير الأرض[٣]. وحكمت بريطانية إيرلندة منذ أوائل القرن الثاني عشر الميلادي، فسامتها سوء العذاب، ولا سيما كروميل، فقد أعمل السيف في رقاب أهلها، وشحن عشرين ألفاً من شبابهم، فباعهم عبيداً في أمريكة، ونفى منهم أربعين ألفاً، ومحا الإيرلندية من حياتهم، وجدَّ هو ومن تلاه في الحكم في محو شخصيتها، فامحت الإيرلندية، وغدت لغة أثرية، لا يعرفها إلا حفنة من الرجال، وأُدمجت إيرلندة في بريطانية[٤]. فلما أراد الإيرلنديون بعْث أمتهم، عَلِمُوا أن لا سبيل إليه ما داموا يجهلون لغتهم، ويصطنعون الإنجليزية، وأن لا بد من إحياء الإيرلندية، وإعادتها إلى الاستعمال، ولكن معظم الإيرلنديين كانوا قد هجروها، ثم وجدوا واحدا منهم يتقنها (ديفاليرا)، وكان معلِّما، فألَّف لهم كتبا، تقرِّبها إليهم، فهبُّوا يساعدونه على نشرها، ويؤازرونه في تعليمها، حتى استعادت مكانتها، وشاعت في الإيرلنديين، فاجتمع عليها الشعب، فنال استقلاله، واستعاد هويته؛ فكافؤوه

(١) كلمات العالم، ١٨٦.
(٢) السابق، ٥٥، والسياسة اللغوية والتخطيط اللغوي، ١٣٢
(٣) السياسات اللغوية، ١٠١، وخمس عشرة سنة من النضال، ٣٣٨.
(٤) العدوان على العربية عدوان على الإسلام، ١١ وما بعدها.

بانتخابه أول رئيس لجمهورية إيرلندة المستقلة[١].

وما تزال العربية رابطا قويا بين العرب، مسلميهم ونصاراهم، على ما بين سياسييهم من تخالف في العقائد، والأهواء، والمنافع، والتبعية السياسية والاقتصادية، فهم يلتقون عليها، وعلى مراجعها الثقافية، حتى تلك التي يخالفها بعضهم من جهة المعتقد، ويعتزُّون بها، ويتغنون بجمالها، ويشتركون في خدمتها، ونشر تراثها، ويتجاوز بعض النصارى منهم حبها لغةً وثقافةً إلى حبها تاريخا وحضارةً، وحبِّ القرآن وحفظه، والاعتزاز به، والمجاهرة بالانتماء إلى حضارة الإسلام والفخر بها، ومدْح النبي -صلى الله عليه وسلم-، كما قال ميشيل عفلق: الإسلام أبلغ مفصح عن شعور العرب الكوني ونظرتهم إلى الحياة، وأقوى تعبير عن وحدة هويتهم، التي يندمج فيها اللفظ بالشعور والفكر، والتأمل بالعمل، والنفس بالقدر، وهو فوق ذلك أروع صورة للغتهم وآدابهم، وأضخم قطعة من تاريخهم القومي، فلا نستطيع أن نتغنى ببطل من أبطالنا الخالدين عربيا، ونهمله أو ننفر منه مسلما. ولسوف يعرف نصارى العرب، إذ تستيقظ فيهم قوميتهم استيقاظا تاما، ويسترجعون طبعهم الأصيل، أن الإسلام لهم ثقافة قومية، يجب أن يتشبَّعوا بها، حتى يفهموها ويحبوها، فيحرصوا على الإسلام حرصهم على أثمن شيء في عروبتهم[٢]. وقال: بحبِّ الأمة العربية أحببنا الإسلام منذ أن كنا يافعين، فلما زاد فهمنا الإسلامَ أضحى حبنا لأمتنا حب للإسلام، لكون الأمة العربية هي أمة الإسلام. ولا يتجاهل أن علاقة الأمة العربية بالإسلام علاقة خاصة ومصيرية لها وللإسلام إلا مكابر أو مغترض، ولا يفهم الإسلامَ شعبٌ كما يفهمه العرب، ولا يشعر أحد نحو الإسلام بمثل الرابطة والمسؤولية اللتين يشعر بهما العرب[٣]. وقال فكتور سحَّاب، وهو لبناني: إن النصراني العربي ابن الحضارة الإسلامية، وليس أجنبيا عن التراث الإسلامي، فنحن أبناء حضارة واحدة، هي الحضارة العربية، وروحها الإسلام، وإذا كانت العلمانية مقبولة في الدين، فهي مرفوضة في الحضارة[٤]. وقال شحادة

---

(١) العدوان على العربية عدوان على الإسلام، ١٢ وما بعدها، وتاريخ الحركات القومية، ٣/ ١٧٧ وما بعدها.

(٢) في سبيل البعث، ١/ ١٤٨.

(٣) مسألة الهوية: العروبة والإسلام والغرب، ٥٥.

(٤) جريدة النهار، ٦ يونيو ١٩٨٢ م (نقلا عن: فرنسا والأطروحة البربرية، ٢٣٢ وما بعدها).

الخوري: إن العربية ليست شيئاً منفصلاً عنا، ولا كساءً نرتديه اليوم ونخلعه غداً، أو زينةً نقلِّب فيها أذواقنا سلبا وإيجابا، إننا نعيش معها منذ الطفولة، وقد خالطت شعورنا وتفكيرنا، وألِفناها، وصرنا نأنس بها، فهي كالأم قرباً إلى النفس، ولصوقا بالقلب[1]. وقال جبران خليل جبران: أنا نصراني، ولكنني أحبُّ النبي العربي، وأُكْبِر اسمه، وأحب مجد الإسلام، وأخشى زواله، وأكره الدولة العثمانية؛ لأني أحب الإسلام وعظمة الإسلام، ولي رجاء برجوع مجد الإسلام، خذوها يا مسلمون، كلمةً من نصراني، أسْكَن عيسى -عليه السلام- في شطر من قلبه، ومحمدا في شطره الآخر[2]. وكانت العربية رباطا بين العرب في الجاهلية، على اختلاف عقائدهم، ووجهاتهم السياسية، وهي التي جعلت إيادا تنتصر لبكر بن وائل، وتخذل الفرس يوم ذي قار، وظلَّت رباطا بينهم في صدر الإسلام، مع أن بعضهم لم يُسْلموا، غير أن العروبة كانت -في نفوسهم- أقوى من رابطة الدين، ولذلك كان نصارى الشام يؤثرون المسلمين على الروم، وكانت تغلب تقاتل معهم الفرس والروم، وتعطي الزكاة، وتأنف من أن تؤخذ منها الجزية، ليكون ما تعطي كالذي يعطي غيرها من العرب[3]، لكن العرب المسلمين يعطونه تعبدا، وتعطيه انتماء.

(٢)

واللغة هوية من حيث هي تاريخ لعقول أهلها، وحياتهم، وعلاقاتِهم الحضارية، ومعجمٌ لبيئتهم، وصورة لها في عقولهم ووجدانهم. فقد كانت مفرداتها في صبح الوجود لا تزيد على أسماءِ ما يعرف الإنسان من المخلوقات، ثم كان كلما اتسع عقله، وزادت معارفه، أجدَّ من الألفاظ بقدر ما جدَّ له من المعاني، وإنما يُجِدُّ الألفاظَ ببسط الأسباب بين ما كان قد عَرف من المعاني وما جدَّ له، فيسمِّي الشيءَ باسم الشيء، على ما يرى من علاقة بينهما، كالشبه، والجزئية، والكلية، والسببية، والمسبَّبية، والجوار، إلخ، أو يشتق له اسما من

(١) تعريب التعليم الطبي والصيدلي في الوطن العربي، ٣١٥.
(٢) المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران خليل جبران، ٢٠٨ - ٢١٠.
(٣) انظر: كتاب الأموال، ٣٢.

اسمه، لعلاقة، تسوِّغ إشراكهما في اللفظ كما يشتركان في المعنى، حتى غدت اللغة من السعة بحيث لا يحيط بها إلا نبي[1]. وقد حاول بعض العلماء ردّ المادة المعجمية إلى معنى واحد، أو معان معدودة، هي الأصل الذي انطلق منه كل ما تدل عليه من المعاني التي قد يعزُّ حصرها، كما فعَل ابن فارس في «معجم مقاييس اللغة»[2]. وهو -إن صحَّ- يعني أن اللغة كانت في صبح الوجود ألفاظا يسيرة، لكل واحد منها معنى واحد، ثم بلغت من التوسع بالاشتقاق والمجاز ما لا ينتهي من الألفاظ والمعاني، وهو معنى قول ابن جني إن «أكثر اللغة -مع تأمله- مجاز، لا حقيقة»[3]. فالعقيدة، والعقل، والكفر، والحكمة، والشرف، والغيب، والإخبات، والحشو، والمجد، والمساجلة، والمحاباة، والربا، والأفْن، والبكيء، كانت في الأصل تدل على أمور حسية، فالعقيدة من العَقْد، وهو: الشَّد، استُعمِلت مجازا فيما يستقرُّ في القلب من المعاني التي لا تقبل الشك، كأن القلب عُقِد عليه كما يُعقَد على الثمين من المتاع[4]، والعقل مصدر عقَلتُ البعير، إذا شددتَ ساقه إلى فخذه؛ لتحبسه، ثم استعير للفهم؛ لأن ما فُهِم فقد عُقِلَ، أي قُيِّدَ، كما يُعقل البعير[5]، أو من العقل بمعنى الحبس؛ لأنه يمنع صاحبه عما لا يُرتضَى من القول والفعل، ويمسكه، فلا يجمح ولا يضلُّ، فهو للنفس بمنزلة العقال للبعير[6]. وأصل الكفر: التغطية والستر، يقال: كفرتُ الشيء، إذا غطيتَه وسترته، ومنه سمي الزارع والليل كافرين، ثم استعمل في ضد الإيمان؛ لأنه ستر للحق[7]. والحِكْمة من الإحكام، أي المنع، ومنه حَكَمةُ اللجام؛ لأنها تمنع الدابة عن الاعوجاج، وإنما سميت الحكمة حِكْمَةً؛ لأنها تمنع عن الهوى والباطل، وتردُّ عنهما[8]. والشَّرَف: الموضع، يشرف على ما حوله، ثم استعير لعلو القدر، كأنَّ صاحبه حلَّ في موضع عال، يشرف منه على من حوله من

(١) الرسالة، ٤٢.
(٢) وانظر: المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم، ١١ وما بعدها، وجدلية الحرف العربي، ٢٤.
(٣) الخصائص، ٢/ ٤٤٧.
(٤) العلاقة بين اللغة والفكر، ٣٢.
(٥) مائية العقل ومعناه واختلاف الناس فيه، ٢.
(٦) كتاب الزينة، ١/ ٣٧٣ وما بعدها، ومعجم مقاييس اللغة، ٦٤٧، والمحكم والمحيط الأعظم، ٥/ ٤٤٢.
(٧) السابق، ١/ ٤٤٦ وما بعدها، والمفردات، ٤٣٣.
(٨) السابق، ١/ ٣٨٧.

الناس. والغيب: ما اطمأن من الأرض، كما يبدو من قول المثقّب العبدي:

عَلَوْن رَباوةً، وهبطْن غيبًا، فلم يَرْجِعْن قائلةَ لحِين

ثم استُعمل فيما يغيب عن الإنسان تشبيها له بما اطمأنَّ من الأرض؛ لأنه يغيب عن العين، ويغيب عنها ما فيه. والإخبات قصْد الخبت، وهو ما اطمأن من الأرض[1]، ثم سُمِّيَ اللين والتواضع إخباتا؛ لأن فيهما ذهابا بالنفس إلى عكس ما تنزع إليه من علوٍّ وكبرياء. والحشو من الناس من لا يُعتدُّ بهم، ولا يُعتمَد عليهم، ومن الكلام: الفضل الذي لا خير فيه، وأصله صغار الإبل[2]. والمجد: النُّبل والرفعة، والأخذ من الشرف والسؤدد ما يكفي، وأصله «أن تأكل الماشية حتى تمتلئ بطونها»، ثم صار كل ممتلئ خيرا ونائلا وشرفا ماجدا ومجيدا[3]. والمساجلة: المفاخرة والمباراة، وأصله أن يتبارى الرجلان في الاستقاء بسجليهما (دلويهما)، فأيهما نَكَل غُلِب[4]، ومنه الحرب «سجال» أي: مناوبة كما يتناوب المستقيان من البئر، يستقي هذا مرة ويستقي ذاك أخرى. والمحاباة: الميل والاختصاص، وأصله: حابيتُ الصيدَ، إذا سرتَ معه مجانبا، تختله[5]. والربا: زيادة في المال، يضعها المقرض على المقترض، مأخوذة من الربوة، وهي بقعة مرتفعة عما حولها، زائدة عنه إلى الأعلى[6]. والأفْن: قلة العقل، وأصله أفَنَ الفصيلُ ما في ضرع أمه، إذا رضعه كله، وأفَن الحالبُ الناقة، إذا لم يدع في ضرعها شيئا، وأفَنت الناقة قلَّ لبنها[7]. ويسمون العيي بكيئا، من شاة بكيء، وهي قليلة اللبن[8]، إلخ. ويتجلّى استعمال المعاني الحسية في الإبانة عن المعاني المعنوية -على بعْد ما بينها- في علم العروض أكثر شيء، فجلُّ مصطلحاته مأخوذ من معان حسية معلومة، كالبيت، والمصراع، والعروض، والسبب، والوتد، والوَقْص، والخَبْن، والعَقْل، والعَصْب، والقبض،

---

(١) المفردات، ١٤١.

(٢) تعميم الدلالة، ١١٠.

(٣) السابق، ١٢٤.

(٤) اللسان، (س ج ل).

(٥) كتاب النوادر لأبي مسحل الأعرابي، ١/ ٢.

(٦) المعجم الاشتقاقي المؤصل، ١٨.

(٧) معجم مقاييس اللغة، ٦٦، وانظر: تعميم الدلالة، ١٠٧.

(٨) كتاب الشاء، ٦٤.

والشَّكل، والكَفّ، والترفيل، والتذييل، والحذذ، والصَّلْم، والقافية، والإقواء، إلخ.

وإذا كان اعتباط العلاقة بين اللفظ والمعنى يعين مَنْ ليس مِن أهل اللغة على أن يعرف معاني المفردات المستعملة استعمالا مجازيا، على وجه الإجمال، دون حيثيات نقْلها من الحقيقة إلى المجاز، والعلاقة بين ما نُقِلت منه وما نُقِلت إليه، فإنه يحول بينه وبين معرفة دقيق المعاني، وكيف اشتُقّ اللفظ من اللفظ، ومسوغ اشتقاقه. ولَمَّا كان أكثر اللغة مجازات ميتة[1]، وكان المجاز شطر حسن العربية[2]، كان أكثرُ الناس إدراكا لجمالها، ودقيق معانيها أعرَفهم بأصولها، والعلاقة بينها وبين فروعها، وحقيقتها ومجازها، وأقلُّهم إدراكا لجمالها أقلّهم علما بهذا. ولعل هذا من أسباب أن إعجاز القرآن الكريم إنما يدركه العرب الأولون، وأن ما أدرك منه علماء اللغة بَعْدَهم دون ما كانوا يدركون؛ لأن العرب الأولين كانوا يعرفون أصل كل لفظ، وكيف حُوِّل عنه، وذلك التحويل هو موطن الحسن فيه، ولمَّا كان «المجاز متى كثر استعماله كان حقيقة عرفا»، ونسيت مجازيته، فخفي على المتأخر مِنْ حسنه ما كان ظاهرا للمتقدم، كان لزاما أن يخفى على المتأخر كثير من أسرار اللغة. وإن كانت المعرفة المنقوصة لا تحول دون الانتفاع بما يُكتَب باللغة من نصوصٍ، لا يراد بها أكثر من الكشف عن الحقائق الموضوعية، كالنصوص العلمية البحت. فالاقتصار -مثلا- على معرفة أن «النفاق» يعني إظهار الإيمان وإبطان الكفر لا يُبين عما في اشتقاقه من «النافقاء» -وهي: «جحر اليربوع، يكون له بابان، فإذا أُخِذَ عليه باب، خرج من الباب الآخر»[3]- من بلاغة، ويُفِيت ما يوحي من مراوغة وخداع، وإمعانٍ في التخفي، وإظهار الشيء وإبطان غيره، كما يحول دون معرفة ما يتسم به مشتقها من علم باللغة، واقتدار على التصرف فيها بما يبين عن المعاني التي تتعاصى على البيان، وإبرازها في صورة تجلِّيها للعقل أفضل مما يجلِّيها غيرها من الألفاظ التي لا تنحو هذا المنحى في البيان. والاقتصار على معرفة أن

---

(١) انظر: الخصائص، ١/ ٤٤٧، والمزهر، ١/ ٣٥٧.

(٢) الإتقان في علوم القرآن، ٢/ ٤٧.

(٣) كتاب الزينة، ١/ ٤٤٩.

معنى «شَكَط»[١] في الحسانية (اللهجة الموريتانية): عاب، لا يبين عن بلاغة المجاز فيه، ولا عن براعة مخترعه، لعدم وضوح العلاقة بين المجاز فيه والحقيقة، وإنما يَبين ذلك لمن علم أن معنى هذا الفعل -في الأصل- قطع غصون الشجرة، فعرِيَت مما كان يزينها ويسترها من الورق. وإذا قيل إن امرأ «شكط» آخر، فإنما يراد أنه عرَّاه كما تعرَّى الشجرة، إذا قطعت غصونها. ومعنى «يَتَلْقْوَن»، في الحسانية -أيضا-: يتقلقل في مشيته، من الضعف، ولين الجسم، وامتلائه، مأخوذ من «القوني»، وهو الوَرَل، أو دابة تشبهه، في الامتلاء واللين. ولا يعرف بلاغة التشبيه في هذا الاشتقاق، بل لا يعرف معناه الدقيق إلا من رأى «القوني» ومشيته ولينه. وكذلك قولهم للمتردِّد: «فيه بو گْوَيْشِيشْ»[٢]، وهو -في الأصل- مرض يصيب صدور البقر، فإذا رامت نهضا، ثقُلت صدورها؛ فرجعت، فمن نُسب إلى «بو گويشيش»، فإنما يشبَّه تردده ونكوصه بعد وشْك إقدام بتردد البقرة المصدورة. والمعاني التي تدل عليها الكلمات الثلاث (شكط، ويتلقون، وفيه بوكويشيش) لا تبين عنها: عابه، ويتقلقل، ومتردد، فإنما تبين هذه عن مجمل المعاني الثلاثة، ولا تؤديها كما تؤديها الاستعارة؛ لتجرُّدها من الصورة البيانية وما فيها من تشخيص.

وإنما يتأتى نقل اللفظ من المعنى إلى المعنى من إلْف الأشياء، وطول صحبتها، فإنهما يقيمان لها في النفوس صورا، ويخلعان عليها من المعاني ما ليس في بعضها حقا، ويجعلان الشعوب تعرف من خفاياها، وتفطن إلى ما يخفى على غيرها من خفيِّ العلائق بينها وبين غيرها، فتخصها من الألفاظ بما لا تُعْرِب عنه لغة أخرى؛ لأن اللغة إنما تُبين عما يعرف أهلها. ومن هذا القبيل خلْع العرب التذكير والتأنيث على بعض الجمادات، على سبيل التشبيه، وجعلهم الشمس والقمر رمزا للبهاء والرفعة، والمَها والظِّباءَ رمزا للجَمال، والنمر رمزا للشراسة، والأسد رمزا للشجاعة، والحمار رمزا للبلادة وصبرِ العاجز، والوتدَ رمزا للذل وقلة الناصر، والحبْل رمزا للعلاقة، والبحر رمزا للسعة، والسحاب رمزا للعطاء المغني، إلخ. وإنما تُستعمَل المعاني الحسية

---

(١) يبدو أنه مقلوب «كشط»، بمعنى أزال الجلد، ومنه قول الله -تعالى-: (وإذا السماء كشطت).

(٢) گويشيش: تصغير گاشوش، وهو الصدر، وأصله في الفصحى: جُؤشوش، فقلبت الجيم جيما قاهرية يمنية.

مجازا في المعاني المعنوية، لتقريب بعيدها، وإظهار خفيها، وتشخيص معنويها، ويُبْنَى ذلك على صورتها في الوجدان، وصورتها فيه جزء من الثقافة، فيختلف التعبير عنها باختلاف ما يصنع طول الإلف بينها وبين الشعوب من علاقات نفسية. وهذا من أسباب أن اللفظ يستعار للمعنى في لغة ولا يستعار له ما يرادفه في لغة أخرى، لاختلاف دلالتيهما في الثقافتين، فإن تُرْجِم ذلك ترجمة حرفية لم يدلَّ على شيء، أو دلَّ على غير المراد، كما لو ترجمت الكناية عن الكرم بهُزال الفصيل، وجُبْن الكلب، وكثرة الرماد، وإيقاد النار على الأيفاع، ترجمة حرفية، لا تلتفت إلى لازم اللفظ، مع أنه هو المراد. ولهذا قال الإمام الغزالي -رحمة الله عليه- بوجوب الجمود على الألفاظ الواردة في الآيات والأخبار المتشابهة، والإمساك عن التصرف فيها؛ لأن من ألفاظ العربية ما لا مطابق له من غيرها من اللغات، ومنها ما له مطابق، ولكن ما جرت عادة أهلها باستعارته لما يستعير له العرب مرادفه، ومنها ما يكون مشتركا في العربية ولا يكون كذلك في العجمية[1]. وهذا -أيضا- من أسباب أن تشبيه الشيء بالشيء يحسن في لغة، ولا يحسن في غيرها؛ لأن ما يدل عليه في الثقافتين مختلف، كما يشبِّه العرب المرأة بالناقة في طول القامة، كقول القائل:

تُرِيكَ -إذا دخلْتَ على خلاءٍ، وقد أمِنَتْ عيونَ الكاشحينا-
ذراعَيْ عَيْطَلٍ أدماءَ بِكرٍ، تربَّعتِ الأجارعَ والمتونا

فربما كان هذا من أقبح ما يُتَخيَّل في غير الثقافة العربية، وأدلّه على الجفاء وغِلَظ الطبع، لبُعْد ما بين الناقة وما يُتَغَزَّل به من معاني الأنوثة. ويشبَّه المرء بالحَمَل، في الثقافة الغربية، إذا أريد وصفه بالوداعة، ولا يشبَّه به في العربية؛ لأن الضأن فيها مما يَرْمُز إلى البلادة، كما في قول الله -تعالى-: (ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء)، ما عدا الكبش، فيستعار لسيد القوم وقائدهم، والنعجة والشاة، فتستعاران للمرأة، كما في قول عمرو بن معديكرب:

نازلْتُ كبشَهمُ، ولم أرَ مِنْ نِزالِ الكبش بُدًّا

وقول كثيِّر عزة:

---

(١) إلجام العوام، ١٦.

بِلَيْلَى وجاراتٍ لِليلَى كأنَّها نِعاجُ المَلا تُحْدى بهنَّ الأباعرْ

والبيت المنسوب إلى عنترة:

يا شاةَ ما قَنَصٍ لمن حلَّت له، حرُمتْ عليَّ، وليتها لم تحْرُمِ!

غير أن المرأة تشبَّه بالنعجة لا من حيث هي شاة من الضأن، وإنما من حيث هي مهاة أو ظبية، والمها والظباء تُنزَل -في ثقافة العرب- منزلةَ الضأن، كما تُنزَل الوعول منزلة المعز، كما يبدو من البيت المنسوب إلى امرئ القيس:

فعنَّ لنا سِربٌ، كأنَّ نعاجَه عذَارى دوارٍ في المُلاءِ المُذَيَّلِ

وكذلك إذا شُبِّهت بالشاة، فإنما يراد تشبيهها بالنعجة، بهذا المعنى، أو شُبِّهت بالبقرة، فإنما يراد تشبيهها بالمهاة. فمعنى التشبيه بهذه الحيوانات في العربية لا يؤديه التشبيه بما يقابلها في اللغات الأخرى، كـ (ewe - النعجة)، و(cow - البقرة) و(ram - الكبش) في الإنجليزية -مثلا-، بل قد يُفهَم منه الغضُّ من الرجل والمرأة، كما يَفْهَم ذلك مَنْ لا يعرف العربية الفصحى من العرب؛ إذ يؤول التشبيه -في غير الثقافة العربية- إلى التشبيه ببقرة أهلية، وشاة من الضأن، وهما رمز البلادة، وليس بينهما وبين الرياسة والجمال ما يسوِّغ التشبيه. وإنما أَنْزلَ الإبلَ في ثقافة العرب، والخِرافَ في ثقافة الأوروبيين تلك المنزلة طبيعةُ البيئة العربية الصحراوية، فهي التي صنعت علاقة العرب بالإبل، ولا سيما الناقة، وطبيعة البيئة الأوروبية الرعوية، فهي التي صنعت علاقة الأوروبيين بالخراف. وكذلك ما قد يكون من اختلافِ ما ترمز إليه الكلمة في لغة عما يرمز إليه مرادفها في أخرى، كاختلاف ما يرمز إليه «الخريف» في الحسَّانية عما يرمز إليه في اللغات الأوربية لاختلاف البيئات، فالخريف في الحسانية رمْز الحياة؛ لأنه فصْل المطر والخصب والتكاثر، فإذا قيل فيها: «أرض خريف»، كان معناها أنها ممرعة أحسن ما يكون الإمراع، والكلمة التي ترادف الخريف في الإنجليزية (autumn) رمز الفناء؛ لأن الخريف في أوربة بعكس الخريف في موريتانية. وقد يقع بعض هذا الاختلاف في الثقافات الفرعية التي تنتمي إلى أصل واحد، فيرمز اللفظ فيها إلى معانٍ شتى، كما يرمز الذئب في نجْد والخليج العربي -الآن- إلى الفطنة والدهاء، والمرءِ، يَكْفي ما وُكِل إليه، ففي التشبيه به توثيقٌ وامتداح، وفي التسمية به تفاؤل، ويرمز في موريتانية إلى المكر

والاحتيال، وفي التشبيه به ذمٌّ وانتقاص، ولا يسمَّى به، وكذلك كان في ثقافة العرب الأولين، كقولهم: «أَحْوَل مِن ذئب» (من الحيلة)، «أغدر من ذئب»، «ألأم من ذئب»، «أوقَحُ من ذئب»، «أخوَن من ذئب»، «أَظلمُ من ذئب»، «من استرعى الذئب ظلم».

(٣)

واللغة هوية للمكان كما أنها هوية لأهله؛ لأنها تضمُّ من أسمائه، وأسماء ما يضمُّ من مخلوقات، ومن خصائصه، وصوره، في كل حال، ما لا تضمُّ لغة من اللغات، وهي -إلى ذلك- تخلو من كل ما ليس فيه، كما قال أحدهم: لا يتوقع المرء كثيرا من المفردات الدالة على الأشجار في لغة الأسكيمو، ولكنه يتوقع أن يجد في لغة القبائل التي تصيد الحيوان كثيراً من المفردات الدالة على طرق محدَّدة أو دقيقة في الصيد[1]. فكلُّ ما وقعت عليه عين المرء في أرضه من حيوان أو جماد سَمَّاه، وكلُّ ما عرف من أمره وصَفَه به، وترك له ذكرا في كلامه، حتى لا يبقى في المكان شيء -من الصئبان إلى الجبل- إلا وله في اللغة اسم، ومن القلب مكان، وفي الخيال صورة. فإن خرج الشيء عن بيئة اللغة جهلته، وتعاصى عليها البيان عنه، إلا أن تضعه في وعاء من بيئتها، كأن تشبهه بما عهدت فيها، أو تقيسه عليه، أو تعطيه حكمه، لعلاقة بينهما. فجزيرة العرب -مثلا- لا يصوِّرها ويبين عن أدق ما فيها إلا العربية، فهي التي تبين عما فيها من حيوان ونبات، وحَرٍّ وقُرٍّ، ومطر، وأرواح، وجبال، وأودية، وشعاب، وثنايا، وتِلاعٍ، وخبوت، وأخياف، وسهول، وكثبان، إلخ. يظهر ذلك في تسمية ما ضمت أرضها من مخلوقات، تسمية مفصلة مستوعبة، لا تغادر منها صغيرا ولا كبيرا إلا خصته باسم، وميزته مما يشبهه، أو يقاربه، أو يلاقيه في بعض الصفات، حتى لتخص البقاع المتقاربة بأسماء، تميز بعضها من بعض، فتجعل لكل واحدة منها علَمًا لا تشارَك فيه. وهي -إلى ذلك- تصوِّر البيئة في وجدان أهلها وثقافتهم، كما صوَّر شعراءُ العرب الأمطار، والأنواء، وما يفعل الغيث بالأرض، إذا نزل بها، وما يُحدِث في حياة الحيوان، وصوروا الحُمُر الوحشية،

---

(١) الموسوعة اللغوية، ٤٦١.

وورودها الماء، ومحاذرتها الصائدين على المياه، وورد القطا، وبكور الغراب، والفيافي والقفار، والرياض، والغدران، والظل والحرور، والسراب ولمْعه في الهواجر، والظمأ، والتوق إلى الماء، إلخ، تصويرا يعين على معرفة ما كان يكابد منها أهلها، وما قد يتمتعون به منها أحيانا. ويظهر جانب من ذلك فيما وصف به القرآن الجنة والنار، فقد كان الغالب على ما وصف به النار شدة الحر، والغالب على ما وصف به أهلها الجوع، والظمأ، كقول الله - تعالى -: (ليس لهم طعام إلا من ضريع لا يسمن ولا يغني من جوع)، (وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا)، (ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله قالوا إن الله حرمهما على الكافرين)، (ثم إنكم أيها الضالون المكذبون لآكلون من شجر من زقوم فمالئون منها البطون فشاربون عليه من الحميم فشاربون شرب الهيم هذا نزلهم يوم الدين). وسَمَّاها النار، والجحيم، ولَظَى، وسَقَر، ولم يسمِّها دار العذاب، على ما فيها من صنوفه، ولا سَمَّاها تسمية أخرى؛ لأن الحر والإحراق، وهما أول ما توحيه أسماؤها، من أشد ما يخطر للعرب من صنوف العذاب، لِمَا قاسوا من حَرور الجزيرة وسمومها، وبلوا من ظمئها، وقلة مائها؛ فكان الحر والجوع والعطش من أكثر ما يحاذرون من أنواع العذاب، لما كابدوا منها. ووصفَ الجنة بالبرود، والظل الممدود، والماء المسكوب، وكثرة الشراب والطعام، ورغد العيش، ووفرة الفواكه والأعناب، والنعمة، وراحة الأبدان، وطيب العيش، والأمن، والسعادة، كقول الله -تعالى-: (في سدر مخضود وطلح منضود وظل ممدود وماء مسكوب وفاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة). وبرود الماء، ووفرة الأنهار، وكثرة الفواكه من أكثر ما يتوق إليه عرب الجزيرة، لقلتها فيها أو ندرتها. ولا يدرك المرادَ من قول الله -تعالى-: (لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا) إلا من بلا حر الشمس، ومبلغ التذاذ من لا يراها ببرود الجو واعتداله، أما الذين يسكنون في أمكنة باردة طوال العام، فربما كان احتجاب الشمس عنهم أدنى إلى العذاب منه إلى النعيم. ومن هذا تشبيه العرب الكريم بالسحابة، كقول زهير:

وأبيضَ فيَّاضٍ، يداه غمامةٌ   على معتفيه، ما تَغِبُّ نَوافِلُهْ

فإن أشدَّ ما يتوق إليه أهل الصحراء الحارة المطر، فهو الذي يسقي، ويُنبت، ويُخصب، ويُذهب الجوع والظمأ، والقحط؛ فكان من أجل ذلك أشد شيء ملاءمة لأن يشبَّه به الكريم، هذا إلى ما فيه من إيحاء بالحياة، والخروج من ضيق الفقر إلى سعة الغنى، كما يبدو من صيغة المبالغة «فياض»، وما تدل عليه من وفرة العطاء التي تلائم كون نوافله كالمطر الذي لا يغِبُّ، أي لا ينقطع، لما يترتب على دوامه من الخصب، وزوال القحط. ويقابل هذا ما في لغة العرب من الألفاظ الدالة على العطش وأنواعه ودرجاته، كالظَّمأ، والصَّدى، والأُوام، والهُيام، فهي تدل على العطش إلا أن كلاًّ منها يدل على درجة منه، فأول مراتب الحاجة إلى الماء العطش، ثم الظمأ، ثم الصدى، ثم الغُلَّة، ثم اللُّهبة، ثم الهْيام، ثم الأُوام، ثم الجُواد، وهو الذي يقتل[1]. وقد أبانت أشعارهم عن اغتباطهم بالماء، وابتهاجهم بنزوله، وشدة توقهم إليه، كقول أحد الأعراب:

وحديثُها كالقطر، يسمعه راعي سنين، تتابعتْ جَدْبَا
فأصاخَ يرجو أن يكون حَيًا، ويقول من فرَح: هَيا ربَّا!

وقول الآخر:

لئن كانَ بَرْدُ الماء هيمانَ صاديًا إليَّ حبيبًا، إنها لحبيبُ

كما أبان عنه حديث القرآن الكريم عن الماء، فما احتفلت لغة بنعمة الماء احتفال لغة القرآن بها، ولا أشرق أدب من آداب العالم بما أشرقت به آياته من صور وضيئة في إكبار الرحمة مصورة في الماء على الوجه الذي أبان عنه قول الله -جل جلاله-: (وجعلنا من الماء كل شيء حي)[2]، فهو يقرنه أبدا بالإحياء، والإنبات، والخصب، ويشير إلى ابتهاج العرب به، ويسميه غيثا؛ لما فيه من غوث الناس، كقوله -تعالى-: (والذي نزَّل من السماء ماءً بقدر فأنشرنا به بلدة ميتا)، (فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت)، (وهو الذي ينزِّل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته)، (كمثل غيث أعجب الكفار نباته)[3]. صحيح أن الناس كلهم يتعلقون الماء، ويعتقدون أنه وسيلة الحياة، غير أن الوسيلة التي يتهيأ للمرء

(١) فقه اللغة وأسرار العربية، ٢٠٥ وما بعدها.
(٢) في شرف العربية.
(٣) الموضع السابق.

منها ما يأمن به الموتَ، وليس في بيئته ما يجعل حياته على خطر منْ نقصها، ليست كالتي لا يتهيأ له منها إلا الحد الأدنى، فهو يخاف أبدا أن تنقص، أو تعزَّ؛ فيهلك: (وأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين)، (قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غورا فمن يأتيكم بماء معين)، وكل ماء في الجزيرة عرضة لأن يغور؛ لأنه إما ماء بئر، وإما ماء غدير، وليس فيها ماء مقيم، كالأنهار، والموجود منه يُتنازَع فيه، ويقتتل عليه أبدا لقلته.

ومن تصوير اللغة للبيئة، وكونها هوية لها كثرة أسماء الأشياء في اللغة لكثرتها في بيئتها، أو قلَّتها فيها لقلتها أو قلة العناية بها، كما قيل في كثرة الكلمات الدالة على الثلج في لغة الأسكيمو، وكثرة ما يتعلق بالجَمَل، من مفردات العربية[1]. وإذا كان بعض الباحثين يرى أن ما أشيع من كثرة ألفاظ الثلج في لغة الأسكيمو غير صحيح، وأنْ ليس فيها منها إلا ما في غيرها من اللغات الأوربية[2]، فعدم صحته لا ينفي صحة ما يرمز إليه، من تصوير اللغة بيئتها، ومطابقتها إياها، وتأثرها بها، فقد درس أحد اللغويين المعاصرين ثقافات الأُرُز في أعالي الفلبين أربعين عاما، وقضى سنين مع منتقِيات بذوره، وسجَّل معارفهن عن خصائص أعواد الأرز والحبوب الدقيقة، من حيث اللون، والمقدار، والملمس، ومقدار التهشُّم، فتبين أن في لغتهن (الإيفاوجو) سبعة وعشرين اسما للأواني الفخارية التي يحفظ بها الأرز، وثلاثين اسما لأنواع السِّلال المستعملة في حمل الأغذية، ومائة وثلاين عبارة، تفصِّل المدفوعات المالية التي تقدَّم عند استعمال حقول أرز المستنقعات[3]. وفي لغة التوفا -دون المعروف من لغات العالم- لاحقة، تزاد في الاسم، فيصير صفة بمعنى «يفوح بـ»، أو «كرائحة»، نحو ivisig، بمعنى «كرائحة الرنة»، فـ ivi هو الرنة، وsig هي اللاحقة[4]. وسبب ذلك أن للشم عند التوفا مكانة، ليست له عند غيرهم. وقال ك. ديفيد هاريسون إن الحكاية الصوتية مستعملة في لغات العالم كلها، غير أن قليلا من المدوَّن من ألفاظها

(١) التفكير الإبداعي اللغوي، ١٣٩.

(٢) تكوين العقل العربي، ٧٨، والغريزة اللغوية، ٨٢.

(٣) التوثيق اللغوي والإحياء اللغوي، ١٣٣.

(٤) عند ما تموت اللغات، ٣٥٦.

هو الذي يتيح المحاكاة، كلغة التوفا، والهمونج الأبيض[1]. ويفسّر ذلك بأن التوفيين يقضون كثيرا من وقتهم في الصيد، ورعي الحيوان في أمكنة جبلية، وقد أُوتوا إحساسا مرهفا بالأصوات، ولا سيما أصوات الحيوان والطبيعة، وأصداء الأمكنة الخالية، كما أوتوا براعة عجيبة في تقليد أصوات الطبيعة، وهم يستعملون هذه المهارة في الغناء للثيران لتهدئتها، ونداء الخنازير البرية، عند صيدها، وفي تقليد أصوات الطيور، وحيوان المرموط (marmot)، وقَصّ الحكايات المرِحة عن الحيوان[2].

ويجد المرء من الأسماء وتفاصيل الأشياء التي تشتد عناية العرب بها، والتصاقهم بها، كالنخل، والإبل، والشاء، والبئر، ما لا يجد في لغة أخرى، وقد أُلفت كتب كاملة في الألفاظ المستعملة فيها، وهي، وإن كانت غير كبيرة، تشتمل على عشرات الكلمات، أو مئاتها، مع أنها لم تعتمد الاستقصاء، بآية ما قال بعض الباحثين إن في العربية للجمل «وأعضائه وشؤونه أكثر من ستة آلاف لفظة»[3]، ولم يشتمل على أكثر هذه الآلاف الستة واحد من الكتب التي أُلّفت في الإبل، فضلا عن أن يشتمل عليها كلها. وليست كثرة هذه المفردات بغريبة على من يعلم مكانة الإبل في حياة العرب. وقد أورد المؤلفون في هذه الكتب بعض ما يتعلق بخَلْق الإبل والشاء، وأسمائها عضوا عضوا، وأسنانها، وأمراضها، وألوانها، وشياتها، وحَمْلها، ونتاجها، وصغارها، وذكورها، وإناثها، وألبانها، وأطوارها، ومشيها، إلخ، وفصّلوا في ذلك تفصيلا يدل على مبلغ علم العرب بها، وهو علم، اقتضته ملازمتهم إياها ملازمة وقفتهم على كثير من أمرها، ولا تعرف الشعوب التي ليست في أرضها إبل من الألفاظ التي تدل عليها إلا الألفاظ العامة التي قد تشترك فيها الأحياء كلها، كالرأس، والذَّنب، والعين، والأذن، والعنق، والرِّجل.

ولغة البايوت -وهي لغة الهنود الحمر الجنوبيين، بولايات أريزونة، ونيفادة، ويوتة- زاخرة بكل لفظ دقيق يتعلّق بسطح الأرض، كالحدود الفاصلة بين

(١) عند ما تموت اللغات، ٣٥٩.
(٢) السابق، ٣٥٦.
(٣) عوامل تنمية اللغة العربية، ١٤.

المياه، والمنحدرات، والطرق الساحلية، والوهاد الرملية، والوهاد الدائرية، والوهاد نصف الدائرية، والواسع منها والضيق، والسهول بمختلف صورها، والفلوات بضروبها، والهضاب بأصنافها، والأودية الجافة، والأودية العامرة بالماء، والثلوم الناتجة من الأمطار، والمسائل، والسفوح، والمشمس وغير المشمس من المضايق والمنحدرات، وحزون السهول، ورُبَا الهضاب، وغير ذلك مما لا يتصوره مجتمع، نشأ في بيئة تختلف عن بيئة البايوت[٤]. وهو مما تحفل به العربية أيضا، فما تَركت من صورة يكون عليها وجه مكان من الجزيرة إلا سَمَّتها بما يميزها من غيرها، كأسماء أصناف الجبال وأجزائها، وأصناف الحرار وتضاريسها[٥]، وتبلغ أسماء الصحراء فيها في إحصاء بعض الباحثين خمسة وعشرين[٦]، وهو دليل على معرفتهم بها، والمعرفة بالشيء تترتب عليها المعرفة بتفاصيله، وأدقِّ الفروق بين أنواعه، ومما يترتب على ذلك أن يُخَصَّ كل منها بتسمية. وليس من المتوقع أن تكون الأسماء التي تعد مترادفة حقا، وإنما هي أسماء، خفي بكثرة الاستعمال المجازي، والبعدِ عن البيئة التي نشأت فيها، ما تدل عليه من فروق دقيقة بين المسميات. ولعل سبب أن بعض الهنود الحمر يسمِّي الشمس والقمر باسم واحد، ولا يفرِّقون بينهما إلا بالسياق، قلة عنايتهم بهما؛ فكلَّما قلَّت العناية بالبيئة قلَّت الألفاظ العامَّة الدالة عليها، وكلَّما اشتدَّ الاهتمام بها، وكانت ألصق بالحياة، كثرت أسماؤها. ومَنْ لا تُهِمُّه فصائل الحيوان وفروعها يسمِّي حشرةً أو دودةً ما ليس بسمكةٍ ولا إنسانٍ ولا حيوان يمشي على أربع[٧]. وما لم يكن في البيئة لم يكن في اللغة، إلا أن تستعيره. ومما يرمز إلى ذلك ما قالت مارغريت كانْ، من أن الكرد يفخرون بأنْ «الدعارة» دخيلة في لغتهم من العربية، وليست أصيلة فيها، ولا لها فيها مرادف، وعلَّلت ذلك بأن قرى الكرد ليست بالكبر الذي يسمح باتخاذ بيوت لها. وقالت تصديقا لما يقول الكرد إنها رأت العفة غالبة على من لقيت من رجالهم[٨].

---

(٤) اللغة والمحيط.

(٥) المخصص، ١٠/ ٧٠ - ٧٦ و ٧٩ - ٩٠.

(٦) انظر: أثر الصحراء في نشأة الشعر العربي وتطوره حتى نهاية العصر العباسي الثاني، ٩.

(٧) اللغة والمحيط.

(٨) سؤال الهوية الكردية، ٦٢.

وإذا صح أن اللغة ما تَذر من شيء في حياة أهلها إلا سمَتْه، فمن الممكن أن يقال إن تاريخ أهل كل لغة وثقافتهم محمولان في لغتهم، ومعجمها مرآة لحياتهم، وطبائعهم، واهتمامهم، ومعارفهم، وعاداتهم، ومعتقداتهم، ومُثُلهم العليا في فلسفة أخلاقهم[١]، وكل مفردة من مفرداته حدٌّ مجمل لمفهوم من مفاهيمهم، وتعريفها حد مفصَّل، وتركيبها معلومة مستفادة، ومقدارُ المعلومات المجتمعة حول موضوعٍ بعضٌ من ديوان اللغة الثقافي، فإذا أردت معرفة مبلغ ثقافة القوم، فالتمسه في معجمهم[٢]. ولهذا قال أناتول فرانس: إني أحب معجمات اللغة، وما أحبها لمجرد فائدتها العظيمة، وإنما لأن روح وطننا كله فيها، ففيها أفكارنا وأفكار أجدادنا، وأفراحنا وأفراحهم، وأعمالنا وأعمالهم، وآلامنا وآلامهم، وآثار الحياة العامة، وحياة الدُّور والمنازل، وآثار الذين استنشقوا الهواء الصالح، وشَمُّوا النسيم العليل الذي نشمه اليوم. وكل كلمة من كلمات المعجم تنطوي على فكرة من الأفكار، وعاطفة من العواطف، لأناس، لا يُحْصَون. وكل كلمة من هذه الكلمات المجموعة إنما هي لحم البشر والوطن، ودمهما وروحهما[٣]. فما من كلمة في العربية -مثلا- إلا وهي دليل على حال كان عليها العرب يوما، أو مشتقة من كلمة تدل عليه، وهي دلالة لا تمحوها الأيام، ولا تبدُّل الأحوال. فـ «الاعتفاد» -مثلا- يعني أن أحدهم كان إذا انقطع مَيْرُه (طعامه) أغلق عليه بابا، واحتبس في منزله، إلى أن يموت كِبْراً عن السؤال، وكان ذلك قبل أن يعرفوا السَّلف[٤]، فهي مشتملة على جانب من تاريخ العرب في الجاهلية، سيعرفه ويعرف حقيقته كل من رجع إلى معجم من معجمات العربية. وهي -على قصرها- وثيقة تحفظ هذا الجانب ما بقيت وبقيت معجمات العربية التي تفسِّرها، فهي لا تختلف عن النقوش والمدونات. وكذلك العِلْهِز، وهو وَبَرٌ، يُخْلَطُ بدماءِ الحَلَمِ، كانت العرب فِي الجاهليةِ تأكله

(١) اللغة والمحيط.
(٢) اللغة العربية أساس التنمية في وطنها، ٣٤.
(٣) الحياة الأدبية، أناتول فرانس (نقلا عن: المعلوماتية: الأدب والحضارة، ٣٧)
(٤) شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم، ٥/ ٣١٥٤.

فِي الجدب[1]، والسائبة، والوصيلة، والحامي، والعتيرة، والشّغار، والمقْت، والظِّهار، إلخ.

ومن حلَّل ألفاظ العربية، وردَّها إلى أصولها الأولى، ألفاها أصداء للحجاز ونجد وما جاورهما من بلاد العرب، وحياة أهلها في الجاهلية، وما جدَّ فيها في صدر الإسلام، والعصر الأموي، وألفى تلك الأصولَ إنما هي أسماء ما في أرضهم من مخلوقات، تفرَّع منها هذا المعجم الكبير الذي يُبين عن كل ما انتهت إليه عقولهم، في شؤون الدنيا والآخرة، بطريق الاشتقاق والمجاز، وعلِمَ أن تلك المخلوقات هي العيون التي نظروا بها إلى الوجود، وجازوا منها إلى كل معنى، خطر لهم، في الدين، والعلم، والأخلاق، والسياسة، والفكر، والفلسفة، والعواطف، إلخ، والبذرة التي بسقت منها دوحة العربية التي ما تزال -ما بقيت- تتمدد، وينبت منها ما لا ينتهي من الفروع والغصون. وهي مبتدأ كل لفظ من ألفاظهم، وأصل كل معنى من معانيهم، وإن بدا أنْ لا علاقة بينها وبين ما تفرَّع منها؛ إذ كان الوجود العيني هو أصل الصورة النفسية التي اختُرِع اللفظ من أجلها، و«المدرِكات الأُوَل للإنسان في مبدأ فطرته حواسُّه»[2]. ولهذا كانت اللغة هوية؛ لأنها مرآة، ترى فيها الشعوب أبدا تاريخها الحضاري، ومبتدأ نشأتها، وما جازت من أطوار، كما ترى فيها صورة بلادها. وليس في اللغات لغة يتراءى فيها من أمر أهلها ما يتراءى في العربية من أمر العرب وبلادهم[3].

وإذا صح أن البيئة المادية هي مجاز العقل من الحس إلى المعنى، فإن مَنْ جهلَ بيئة اللغة، عسُرَ عليه أن يتصور ما ترمز إليه مفرداتها من معان؛ لأنه لا يدرك ما بين المحسوس والمعقول من علاقة، ولا كيف جاز العقل من ذلك إلى هذا، من أجل ذلك يكون فقه المرء باللغة على قدر ما يتصور من بيئتها المادية والمعنوية (الثقافة)، وفهْم العلاقة بين ما جازت منه وما جازت إليه. ولما كانت البيئات تختلف، وتختلف المعاني التي تستنبِط منها العقولُ، ويُدْرِكُ منها عقلٌ ما لا يدرك آخر، ويفطن إلى ما لا يفطن إليه، ويهتم بما لا يهتم به،

---

(١) لسان العرب، (ع ل هـ ز).

(٢) معيار العلم، ٩٠.

(٣) اللغة الشاعرة، ٤٠.

كان حتماً أن يبقى في نفس المرء من المعاني ما لا يُبين عنه إلا لغته، ويبقى في لغة غيره من المعاني ما لا يمكن أن يَعرِف إلا مجمله، وكانت اللغة الأم وحدها هي التي تبين عن الفكر والشعور، وهي وحدها لغة الإبداع؛ إذ ليس في وسع المرء أن يتمثل لغة غيره وثقافتها كما يتمثل لغته وثقافته. هذا إلى أن البيئات والثقافات لا تتوافق، كما لا تتوافق التجارب والمعاني وما يُهتدى إليه من علائق بين الأشياء. ويترتب على ذلك أن تقصِّر اللغة غير الأم -لا محالة- عن الإبانة عن غير المشترك من البيئات والثقافات والمعاني والتجارب، وأن يقصُر الفهم عن إدراكه؛ فمن لم يتمثل بيئة اللغة وثقافتها، لم يوقع ألفاظها موقعها، ولم يفهم دلالاتها كما يريدها أهلها؛ لأن الثقافة روح اللغة ومضمونها، واللغة ظل البيئة والثقافة، فلا تُفقَه بمعزل عنهما، ولا تصلح وسيلةً للبيان عن غيرهما، إلا إن أمكن أن يُعزَل الظل عن جسمه، أو يستدلَّ به على غيره. ومن المسلَّمات أن الشعوب التي تفقد لغاتها تفقد من المعاني والأفكار والتاريخ والثقافة والتجارب بقدر ما تفقد منها، وأن ما تفقد منها لا تعوضه لغة أخرى، بالغة ما بلغت من الغنى، وأن ما يتلجلج في صدور الناس من معان وخواطر لا يبين عنه إلا اللغة التي صنعوها هم وأسلافهم في طويل الأزمان، حتى انقاد لهم حَرونها، وذلَّ شَمُوسها، كما ينقاد الطريق الوعر ويلحب بعد طول سلوك. فمن غير الممكن أن تبين الإنجليزية -مثلا- عن حياة العرب، وحاجاتهم النفسية والعقلية، وبيئتهم، ولا أن تبين العربية عن حاجات الإنجليز النفسية والثقافية، وبيئتهم. ولا بد أن يجد الذي يتكلم بلغة غير لغته نفسه في بعض المقامات عييا حَصِرا، يدندن حول المعنى يحكُّ في الصدر، فلا يجد ما يفصح عنه، فيستعين بالصوت، والجسد، ويشبِّه تارة، ويوازن أخرى؛ ليقرِّب ما يريد، ثم ينتهي إلى الإقرار بالعجز، أو الاكتفاء بالإجمال.

وإذا كان أقصى ما يفيد من يتعلم لغة أجنبية أن يفهم المعاني العامة، والحقائق التي لا دخل للثقافة فيها كبيرا، فإنَّ جهْله بلغته يُفقِده المقدرة على البيان عن المعاني النفسية التي هي ألصق شيء بالفكر والشعور والخصوصيةِ الثقافية التي هو إليها أحوج منه إلى «العلم»، كما يُفقِده الميزانَ الذي يزن به اللغات، ويعينه على تعلمها. وقد تَخْفى هذه الحقائق أو بعضها على من

يحسب أن الخلاف بين اللغات كالخلاف بين بعض المترادفات، فأيها استُعمل دلَّ على المراد من غير نقص ولا زيادة، كما يستوي «القلم» و«pen»، في الدلالة على ما يُكتب به، وأن في وسع أُمَّة أن تتبدل بلغتها من غير أن ينالها ضرر من التبدل. ويخيَّل إلى بعضهم أنه إذا شدا شيئا من لغة أجنبية، فقد عرفها معرفة تساوي معرفة أهلها بها، أو قريبة منها، وأن في وسع الناس أن يكونوا مثله في ذلك. ولما كان جل العلوم والآداب والفنون مكتوبا باللغات الأجنبية، وكانت المعرفة بالعلوم والآداب شرطَ التقدم، كان تعلُّم اللغات الأجنبية شرط التقدم أيضا. وهي آراء، يعوزها الوعي، والعلمُ بحقائق اللغة وعلاقتها بالعقل والشعور، وتُبنَى على معرفة منقوصة، وهي سمة من سمات تفكير الذين يرون أن التقدم المادي هو الحقيقة المطلقة، والغاية التي ما ينبغي أن يُتغيَّا غيرها، وأن في وسع الثقافة أن تكون عالمية، وأن أمثل الثقافات ثقافة الأقوى، وأنَّ المسارعة في اصطناعها حتم، والتلكؤ في تقبُّلها، أو الاستنكاف منه، إقامة على التخلف. وحسْب هذا من الأَفْن أن ليس في الشعوب التي أمْرُها بيدها شعب، عدلَ عن لغته إلى لغة مَن هو أقوى منه، وأن الشعوب كلما تقدمت، ووثقت بنفسها، قوي شعورها بمنادَّة مَنْ فوقها، وازداد اعتدادها بلغتها، وحفاظها عليها، وصحَّ عزمها على منافسته وفوْقه، وضاقت ذرعا بلغته، وغدت لغتها عندها هي هويتها التي ترى النيل منها نيلا من وجودها، وإنزالا لها دون منزلتها. وانظر -إن شئت دليلا على ذلك- إصرار الدول الكبرى على عدم التوحد على لغة واحدة في منظمة من المنظمات الدولية، كالإنجليزية، فإن نواب الدول الكبرى فيها أو بعضهم ربما كانوا يعرفونها، وفي وسعها أن تستنيب من يعرفها، ولا سيما مستعمرات بريطانية السابقة، كالصين، ولكنها لم تفعل. وليس في الدول الأوروبية الصغيرة، كالسويد، والنرويج، وإيسلندة، وفلندة، واحدة تخلت عن لغتها، ولا تبدلت بها واحدة من اللغات التي هي أعرق منها، وأوسع انتشارا، وما فيها من العلوم والآداب أوفر، وإن تعلمت لغة غيرها، وتكلمت بها، كما يتكلم السويديون والدانمركيون بالإنجليزية للاتصال بغير الإسكندنافيين، من غير أن يصطنعوها لغة علم أو ثقافة[1]. ولم تدَعْ كل من السويد والنرويج

(١) تصفية استعمار العقل، ٣٨.

لغتها للغة الأخرى، مع أنهما متقاربتان تقاربا، يجعل أهلهما يتفاهمون من غير ترجمان. وكذلك الدول التي تشترك لغاتها ولغات بعض الدول الكبرى في الأصل، كإسبانية، والبرتغال، وإيطالية، ورومانية، ليست فيها واحدة تخلّت عن لغتها ورضيت منها بالفرنسية لغة رسمية، أو لغةَ للعلم، مع أنها من أصل واحد، وتتقارب تقاربا يجعل العارف بإحداها يمكنه أن يفهم سائرها[1]، وتراث الفرنسية العلمي والأدبي والفلسفي أعظم وأعرق من تراثها، وكانت يوما أرقى لغات أوربة كلها، ولغةَ الآداب، والفلسفة، والديبلوماسية. وكذلك الدول التي أتيح لها قادة يعتدون بهويتها، ويستنكفون من التبعية، وإن كانت فقيرة، كتنزانية، على عهد يوليوس نيريري، فقد جعل السواحلية لغتها الرسمية، وبها كان يدرَّس الطب والعلوم والهندسة في جامعة دار السلام، بعد أن كانت الإنجليزية هي اللغة التي يسيَّر بها البلد[2]. وليس في البلدان الاشتراكية، من ألبانية إلى الصين وكوبا، بلد لا يستعمل لغته الوطنية في حياته كلها، ما عدا الجزائر؛ ولذلك قال بعضهم إن ماركسيي الجزائر شذوا عن ماركسيي العالم، وبرهنوا بتعصبهم على العربية على أن الماركسية دخلت الجزائر بعد أن مرَّت على مصفاة الفرنكفونية في باريس، فهي فرنكفونية، تلبس المعطف الماركسي[3]. ويقلُّ في العالم بلد تعليمه مزدوج اللغة، غير الوطن العربي، ولا سيما أقطار المغرب العربي، والهند الصينية (كمبودية، ولاووس، وفييتنام الجنوبية)[4]. وليس للاتحاد الأوربي لغة مشتركة؛ لأن كل دولة من دوله تأبى أن تتنازل عن لغتها للغة غيرها، ويستعمل مجلس نوابه في ستراسبورغ تسع لغات، وتكلفه اللغة ٤ر٢ مليار دولار[5]، وبلغ ما ينفق على الترجمة عام ٢٠٠٠ نحوا من ٥ ٪ من ميزانيته، وأكثر من ٤٠ ٪ من ميزانيته الإدارية، أي نحوا من ٧٠٠ مليون يورو، وسيحتاج إلى ٦٥٠ مليونا أخرى، إذا أخذ بالنظام اللغوي التام، أي إن التعدد اللغوي سيكلفه مليارا وثلاثمائة

---

(١) انظر: طرائف الذكريات، ٩٧.

(٢) التعريب في الجزائر: كفاح شعب ضد الهيمنة الفرنكفونية، ١١٥، والسياسات اللغوية، ٩٩ وما بعدها.

(٣) السابق، ١٨ وما بعدها.

(٤) ازدواجية لغة التعليم، ٢٥.

(٥) ذكر الفاسي الفهري عن فدرموك (Fidrmuc) أن اللغة تكلف الاتحاد الأوربي ما يزيد على بليون دولار كل عام، وهو خمس الميزانية الإدارية، وسبع ما ينفق على البحث والتنمية (السياسة اللغوية، ٢٦٤).

وخمسين مليون يورو[1]. وكل لغة جديدة تكلّفه خمسة وعشرين مليون يورو، كل عام، وقد اقتضى التوسع من إحدى عشرة لغة إلى ثلاث وعشرين جلْب ١١٩ ترجمانا جديدا، أي إن تكاليف التوسع إلى خمس وعشرين دولة زادت من ٢٧٤ مليون يورو، كل عام، إلى ٤٤٣ مليون، ويحتاج إلى ١٤٠٠ مترجم فوري فوق مَن عنده من المترجمين، فإذا اقتصر على ترجمة الوثائق الأساس كان ما يحتاج إليه ٦٧٥ مترجما. وتضم المفوضية الأوربية ١٣٠٠ مترجم، وسبعا وعشرين مقصورة للترجمة حول قاعة المناقشة في مجلس النواب الأوربي[2].

ولتوفير تكاليف التعدد اللغوي الباهظة اصطنع الاتحاد لغات بعض الأعضاء في بعض الإدارات، مع الإبقاء على لغات الأعضاء كلها لغات رسمية[3]، كما نزع إلى التفكير في اختيار لغة جامعة موحدة عملا بـ: «عملة واحدة، ولغة واحدة»، كاللاتينية، أو الإسبرانتو، أو لغة محلية صغيرة محايدة، وتعميمها[4]، فرارا من تكاليف التعدد اللغوي الباهظة، وقال أحد المفكرين الأوربيين (جان موني) إنه «كان ينبغي البدء باللغة والثقافة أولا لبناء أوربة»[5]. وإنما ذلك من أن كل دولة من دوله تتمسك بلغتها، ولو تمسُّكا نظريا، وتأنف من أن تستعمل غيرها؛ لما ترى فيه من انتقاص لسيادتها، وتنازل عن هويتها.

ولو لم تكن اللغة هويةً، ما عُنيَت بها الشعوب هذه العناية كلها، وما كانت إلا ألفاظا، تتساوى في البيان عن كل شيء، كما تتساوى الأرقام في الدلالة على الأعداد، والرموزُ في الدلالة على المفاهيم العلمية، ولكان أمثلها وأجدرها بأن يُصطفَى أكثرَها مفردات، وأغزرَها مضمونا، ولمَاَ ضرَّ أمَّةً أن تتبدل بلغتها، لتجرُّد اللغات من الثقافات والخصوصيات تجرُّدَ الرموز والأرقام منها، وتساويها في دقةِ البيان عما في النفوس. غير أن اللغة جِدُّ بعيدةٍ من ذلك، وإنما هي الشعوب. كذلك فهمَها كبار الفلاسفة والمفكرين، فقال جان بول سارتر: «إنني

---

(١) اللغة والاقتصاد، ١٤٢ وما بعدها، والسياسة اللغوية، ٨ و ٤٢ و ٢٦٣.

(٢) السياسة اللغوية، ٢٦٣، وتدريس المقررات التعليمية بغير العربية في مدارس التعليم العام، ١٢٣، وإشكالية اللغة العربية في الجزائر بين مخلفات الاستعمار وضغط العولمة، ١٣١.

(٣) اللغة العربية في المنظمات الدولية، ٤٠.

(٤) اللغة العربية في مراحل الضعف والتبعية، ٢٣١ وما بعدها.

(٥) اللغات المغاربية في مواجهة التفوق الثقافي الأورومتوسطي، ٦٩.

لغتي»، أي: إنني ما في الفرنسية، من علوم، وآداب، وفنون، وتاريخ، وثقافة؛ فتلك هي هوية الفرنسي، وهو -من حيث هو امرؤ ينتمي إلى أمة وحضارة، تتميزان من غيرهما من الأمم والحضارات- ليس بأكثر مما تضم لغته من تلك، ولا له معنى وراءها؛ إذ كل شيء وراءها شركة بين البشر، ولا يميز شعبا من شعب؛ فلا يمكن أن يكون هوية. وقال فيتغنشتاين: «إن حدود لغتي هي حدود عالمي»[1]، وقال مارتن هيدغر: إن لغتي هي مسكني، وهي موطني ومستقرِّي، وهي حدود عالمي الحميم، ومعالمه وتضاريسه، ومن نوافذها، وبعيونها أنظر إلى أرجاء الكون الفسيح[2]. وهما عبارتان موجزتان، بيد أن كلتيهما ملأى بالمعاني، فلغة مارتن مسكنه؛ لأنه يسكن إليها، فيجد فيها قرارا وسكنا، وكل شيء فيها يعرفه ويألفه كما يعرف ما في مسكنه ويألفه، ففيها تراثه، وتاريخه، وثقافته، وبيئته المادية والمعنوية والاجتماعية، وتلك هي هويته، وما يجد فيها من تلك لا يجده في غيرها. ولكل لفظ منها أثر في نفسه ومكانة، ليسا لغيره من ألفاظ اللغات، وما في نفسه من المعاني لا يبلغه غيرها، وما يفهم منها لا يفهمه من غيرها، ولذلك كانت عالمه الحميم، أما غيرها من اللغات، فلا نسب شعوريا بينه وبينها، بل ربما كان فيها ما يجهل، ويجتوي، وما يخالف، ويعادي، وما يغيظه، ويستوحش منه، من أفكار، وعقائد، وثقافات، إلخ. وهي التي ترسم حدود وطنه ووطن فيتغنشتاين، فحيثما تُكُلِّمت كانت الأمة التي هما منها، فيشعران بالأنس، كما يشعران به ما داما في وطنيهما، وحيثما تنته تنته أمتهما ووطنهما، وتبدأ أمة أخرى، ووطن آخر كما قال فيخته: «إن الحدود التي تستحق أن تسمى حدودا طبيعية بين الشعوب هي التي ترسمها اللغات»[3]، وقال الشاعر الألماني، موريس آرنت: إن الوطن الألماني هو «البلاد التي ترنُّ في أرجائها أصوات اللغة الألمانية»[4]، وقال باسكال: «إن لغتي هي وطني»، وقال ألبير كامو: نعم لي وطن، إنه الفرنسية[5]. وقال أحد الكويتيين: لغتي

(١) قوائم السيرك، ٦٤.
(٢) إنقاذ اللغة إنقاذ الهوية، ١٨.
(٣) اللغة بين القومية والعالمية، ١٠٦.
(٤) السابق، ١٠٧.
(٥) عن إشكالية الهوية والتعدد اللغوي في المغرب، ٢٢.

وطني، وكونها كذلك هو الذي جعلني أشعر بأنني في بيتي إذ أتحدث إلى أهل فاس، بعد طيران ثماني ساعات، وأشعر بالغربة في طهران، حين أخرج من الفندق، على قرب طهران من الكويت، وهو الذي جعلني أصادق بسهولة نصرانيا سوريا أو مصريا، على اختلافنا في الدين، وأجد صعوبة في الحديث إلى الأفغاني، على أخوتنا فيه[1]. وقالت بهارتي موكرجي: أعتقد دوما أن وحدة اللسان أقوى من الخلافات الدينية، وبناء على ما رأيت مرارا في أسفاري الدائمة إلى بنغلاديش كنت -وما زلت- أظن أن الهنادكة والمسلمين قادرون على اجتياز الحفرة التي حُفِرت بينهم، لولا أن السياسيين الفاسدين من الفريقين يقفون في الطريق[2]. وأبان مالك حداد عن المعنى الذي أراد مارتن هيدغر، لكن بضده، فقال: «أشعر أني منفي بأفكاري وأحاسيسي العربية في ثقافة اللغة الفرنسية»[3]؛ لأنه لا يجد فيها ما يجد مارتن في الألمانية، وما يجد كل امرئ في لغته، مما يأنس به وينتمي إليه. والمنفَى هو ما يُحمل المرء على استيطانه حملا، ويُخرَج إليه من وطنه كرها، كما فعل الفرنسيون بمالك حداد وأمثاله من الجزائريين: أخرجوهم من لغتهم العربية على كُرْه منهم، إذ حرَّموا عليهم تعلمها، وعدوها لغة أجنبية في الجزائر[4]، إلى الفرنسية التي لا يجدون فيها ما يجد العربي في العربية من «مناغاة الأم، وأصداء الصخب في مدارج الصبا، وآيات التنزيل بلسان عربي، وجوامع الكلم، تجري على لسان النبي العربي -صلى الله عليه وسلم-، وسطور العهدة العمرية، وذكرى أطلال بقرة، وأناشيد التوباذ، ورباط سيف الدولة على الثغور، ونشيد المتنبي المسافر من طبرية إلى مصر، وإيثار أبي العلاء:

ولو أني حُبِيتُ الخلد فرْدًا   لما أحببتُ في الخلد انفرادا
فلا نزلتْ عليَّ ولا بأرضي   سحائبُ ليس تنتظم البلادا

وخريطةَ الإدريسي، ومفردات ابن البيطار، وإيقاعَ الموسيقى الكبير للفارابي، ونبضَ الدورة الدموية، لابن النفَيس، ومعادلاتِ الخوارزمي، وطبَّ ابن سينا،

---

(١) رسالة إلى صديق حول مستقبل اللغة العربية، صحيفة القبس، يوم ١٩/ ٤/ ٢٠١٢.

(٢) طريق العودة، ١٩.

(٣) مستقبل اللغة العربية بين محاربة الأعداء وإرادة السماء، ١٠١، والتعريب في الجزائر، ٢٣٤.

(٤) سياسة التسلط الاستعماري، ٧٩.

وشروحَ الفارابي، لأرسطو، وعرار نجد، وشجا عرار، ونشيد الزركلي:

الأهــل أهلــي والديــارُ ديــاري وشــعارُ وادي النيّريــن شــعاري
مــا كان مــن ألــم بجلّــق نــازلٍ واري الزنــاد فزنْــدُه بــي واري

ونشيد الأمة:

بــــلادُ العُـــرْب أوطانــــي مـــــن الشــــام لبُغْــــدان
ومـــن نَجْـــدٍ إلــى يَمَـــنٍ إلـــى مصـــر فتِطـــوان»[1]

ومواقف النفَّري، وأشواق المتيمين بالجناب النبوي، وسبحات أرواح الصوفيين، وصبابة العذريين، وحنين المغتربين من النجديين، ورجْع حوار ظراف الحجازيين، ورحلات ابن شهيد وابن القارح إلى بلاد الجن والدار الآخرة، ومغامرات أبي الفتح الإسكندري، وحيل أبي زيد السروجي، إلخ، كما أن اليونانيين لا يأنسون بلغة لا يجدون فيها «الإلياذة»، ولا الإيطاليون بلغة لا يجدون فيها «الكوميديا الإلهية»، ولا الإسبان بلغة لا يجدون فيها «دون كيخوتي»، ولا الألمان بلغة لا يجدون فيها «فاوست»، ولا الإنجليز بلغة لا يجدون فيها «هاملت»[2].

ولما كانت اللغة هويةً، كان دأب الاستعمار أن يبعْث ما في مستعمراته من اللغات، ويصنع لها هجاء يكتبها به، إن لم يكن لها هجاء، أو يكتبها بالحرف اللاتيني، ويستخرج قواعدها، ويعلِّمها أهلها، ويعلمهم بها، ويستعملها في الإدارة، ويحيي ما درس من تراثها، ليعلقهم به، ويشعرهم بالتميز ممن كانوا يتحدون بهم. فإن لم تكن متعددة اللغات باعد بين لهجاتها حتى يصيِّرها لغات، يستحدث بها هويات، يشتِّت بها شمل الشعوب، ليستعين بتشتيتها على إضعافها، فالسيطرة عليها؛ إذ قد علم أن تعدد اللغات يلزم منه تعدد الهويات، وإذا اختلفت الأهواء والهويات، تعذَّر الاجتماع على شيء، فيقدِّم لغته على أنها مخرجٌ من الخلاف، والحلُّ الذي يلتقي عليه المتنازعون، فإذا اصطنعوها، انتقلت إليهم ثقافتها، وبانتقالها يكون التدمير المنتظم لثقافاتهم، وقتل لغاتهم، وسلخهم من هوياتهم؛ فيسهل عليه ما كان يعسر من استلحاقهم واستتباعهم، ويسوِّغ لهم

---

(١) الثنائيات في قضايا اللغة العربية، ٢٣٩.
(٢) انظر: لسان آدم، ٧٣.

ذلك بأن لغته لغة الحداثة[1]، والعلم، والمال، والجاه، والمناصب، بعكس اللغات الوطنية، فإنها لغات الجهل والتخلف، ويُلصق بها كل ما ينفِّر منها أهلها، ويحقِّرها إليهم. واللغة أهم وسائل تلقين الثقافة، وإشعارِ الشعوب بالوحدة والتميز، فإن قُضِي عليها، انحلَّت عصبيتها، وتقطَّع ما بينها، وتهيأت للانحلال في غيرها؛ فإن من تبدل بلغته، كان انتماؤه إلى ثقافة اللغة التي يعْرف، ومن انتمى إلى غير ثقافته، غدا إلى مشاكلة أهلها أدنى منه إلى خلافهم ومنازعتهم؛ لأنه ما يعرف ما يُشعره بالتميز منهم، فيُسْلِس لهم القياد، وتذهب الأنفة من التبعية، ويرضى بما يُنزَل به من الهوان، ويعدُّه كمالا؛ لأنه اتحاد بالمثل الأعلى، بالغا ما بلغ من احتقاره، والإجحاف به، والحيف عليه، والعداوة لوطنه[2]، ويكون الاندماج فيهم أقصى ما يريد، ولا يرى لوجوده معنى دونهم، ويحتقر نفسه بقدر ما يعظمهم؛ فتتعطل طاقاته الإبداعية، ويموت فيه روح المقاومة، ويرضى بالاستهلاك؛ فيفتح الأسواق لبضاعتهم، ويغض الطرف عما ينهبون من أرزاقه. ومَنْ كان الاندماج في المستعمر أقصى ما يرجو لم يكن ليفكر في نضاله والتحرر منه، كما قال جان بول سارتر: إن على المستعمَرة أن تناضل نفسها من أجل أن تقوى على نضالنا، أو قل إن هذين النضالين (نضال نفسها ونضالنا) ليسا إلا نضالا واحدا[3]. أي إن الاستعمار جعَل المستعمَرين يحتلُّون أنفسهم؛ إذ احتلتهم ثقافته، فاستعبدتهم، فغدت التبعية له والاتحاد به، والاندماج فيه، ونسيان كل شيء من خصوصيتهم غايةَ ما يرجون، ومن ثَمَّ جعلَ جان بول سارتر انتصارَهم على أنفسهم، بالتحرر من العبودية المختارة له، شرطَ انتصارهم عليه. وهذا من أسباب أن اللغات الأجنبية انتشرت بعد رحيل الاستعمار أضعاف ما انتشرت في أيامه، وأن العرب الذين اتخذوا العربية رمز المقاومة أيام الاستعمار جعلوها عنوان التخلف بعد الاستقلال، كأن الدماء إنما سالت لتوطين لغة

---

(١) المسألة الثقافية في الوطن العربي، ٨٦.

(٢) من طبْع الاستعمار احتقار الشعوب، وتوجيهها وجهة، تجعلها خدمًا له، وتجعل أرضها نهبا له، أما التعليم وبناء المدارس والتعليم، فإنما يريد به استتباعها وتحقير نفوسها وثقافتها إليها (انظر: الهيمنة اللغوية، ١٧٤)، هذا إلى ما يريد من صناعة الأعوان الذين يدير بهم الأرض.

(٣) معذبو الأرض، ٤.

المستعمر وثقافته[١]، فجدَّت جزائر «الاستقلال» في نشر الفرنسية، والتمكين لها، وعملت من ذلك في أقلَّ من ثلث قرن، ما لم تعمل فرنسة في قرن وثلث، وكان الفرق بين العملين -إلى ذلك- عظيما جدا[٢]، حتى قال مؤرخ الجزائر، أبو القاسم سعد الله -رحمه الله-: نحن الآن -مع «ثورتنا المظفرة- مستقلون، ولكن نكاد نكون بلا هوية، وقد فرْنسنا أنفسنا أكثر مما فرْنَسَنا الفرنسيون، وفي كل يوم نزداد ارتماء في أحضان فرنسة والفرنكفونية، وربما كنا أكثر اعتزازا بالإسلام والعروبة والجزائر أيام الاستعمار منا أيام الاستقلال»[٣]. ومن رأوا حماسة المغاربة للعربية وتسابقهم إلى الكتابة بها، في بدايات الاستقلال، يعجبون للتراجع عنها، وعدم المبالاة بالوطنية والهوية، وما يتسم به بعضهم من عداء خفي أو جلي للعربية[٤]. مع أن الاستعمار ما صنع بالشعوب التي استعمر إلا ما يوجب مقته ومقت لغته، فقد كان -فوق كل ما صنع بها- يحتقرها، وكان شارل ديغول وسياسته في معاملتها مثالا واضحا لذلك، فقد كان لا يبالي أن يحط من قدر الشعوب التي تحتلها فرنسة، ولا يراها أكثر من تابعة لها، وخادمة وفية لعقائدها واقتصادها وجيشها، والبشر -في نظره- لا يمكنهم أن يقرروا أمرا مهما دون فرنسة، ومن غير اشتراكها ستكون حياة سكان الأرض مغامرة[٥]. ويسمون الشعوب المستعمرة «الأهالي»، وهي تسمية تدل على غاية الاحتقار، ويخصون أهل المغرب العربي بالنصيب الأوفى من ذلك، ويعاملونهم أسوأ معاملة، فقد كانوا يساوون التونسيين بالهباء[٦]، وهو تنقُّص، يتضمن امتداح الفرنسيين، ويعدُّهم رسلَ الحضارة والتقدم، ومخلِّصي المستعمرات من الهمجية والتخلف. ويسمون أعداءهم الألمان شلوحا؛ لأن الشلوح عندهم رمز الضعة والتوحش. وقال جاك بيرك: اتخذنا البرابر حظيرة وطنية، واتخذنا القبائل أشجارَ السِّكُويا العتيقة التي ينبغي الحفاظ عليها[٧]. وكانوا من احتقارهم العربية يسمونها

---

(١) اللغة العربية هويتنا القومية، ١٩.

(٢) الهويات والتعددية اللغوية، ٣٧٧، اللغة العربية هويتنا القومية، (نقلا عن: التعريب والخلفية السياسية، ١٠٨).

(٣) حديث صريح مع الدكتور أبو القاسم سعد الله، ١٢٢ (نقلا عن: اللغة العربية في مراحل الضعف والتبعية، ٥٥).

(٤) كلمة افتتاح الندوة، ٢١.

(٥) الحركة الديغولية في الجزائر، ٥١.

(٦) البورقيبة والهوية، ٣٩.

(٧) حوار مع صديق أمازيغي، ٢٤٣.

رطانة، ويعبرون عن ذلك بقولهم لمن يحتقرون كلامه: Qu'est-ceque c'est que ce charabia أي: ما هذا الخليط العربي؟ (أي ما هذه الرطانة)، ويقولون في احتقار الزنج: ce petit nègre، أي: هذا الزنجي الصغير، أي الحقير[1]. وقد تأثرت الشعوب بما كانت توحي إليها من احتقار أنفسها وإجلال فرنسة، فكان رأيها في أنفسها كرأي الفرنسيين فيها، ورأيها في فرنسة والفرنسية كرأي الفرنسيين فيهما، وكان من أبناء المستعمرات من يكاد يقدس الفرنسيين، ويعتقد فيهم فوق ما يعتقدون في أنفسهم، وله من الولع بلغتهم، واحتقار لغته ما هو معروف في متفرنسي المغرب العربي وإفريقية. وكان ما تقتضيه الفطرة أن يكره المرء من يكرهه، ويحتقر من يحتقره، أو ينفر منه -في الأقل-؛ فقد جبلت النفوس على بغض من أساء إليها، كما جبلت على حب من أحسن إليها، غير أن العلاقة بين المستعمرين الأوربيين بعد جلائهم ومستعمراتهم كثيرا ما كانت على عكس ذلك، فقد تعلقت بهم تعلقا، ينافي العقل والمروءة. ولولا ذلك لَلَحِقت بالمستعمرين لغاتهم وثقافاتهم، أو جَلَت قبل جلائهم، لكنها نالت من التمكن والانتشار بعده ما لم تنل قبله. وكان اصطناع الفرنسية لغة رسمية ظاهرة تتفق عليها مستعمَرات فرنسة كلها، كما قال ماتيني (Mateene)، مدير الفريق اللغوي في إفريقية: إن لغات الاستعمار هي المفضَّلة في إفريقية أكثر مما كانت في عهد الاستعمار[2]. وعلل روبرت فليبسون ذلك بأن الذين خَلَفُوا الاستعمار في الحكم كانت تربطهم بالدول المستعمِرة روابط قوية، فقد تعلَّم معظمهم فيها، وبلغتها[3]. غير أن الأمر بدأ قبل الاستقلال، وقبل أن يخلف الاستعمارَ مَن خلفه في الحكم، وإنما هو أثر من آثار لغة المستعمر، وما تحمل من ثقافة، ودعاية، وتعليمه المبني على تمجيده، وتعظيمه في عيون أبناء المستعمرات، على وجه حقَّر إليهم أنفسهم، واستعبد له قلوبهم؛ فنزعوا إلى مماثلته، والتوق إلى الاندماج فيه، على الوجه الذي أبان عنه جان بول سارتر: كان الخبراء يقولون لنا: إن كان في تأوُّهاتهم (الشعوب المستعمَرة) طموح إلى شيء، فإلى

(١) حرب اللغات، ٦٦.

(٢) الهيمنة اللغوية، ٤١ وما بعدها.

(٣) السابق، ٧٩.

الانضمام إلى فرنسة[1]. أي إن بقلوبهم عبودية مطلقة للفرنسيين، وأقصى ما يتوقون إليه أن ينضموا إليها، وتعاملهم كما تعامل الفرنسيين، وهو أمر، لا مكان له في سياسة فرنسة، وإلا كانت تهدم نظامها الذي يقوم على التسخير، وإنما يكفي أن تدع هذه الجزرة ماثلة أمام أعينهم؛ حتى يركضوا، أما أن يثوروا، فذلك ما كانت مطمئنة إلى أنه لن يكون؛ فأيُّ عاقل من المستعمَرين يمكن أن يُقْدِم على قتل أبناء أوربة الحسان، وغاية ما يرجو في الحياة أن ينضم إليهم؟[2].

ويصدِّق ذلك ما كتب فرحات عباس عام ١٩٣٦ -في مقاله: «فرنسة هي أنا»-: لو عرفتُ الأمة الجزائرية، لكنت وطنيا، إني لا أموت من أجل الوطن الجزائري؛ فلا وجود له. لقد سألت التاريخ، وسألت الأحياء والأموات، وبحثتُ في كل مكان، حتى المقابر، فلم أجد من يعرفه. ولن يستقيم بناءٌ، يشاد على أساس ضعيف، لقد اتخذنا الخرافات وراءنا ظهريا؛ لنربطْ مستقبلنا ألبتة بمستقبل المشروع الفرنسي[3]. وتبعته مقالات أخرى تشكك في الوجود الجزائري[4].

وقولُ محمد ولد الشيخ: لقد صار من الواضح أن البلاد استرجعت السلم والعيشة الهنيئة في الحكم الفرنسي، فليس في الجزائر من لا يعرف للوطن الأم (فرنسة) فضله عليه، بعد إخراجه من الظلمات إلى النور، والحياة والسعادة[5].

وكان مقال فرحات عباس ردًّا على مقال، كتبته صحيفة «Le Temps» (الزمن)، ذمَّت فيه الإسلام والمسلمين[6]، وكان المتوقع أن يردَّ بعكس ما ردَّ به. وكان أقصى ما يطالب به بعد ذلك فرْنسة الجزائر ودمجها في فرَنسة، ومساواة الجزائريين بالفرنسيين في كل شيء[7]. وكان هذا هو دعوى الفرنسيين، وما يريدون، ولا سيما شارل ديغول، وغير أن قوله هذا كان من أسباب كراهية شارل ديغول إياه، فقد سئل: لم لا تحترم فرحات عباس، وهو يشبهك، فقد كنتَ رئيس حكومة فرنسة الحرة في المنفى، في العقد الخامس، وهو اليوم رئيس حكومة

---

(١) معذبو الأرض، ٣.

(٢) السابق، ٣.

(٣) انظر: الجزائر في التاريخ، ٧٠٠، والعفن، ٢٧، وضباط فرنسة في المغرب العربي، ٣٣.

(٤) ضباط فرنسا في المغرب العربي، ٣٣.

(٥) الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية، ٢٠.

(٦) انظر: العفن، ١/ ٢٧.

(٧) مصير وحدة الجزائر، ٥٥ و ٥٨.

الجزائر الحرة في المنفى؟ فقال: ثلاث، تجعل البون بيني وبينه كبيرا: لم أتزوّج عدوَّة (ألمانيَّة)، ولم أُخاطب شعبي بلغة عدوِّي (الألمانية)، ولم أفتّش عن هويتي الوطنية في المقابر[1]. يعني أن فرحات عباس تزوج فرنسية، وكان يتكلم بالفرنسية، ولا يعرف العربية، وأنه قال إنه زار المقابر، يفتش عن الجزائر، فلم يجدها. وما قال شارل ديغول هو فحوى قول جان بول سارتر: ولا مجال لضمهم، وإلا كنا نهدم النظام الذي يقوم على التسخير. ومن علم هذا لم يَعْجَب من أن يحبَّ رواد الحرية في إفريقية، كجومو كينياتا، وكوامي نكروما، لغة المستعمر، ويدافعوا عنها، بعد أن بلغوا ما يريدون من «الاستقلال» الذي ناضلوا من أجله؛ فقد ترك الاستعمار «وراءه انبهارا، ما زال يُغَشِّي عيون المناضلين»[2]؛ لأن ثقافته التي تسربت إليهم مما تعلموا من لغته، احتلت قلوبهم؛ فاحتقروا لغتهم كما احتقروا أنفسهم، وغدا اصطناع لغته من أهم ما يتوسلون به إلى مماثلته، ومماثلته أقصى ما يطمحون إليه. ولم يدرك معظم ساسة إفريقية أن الثقافة هي الأمر العاجل الأكثر أهمية للاستقلال، ولا فهموا أنه لا نفع لبلد في أن يحصل على علَم ونشيد وطني ومقعد في الأمم المتحدة، إذا لم يكن له ضمير وطني، ولا ضميرَ وطنيًّا بلا ثقافة وطنية[3]. وقد أورثت سياسة الاستعمار الثقافيةُ أبناءَ المستعمرات كثيرا مما في حياتهم من شذوذ، كاستهلاك الثقافات، وتعلُّق اللغات الأجنبية، والانسلاخ من كل أصيل، وتعشُّقِ كل دخيل، والحرص على موافقة من لا يربطهم به رابط، بل قد تكون علاقته بهم مدعاة للازورار عنه، والحرص على مباينته، في كل أمر يمكن أن يبايَن فيه؛ لأن مشاكلته منقصة، كمشاكلة العرب مستعمريهم في كل شيء، وعدم تميزهم منهم، كما لا يتميز بعض ساسة فلسطين من ساسة الإنجليز واليهود، ولا بعض ساسة الجزائر من ساسة فرنسة، على ما تقتضي الفطرة من كراهيتهم، والنفور منهم، والحرص على مباينتهم. وهي ثقافة كان بعض العلماء والعقلاء يحرصون على استنبات ضدها في الشعوب الإسلامية خوفا عليها أن تتأثر بدعاية الاستعمار وسياسته في

(١) خمس عشرة سنة من النضال، ٣٠٧.
(٢) لغة الطفل العربي في ظل العولمة، ٦٧٠.
(٣) التعريب في الجزائر، ١٩.

الاستلحاق، وصونا لهويتها أن تذوب في العدو، و«الحب والبغض سلاحان لازمان في الحياة، ولا بقاء لأمة بدونهما، إذا استعملتهما في محلهما»، فكان الشيخ عبد الحميد بن باديس يقول: لو وُضع لحم جزائري ولحم فرنسي في قِدْر لطار أحدهما وبقي الآخر[1]، ويقول الشيخ البشير الإبراهيمي: «لو أمرتني فرنسة أن أقول لا إله إلا الله ما قلتها»، يخالفها فيما تريد، وإن كان هو ما يعتقد خوفا أن تستميله، أو تنسيه ما فعلت به، وما تريد به وبشعبه وبلده. وهذا هو معنى الولاء والبراء، وغايتهما: الحفاظ على تماسك الأمة، ومعرفة مَنْ تصادق ومن تعادي، ومن يصادقها ومن يعاديها، من أجل ألا تُخدَع عن حقيقة العدو، ولا تنصرف عن أخوة الأخ، مهما يكن بينه وبين أخيه من خلاف. وإذا فقدتهما أمة، تساوى عندها العدو والصديق، فوالت من يعاديها، وعادت من يواليها، وزالت الحدود بين الأضداد، كما يُرَى اليوم في تهالك المسلمين على الغرب، وحرص بعضهم على مصادقته، ونسيان ماضيه الوحشي، وخططه القائمة على تدميرهم، وأخْذ طرق التقدم عليهم، بكل وسيلة، واتخاذهم عدوه الأول. ولو أن العلاقات بين الشعوب العربية والشعوب الغربية ولغاتها في هذا العصر بنيت على ما تقتضي الطبيعة البشرية، لكان الفرنسيون أبغض الشعوب إلى الجزائريين، والفرنسية أبغض اللغات إليهم، وأبغض الشعوب إلى الفلسطينيين الإنجليز، والإنجليزية أبغض اللغات إليهم، والإسبان أبغض الشعوب إلى أهل الريف بالمغرب الأقصى، والإسبانية أبغض اللغات إليهم، لكن علاقات الشعوب العربية بالشعوب الغربية مبنية على خلاف ما تقتضي الطبيعة، فأحب الشعوب إلى الجزائريين الفرنسيون، وأحب اللغات إليهم الفرنسية، وأحب الشعوب إلى الفلسطينيين الإنجليز، وأحب اللغات الإنجليزية، وأحب الشعوب إلى أهل الريف الإسبان، وأحب اللغات إليهم الإسبانية، ولحبهم الإسبانية كانت ثوراتهم وانتفاضاتهم في الأعوام ١٩٥٧، و١٩٥٨، ١٩٥٩، و١٩٦٠؛ أن فُرِضت عليهم الفرنسية بدلا من الإسبانية[2]. ولم يلق الجزائريون والفلسطينيون والريفيون من شعب ما لقوا من الفرنسيين والإنجليز والإسبان.

---

(١) مصير وحدة الجزائر، ٧٦.

(٢) البربر في المغرب العربي، ١٦ وما بعدها.

الشعوب وتعظيم الهوية

والذين تبينوا علاقة اللغة بالهوية، من الشعوب الناضجة، والفلاسفة، والمفكرين، والمصلحين، والساسة الوطنيين، ينظرون إلى لغاتهم نظرة تباينُ نظرة الشعوب غير الناضجة إلى لغاتها، فهم يعدونها هويتهم، فيعتزون بها، ويدفعون عنها، ويجتهدون في صونها، والتمكين لها، كما يظهر في تشريعهم، وتراثهم، وأقوالهم، فقد نصَّ قانون أصدره الفرنسيون عام ١٧٩٤ م على أن «الفرنسية هي الأمة الفرنسية»، وأسس الرئيس الفرنسي جورج بوميدو اللجنة العليا للفرنسية عام ١٩٦٦ م، فلما حكم فرانسوا ميتران زاد في ميزانيتها، وجعل رياستها إلى صديقه ستيليو فرانجيس، وكان معروفا بحب الفرنسية، والصلابة في الدفاع عنها، حتى سَمَّته مجلة «لوبوان» «عاشق الفرنسية»، فجعل في كل وزارة نائبا عن اللجنة لمراقبة استعمال الفرنسية فيها، ومنْعِ استعمال الكلمات الأجنبية. وأمرت اللجنة منذ تأسيسها أجهزة الإعلام والاصطلاح بتطهير الفرنسية من المفردات والأساليب الإنجليزية، فجعلت -مثلا- «كازو دوك» مكان «بايب لاين» (الأنبوب)، ومكان «ويك إند» (عطلة الأسبوع) «فان دي سومين»[١]. ومِن عَملها أو عَمل غيرها استصدار القانون المعروف بقانون إيفان (Lois Evin)، ويحظر الإعلان بغير الفرنسية[٢]. وأسست جمعيةً، تُدعَى «الجمعية العامة لمستعملي الفرنسية»، سَمَّتها مجلة «لوبوان» القوة الضاربة والرادعة للعدوان الخارجي، أي العدوان على الفرنسية[٣]. وهي تعمل كما تعمل منظمة حماية المستهلك، وتعرض الإساءة إلى الفرنسية على المدعي العام[٤]. وسنَّت عقوبةً لمن يستعمل غير الفرنسية في الوثائق والمستندات

---

(١) التعريب في الجزائر، ٢٢ وما بعدها.

(٢) الممارسات اللغوية في الخطاب الإشهاري الجزائري، ١٠٨.

(٣) التعريب في الجزائر: ، ٢٣.

(٤) اللغة والاقتصاد، ١٦٣ وما بعدها.

والإعلانات المسموعة، والمرئية، ومكاتبات الشركات العاملة في فرنسة كافة، ولا سيما المتاجر، والأفلام الدعائية التي تُبثُّ في الإذاعة والتلفاز، وجعلت عقوبة ذلك السجن، أو ألفي دولار غرامة[1]. وبهذا القانون وما شاكله قاضت إلى عام ١٩٨٢ عشر مؤسسات لاستعمالها كلمات وعبارات إنجليزية في نتاجها أو مجال تخصصها، منها شركة سبيته، لَمَّا سَمَّت نوعا من الدخان، هي صنعته، «نيوز»، وهي كلمة إنجليزية، واستعملت «فلتر» في إعلاناتها، فصدر الحكم عليها بتهمة الاعتداء على الفرنسية في عقر دارها، فردَّ مديرها بأن هذا الدخان يصدَّر إلى السوق الأمريكية، وتسميته بكلمة إنجليزية ترغِّب فيه، فردَّ عليه رئيس الجمعية، ميشيل فيشيه، بأن من الفاجع أن شركة، تملكها الدولة تتذرع إلى التخلي عن لغتها، واستعمال لغة منافسيها بحجج تجارية! أما «فلتر» فردَّت الشركة بأنها مشتركة بين الفرنسية والإنجليزية، لكن القاضي قال إن الشركة كتبتها Filter، كما تكتب في الإنجليزية، ولو أرادتها فرنسية لكتبتها Filtre، فكذلك تكتب في الفرنسية[2]. وكانت غرامة «الفلتر» سبعة آلاف وخمسمائة فرنك[3]. وفي فبراير عام ١٩٨٤ م وضعت شرطة بانتين على مطاعم فرانس كويك ٣٥٠٠ فرنك غرامةً؛ لأن أسماءَ أطعمتها ضمَّت أطعمةً بأسماء إنجليزية، هي: soft drinks وIrish coffee وBig Cheese Ë. Hamburger، ولم تسمها بأسماء فرنسية، كما يقضي قانون اللغة الفرنسية لعام ١٩٧٥ م[4]. وبلغ انتهاك قوانين الفرنسية بين عامي ١٩٨٢ و١٩٨٤، ٧٠٤ انتهاكات، عوقبت ٢١٦ منها بغرامات[5]. وفي عام ١٩٩٤ أصدرت الحكومة أمرا، يوجب التخلص من كل ما كان مكتوبا بغير الفرنسية، وكان ذلك بمناسبة الاحتفال بمائتي عام على صدور قانون تعميم الفرنسية، واستند الأمر إلى مادة جزائية، تنص على وجوب التكلم بالفرنسية، وأنَّ كل من خالف هذا الأمر أو القانون، أو كتب وثيقة بغيرها يفصل

(١) المصادر الحقيقية لضعف لغتنا العربية في مدارسنا الثانوية.
(٢) التعريب في الجزائر، ٢٣ وما بعدها.
(٣) اللغة والاقتصاد، ١٦٣ وما بعدها.
(٤) الموضع السابق.
(٥) الموضع السابق.

من عمله، ويسجن ستة أشهر[١]. وحظرت وزارة الثقافة استعمال « e- mail » في مؤسساتها الحكومية كلها، والوثائق الرسمية والمنشورات، والشابكة، وأمرت أن تستبدل بها courriel، وأن يستعمل متصفحو الشابكة couriel électronique بدلا من e-mail، وأُعْلِنَ الحظر في الجريدة الرسمية في ٢٠ يونيو عام ٢٠٠٣ م[٢]. ولما استعمل معهد باستور بباريس المختصرات والمصطلحات الإنجليزية، ونُشِرَ ذلك الخبر ثارت ثائرة العلماء والكتاب والصحفيين والسياسيين في فرنسة، وانتفضت وسائل الإعلام للدفاع عن الفرنسية وصدرت مجلة «يوم فرنسة» (Jour du France)، وقد كتب على غلافها: «اللغة الفرنسية في خطر»، «الجرثومة الأنجلوفونية في معهد باستور: يا للفضيحة». وقال ألبير جالكوار (A. Djalkouar)، عالم الأجنة: لقد ساءتني جدا هذه الفضيحة، لقد صارت الفرنسية عند هؤلاء لسان فئة منحطة من الشعب[٣]. وأشارت الصحف الفرنسية إلى خطر الإنجليزية الذي يهدد الفرنسية، ولا سيما بعد انتهاء الحرب الباردة، وقوة العلاقة بينها وبين أمريكة. وقال إيتياميل إن الروس أيضا والصينيين يخافون تأثير الإنجليزية الضار، وذكر الكلمات الإنجليزية الكثيرة التي طغت على الفرنسية، وقال إن الأمريكيين لا يكادون يتركون فرصة لتدمير الفرنسية والثقافة الفرنسية إلا اهتبلوها، وإنهم يبلغون ما يريدون بعدم مبالاة الفرنسيين الغريبة، واستسلامهم الزائد. وقال إن الكتَّاب ورجال التعليم الفرنسيين يقولون: «لا يمكن أن نسمح بخضوع فكرنا للولايات المتحدة»، وقال: لا فرنسة دون الفرنسية، وأقسم يمينا مغلظة أن الفرنسيين ينبغي أن يُلْزَموا ألا يتركوا لغتهم نهبا لأصدقاء كاذبين؛ ففي ذلك خطر عليهم[٤].

ولما تكلم إيرنست أنطوان سيلييه باسم التجار الأوروبيين في قمة الاتحاد الأوروبي ببروكسل في ٢٥/ ٣/ ٢٠٠٦ بالإنجليزية، قاطعه جاك شيراك بعد أول جملة، قائلا: لماذا -بربك- تتكلم بالإنجليزية؟ فردَّ عليه: «لأنها لغة التجارة»، فخرج هو ووزيرا خارجيته وماليته من المؤتمر مغاضِبينَ؛ أنْ عدل فرنسي عن

---

(١) كتاب الماء، ٨٣٤.

(٢) جريدة الصحراء، ١٨ يوليو ٢٠٠٣ (نقلا عن: اللغة العربية وهيمنة لغة التكنولوجيا ٢٦٦).

(٣) اللغة العربية في خطر: عدم استعمال المختصرات والرموز العربية، ١٤٨.

(٤) تعريب العلوم في ضوء العبرنة الإسرائيلية، ٩١ وما بعدها.

الفرنسية إلى الإنجليزية، وأنْ يكون ذلك بحضرة رئيس فرنسة، كأنما يُشهده على استهانته بها، وهي التي يعدُّها القانون الفرنسي «هي الأمة الفرنسية». فلما سأله الصحفيون: ما أخرجك؟ قال: إنما راعني أن أرى فرنسيا، يتكلم بغير الفرنسية؛ فخرجتُ؛ لكيلا أستمع إلى امرئ لا يحترم لغته. ولما التقى جاك وجورج بوش، كان جاك يكلمه بالفرنسية، وكان يصحبهما -حتى حين كانا يتعشيان- مترجمان، يترجمان بينهما، مع أن جاك يجيد الإنجليزية، وقد درسها في أمريكة، غير أنه عدل عن التكلم بها مذ عاد إلى فرنسة[١]. وحضر مرة حوارا بالإنجليزية في الأمم المتحدة، فكان يتظاهر بأنه لا يفهم بعض الأسئلة التي يُسْألها، فكان يترجمها له توني بلير، رئيس وزراء بريطانية يومئذ، وكان يعرف الفرنسية[٢]. فقد كان جاك يعدُّ التكلم بالفرنسية في المقامات الرسمية من مقتضيات السيادة الوطنية، هذا إلى خشيته الصحافة الفرنسية؛ فمن دأبها أن تشن الغارة على من يعدل عن الفرنسية إلى غيرها، أو يخطئ فيها من ساسة فرنسة؛ لأنهم وكلاء الشعب، والناطقون بلسانه، فلا يُقبَل منهم ما يدل على الاستهانة به، أو بشيء من رموزه الثقافية، كاللغة. فقد تكلم جاك مرة بجملة إنجليزية، وكان في زيارة لأمريكة، فانتقدت عليه ذلك انتقادا شديدا[٣]. وثار الطلاب الفرنسيون في وجه وزير الثقافة في أثناء خطبة له في السوربون؛ لأنه نطق بكلمة إنجليزية عفواً، وظلوا يصرخون مقاطعين حتى وقف واعتذر[٤]. وانتقدت الصحافة على وزيرة في حكومة ساركوزي؛ أن جمعت banal على banaux؛ فشهَّرت بها، وقالت إنها أساءت إلى الفرنسيين بالخطأ في لغتهم، حتى أقرَّت بخطئها، وأصلحته في التلفزة، واعتذرت مما فعلت[٥].

ومَن خاطب فرنسيا بغير الفرنسية في فرنسة، لم يجبه، ولو علم أنه يريد أن يسأله عن أمر مهم، ويروي المهاجرون في ذلك قصصا كثيرة[٦]. ويذكر

---

(١) انظر: من الأديب مالك حداد إلى الأمير خالد الفيصل، و«لا يا معالي رئيس الحكومة، إنما عزتنا في لغتنا».
(٢) العربية وسؤال الهوية.
(٣) مصير وحدة الجزائر، ١٩٢.
(٤) اللغة العربية وهوية الأمة في مؤسسات التعليم العالي في الأردن.
(٥) في الأمن اللغوي، ٤٧.
(٦) انظر: فطرة الدفاع عن اللغة الأم بين التفعيل والتعطيل، ١٦٩، ولغة كل قوم روح ثقافتهم، ٨٤ وما بعدها.

أمين المعلوف أنهم يعدون العولمة -مذ سنين مصيبة، ولا تعجبهم «القرية الكونية» كثيرا، وأنهم اليوم أقل ولعًا بالشابكة، وبآخر ما جدّ في الاتصالات؛ لأن العولمة -عندهم- مرادفة للتمريك، ويخشون على مكانة فرنسة في العالم الذي يسارع إلى «التجانس»، وعلى لغتها وثقافتها و«إشعاعها»، ويمتعضون من افتتاح مطعم للأكلات الخفيفة في حيِّهم، وهم حانقون على هوليوود، وCNN، وديزني، وميكروسوفت، ويطاردون في الصحف كل صيغة، تُشَمُّ فيها رائحة الإنجليزية[1]. ويقول باسكاله جوتشيل وإيمانويله لوابيه إن في فرنسة بعد عام ١٩٤٥ -بسبب الحرب الباردة- نزعة سياسية وثقافية شديدة مضادة لأمريكة[2].

وذكر المرحوم، الدكتور محمد عابد الجابري أنه كان مرة في إسبانية، فطلب مكالمة هاتفية من بدالة القسم الدولي، وكان يتكلم بالفرنسية، فقالت له: أنت الآن في إسبانية، وعليك أن تتكلم بالإسبانية، ثم أغلقت الخط[3]. وما كان الألمان دون الفرنسيين والإسبان في ذلك، بل ربما كانوا أشدَّ منهم، فإنهم يجعلون إتقان الألمانية والنجاح فيها شرط الحصول على الشهادات، كما يبدو من قصة شهيرة لطالبة ألمانية، نجحت بامتياز في امتحان مقررات الثانوية العامة كلها غير الألمانية، فحكمت لجنة الامتحان برسوبها، فشكتها إلى محكمة فرانكفورت، فحكمت برسوبها أيضا، فأخذت تتدرج في المحاكم، حتى انتهت إلى المحكمة الاتحادية، وهي المحكمة العليا بألمانية، فحكمت برسوبها أيضا، وقالت إن الألمانية هي لسان الفكر الألماني، وترجمان الهوية؛ فهي أهم مقرر يدرَّس؛ فالضعف فيها لا يعوِّضه النجاح بامتياز في سائر المقررات، وكان نص الحكم: لا شهادة لضعيف في الألمانية[4]. ويجعلون مُعامِلها أعلى معامل في المقررات الدراسية[5]. ولا يكون المرء مدير فرع مصرف في ألمانية حتى يوافق عليه المكتب الاتحادي المشرف على الأعمال المصرفية في برلين، وهو يشترط في طالبي الأعمال غير الألمان أن يكونوا عارفين بالألمانية، مع أن

---

(١) الهويات القاتلة، ٦٦ وما بعدها.
(٢) تاريخ فرنسا الثقافي، ٣٠٢.
(٣) المسألة الثقافية في الوطن العربي، ٢٧٦.
(٤) إنية وأصالة، ٧٢.
(٥) في الأمن اللغوي، ٤٧.

عملهم مقصور على الإشراف على أعمال المصارف وحدها. ومع عدم اقتناع الإدارة بأن إجادة الألمانية شديدة الأهمية لرياسة بنك فرعي في ألمانية، يجب عليها أن تراعي هذا الشرط[1].

وأصدر المجلس القومي لمعلمي الإنجليزية في بريطانية قراراً بأنّ على كل معلم أن يكون معلماً للغة الرسمية أولُ؛ لأن تعليم اللغة واجب جماعي، والمعلمون كلهم، كائنةً ما كانت المقررات التي يدرِّسون، ينبغي أن يعلّموا منها اللغة الرسمية[2]. وفي كتاب «مرشد المعلم»، وهو اقتراحات للمعلمين، تصدرها وزارة التربية البريطانية لتكون منهجا للتدريس وطرقه: من البديهي أن مساعدة الطفل على امتلاك ناصية اللغة من عمل المدرسة كلها، ويتعاون عليه معلموها؛ فاللغة هي الأداة التي بها يمكن تعليم الطفل وتربيته، ومن مهام المدرسة أن تجعل الطفل يتكلم بدقة وطلاقة وحماسة، وأن تتحرى أن يكون ما يَكتب مُبِينا عما أراد من الأفكار والمعاني بيانا تاما. ولو عمل معلم العلوم بهذا المقترح، لكان في ذلك من النفع لدرسه مثلُ الذي فيه من النفع للغة؛ فإنه لا يعلِّمُ مادته ما لم يتبع الدقة والانتظام في التعبير، ولا شك أن دراسة كل كتاب من الكتب درْس لغوي، وكثيرا ما يكون مردُّ إخفاق الأطفال في المواد المختلفة إلى الضعف في اللغة. ومن نَظَر إلى النصائح السالفة بعين الاعتبار، علم أن من واجب كل معلم أن يبذل ما في وسعه لتيسير معرفة الطفل باللغة، وتمكينه منها[3].

وكان الإنجليز يرون أن شكسبير خير لهم من الهند، إذ كانوا يستعمرونها؛ لأنه رمز وحدة الإنجليزية، واللغة من أهم الروابط الإنسانية: توحِّد طرق التفكير، وتجمع العقول، ومتى اتحدت العقول وأساليب التفكير كان الشعب قوي الدعائم، رصين البنيان، وذلك وحده هو أساس القوة، والسبيل إلى النهوض، فإن ضعفت لغة الأمة، وغمرتها اللهجات المختلفة، تبلبلت ألسنتها، وتفرَّقت بها السبل؛ فغدت في عداد الموتى، ومن تصفَّح تاريخ الأمم والشعوب رأى أن انحلال الأمة يبدأ بانحلال اللغة[4]. وكان ونستون تشرشل يرى أن الإنجليزية

---

(١) اللغة والاقتصاد، ١٦٢.

(٢) المصادر الحقيقية لضعف لغتنا العربية في مدارسنا الثانوية.

(٣) الإنجليزية: اللغة والأدب، ٣٤٩ وما بعدها (نقلا عن: العربية الفصيحة لغة التعليم في الوطن العربي، ٦٦).

(٤) نشأة اللغات وحاجة الأمة للمجمع اللغوي، ١٤.

أجمل لغات الدنيا وأقواها، وكان ينصح المدرسين بالشدة في تعليمها، فيقول: يجب أن يتعلم التلميذ اليونانية مكافأة له على إتقانه اللغة الوطنية، وأن يتعلم اللاتينية مكافأة لإتقانه الإنجليزية، أما الذي لا يتقن الإنجليزية، فيجب أن يُضرب بالسوط حتى تخرج اللغة من فمه صرخاتٍ. وكان الحديث بالإنجليزية إلى العقد الثامن من القرن العشرين مرتبطا بالرقي الاجتماع، عند المالطيين، فأخذ المجتمع يعاقب من يتكلم بها في سياق لا يقتضيها، ويعده امرأ مباهيا متكبرا؛ فزال ذلك. ويرى زائر مالطة اليوم أن المالطيين يتحدثون فيما بينهم بلغتهم، على كل حال، حتى إن الطلبة الأجانب يشتكون من أن زملاءهم المالطيين في الفصل كثيرا ما يوجهون الأسئلة للأساتيذ بالمالطية، مع أن الإنجليزية هي لغة تدريس العلوم والطب والهندسة بالجامعة[١].

وسجَّل الأمريكيون اسم ألكسندر هيج في سجلِّ العار، بعد خطبة انتخابية، خطبها في جامعة كاليفورنية عام ١٩٧٢، وكان يومئذ مترشحا للرياسة، فلما سألَ عن سبب ذلك، قيل له: لقد كنت تلحن في خطبتك[٢]. وفي مونتريال شرطة يسمونها شرطة اللغة، تجول في الشوارع لتغيير أسماء المحال والشوارع من الإنجليزية إلى الفرنسية، وقد بلغ ما أنفقت على تغيير إشارة stop الإنجليزية إلى arrêter الفرنسية ٦٠٠ ألف دولار[٣]. وكان من سياسة أسترالية اللغوية عام ١٩٩١ أن الأستراليين كلهم يجب أن تكون معرفتهم بالإنجليزية ملائمة لحاجاتهم في كل حال يكونون عليها، وتسخير البرامج التعليمية لتبليغهم ذلك[٤]. ويتكلم بالسلوفاكية بضعة ملايين، وقانونها في سلوفاكية واضح وصارم، وينص على أنها هي لغة الإدارة والتعليم والإعلام، وورد في ديباجته: اللغة السلوفاكية أهم ما يميز الأمة السلوفاكية، وأثمن قيمة في موروثها الثقافي[٥]. وتدرس العلوم كلها في المجر بالمجرية، ما عدا الأقسام التي تحرص على أن تستميل الطلاب الأجانب، فإنها تدرس بالإنجليزية. ولا يتكلم المجرية سوى أربعة عشر مليون

(١) لغات حية، ٤.
(٢) اللغة العربية وهوية الأمة في مؤسسات التعليم العالي في الأردن.
(٣) اللغة العربية بين تشويه الإعلام والإعلان، ٢٠٥.
(٤) التخطيط اللغوي والسياسة اللغوية في أستراليا، ١٩٧.
(٥) لغات حية، ٣٦.

نسمة، وهي من اللغات الصعبة المعزولة، وليست من اللغات الهندية الأوربية. ويلزم القانون المجري الشركات والمؤسسات أن تستعمل المجرية وحدها، وتمنع استعمال كلمة أجنبية غير الكلمات التي دخلت المجرية، ودخلها من التغيير ما جعلها توافقها في خصائصها الصوتية[1]. ولا يتجاوز سكان إيسلندة ثلاثمائة وخمسين ألف نسمة، وللغتهم -مع ذلك- أكاديمية، تسوسها، وتعمل على ترقيتها، وهم ينبذون الدخيل من اللغات الغربية، حتى الكلمات الشائعة جدا، كالديمقراطية، وما شاكلها، ويضعون لها مقابلا من لغتهم، وهم يستعملون لغتهم في كل شأن من شؤون الحياة[2].

ومنذ عام ٢٠٠٥ والمهاجرون الراغبون في الجنسية البريطانية ملزمون أن يثبتوا إلمامهم بالإنجليزية. ويشترط الألمان لقبول طلب التجنس -بعد التعديل القانوني الصادر في الأول من سبتمبر، عام ٢٠٠٨- إتقانَ الألمانية، ويشترط لطالب الجنسية في إسبانية النجاح في الإسبانية، وتشترط كندة المعرفة الكافية بإحدى اللغتين الرسميتين (الفرنسية والإنجليزية). ولا اختلاف كبيرا بين الدول الأوربية، غير إيطالية، في اشتراط معرفة اللغة على من يريد التجنس، وعدِّ اللغة شرطا للانتماء الوطني، ولا تمكِّنهم من العمل حتى يجتازوا امتحان الكفاية فيها. وكذلك تفعل فنلندة، وهونج كونج. وتشترط حكومة أمريكة الاتحادية على المهاجرين إليها الكفاية في الإنجليزية، وتوجبه حكومات معظم الولايات على من أراد العمل فيها، ولا سيما الذين يريدون العمل في التعليم. وغرض اشتراط اللغة للتجنس مزج المهاجرين بالشعب، وإيقاع التجانس الثقافي بينهم، وتوحيد هويتهم[3]. ونشرت الجريدة الرسمية الفرنسية في عددها الصادر يوم الأربعاء ١٢/ ١٠/ ٢٠١١ م طائفة من المراسيم، تشترط على طالب الجنسية الفرنسية أن يعرف من الفرنسية ما يمكِّنه من قضاء حاجاته اليومية في فرنسة، وتقديم ما يثبت ذلك من الوثائق، وكان ذلك من أجل القضاء على ضعف

---

(١) لغات حية، ٣٤ وما بعدها.

(٢) الحرب الكبرى على اللغة العربية.

(٣) انظر: اجتياز امتحان الكفاءة في اللغة العربية شرط للتعيين في المؤسسات العامة والخاصة، والتعددية اللغوية في الجزائر، ٣.

المتجنسين في الفرنسية[1]. ولما قامت الثورة الروسية أصدر لينين أمرا، يوجب على المسؤولين كافة إتقان لغة الشعب، وأصدر مجلس الدوما عام ٢٠٠٢ م أمرا، يجعل إتقان الروسية شرطا للمواطنة، ويمنع استعمال الكلمات المستعارة من الإنجليزية، ما كان لها مقابل من الروسية[2]. وفي صيف عام ٢٠١٣ أُسِّس مجلس للروسية تابع للرئيس فلاديمير بوتين، لتقوية الروسية، والتمكين لها في روسية والعالم، واقتُرِح برنامج اتحادي جديد لترقية الروسية، تُنفَق عليه سبعة مليارات روبل في خمسة أعوام[3]. وكان أول قرار قرره ماوتسي تونغ عام ١٩٤٩ م: على كل صيني أن يتكلم بالخانية (لغة بكين)، ويتخلى عن الإنجليزية، وكلٍّ لهجة صينية أخرى[4]. وكان رئيس وزراء الصين (شون لاي) يلتزم التكلم بالصينية في لقائه السياسيين الأجانب، وفودًا وأفرادًا، مع أنه كان يتقن الإنجليزية والفرنسية، وعلَّل ذلك بأن اللغة القومية قطعة من الوطن، وتاريخه، وتراثه. وذكر فهمي هويدي أنه قابله مرة في بكين، فكان يكلمه بالصينية، فقال له: يا سيادة الرئيس، أنت تعرف الفرنسية والإنجليزية، فلمَ لا تكلمني بهما؟ فضحك، وتمادى في حديثه بالصينية[5]. وذكر أحمد القاري أنه زار طبيبا للأنف والأذن والحنجرة برتبة أستاذ (بروفيسور) في مستشفى شين جين الثاني، بالصين، وكان هو رئيس القسم أيضا، فوجده لا يحسن شيئا من الإنجليزية ولا الفرنسية، ووجد الوصفات، والنشرات الطبية التي تكون مع الأدوية، بالصينية كلها[6].

وما أن تدخل العلامة التجارية السوق حتى تترجم إلى الصينية، ويكون البحث عنها باسم صيني، فآبل مثلا يسمونها بينغ غوو، وتعني التفاحة، ومرسيدس تسمى بين تشي، وهي ترجمة لكلمة بينز إلى لفظ صيني، وتعني السرعة. وترجموا رونو الفرنسية إلى لي نوو. وكذلك يفعلون بأسماء العلامات في اللغات التي هي من فصيلة الصينية، كالكورية، واليابانية، فيترجمون

---

(١) اللغة والانتماء اللغوي.
(٢) ما الذي جعل اللغة الإنجليزية هي اللغة العالمية؟.
(٣) تجربة روسية الاتحادية في حماية ودعم اللغة الروسية، ٢٣٥.
(٤) التخطيط اللغوي والأمن اللغوي، ١١ وما بعدها.
(٥) الفصحى والعامية في وسائل الإعلام، ٤، ووسائل الإعلام بين العامية والعجمة، للأستاذ الدكتور يوسف عز الدين، مجلة المجمع.
(٦) لغات حية، ٢٣.

سامسونج الكورية إلى سان سون، وكانون اليابانية إلى جيا نون، وتويوتا إلى فين تيانغ. وكل سلعة دخلت الصين كان حتما أن تسمى باسم صيني، وأن تشفع بياناتها بالصينية. وكذلك الأمر في كل تقنية واصطلاح علمي، وكل دواء، وكل آلة، والباب مسدود أمام الكلمات اليونانية والرومانية، ولا بد لها إن شاءت أن تدخل سوق الصين أن تلبس ثوبا صينيا وتقبل التحريف الكافي، وتصبح مقاطع صوتية مقبولة، وتكون ذات نبرة من النبرات الصينية الخمس[1]. وتعتمد الصينية في صياغة الكلمات على المقاطع الصوتية، ولا تتوالى فيها الحروف الساكنة، كما تتوالى في اللغات المعروفة، إلا ما كان من الأصوات: تس، وتج، وتش، ولذلك كان رصيد الأصوات التي يمكن أن تتكون منها الكلمات محدودا، وكثير من الكلمات متشابه تشابها صوتيا، وإن اختلفت كتابته، واختلفت معانيه. ومع ذلك لم يأخذوا شيئا من اللغات الأجنبية[2].

وينص قانون الصينية على وجوب استعمال الصينية الفصحى (صينية بكين)، في التواصل الشفهي والكتابي في الإدارة، ووسائل الإعلام، والتعليم. ويحض على استعمالها في الخدمات، ويحث على التزام قواعدها النحوية والإملائية، ويبيح الشكوى والاقتراح إذا رئيت أخطاء في استعمال اللغة في الحياة العامة. ويجعل من حق الإدارات المختصة التدخل لطلب إصلاحه، أو إلزام إصلاحه، مع تحذير مرتكبه، وإمكان عقابه. ويلزم الموظفين أن يجيدوا الصينية، ويسمي الإدارات المكلفة وضع معايير لترجمة الكلمات وأسماء الأعلام الأجنبية[3].

والبحث العلمي والتطوير في اليابان باليابانية، مع أنه لا يتكلم بها أحد خارج اليابان[4]. ويندر في اليابان من يتكلم بالإنجليزية، ولا تُرَى فيها لافتة في شارع أو مكان أو مطعم مكتوبة بغير اليابانية، ولا يتكلم علماؤها الكبار الذين لهم شهرة عالمية إلا بها، ولا تُعرَض الأفلام الأجنبية، وبرامج التلفزة المستوردة إلا

(١) لغات حية، ٢٠.
(٢) السابق، ١٧.
(٣) السابق، ١٣
(٤) السابق، ٢٣.

بها[1]، ويجد اليابانيون مشقة في الكلام باللغات الأجنبية[2]. وذكر محمد عابد الجابري أنه حضر ندوة في اليابان، لغتها الرسمية الإنجليزية، فكان اليابانيون يعلقون فيها باليابانية، ويتركون الترجمة الفورية تنقل كلامهم إلى الإنجليزية أو العربية، مع أنهم جميعا يعرفون الإنجليزية، ولما وضعوا الألواح التي فيها أسماء المشتركين على مناضد الندوة كتبوا أسماء اليابانيين باليابانية، وأسماء غيرهم بالإنجليزية[3]. ويبلغ تصفحهم الموسوعة العالمية الحرة (ويكيبيديا) باليابانية ٩٥٪ ، و٥٪ باللغات الأخرى، على حين يتصفح المغاربة والموريتانيون النسخة العربية بنسبة تفوق تصفحهم النسخة الفرنسية بما بين ٥ و١٠٪، ويفوق تصفح النسخة الفرنسية في تونس تصفح النسخة العربية بكثير[4]. وكانت اليابان -منذ عهد شجونة توكوغاو[5]، في القرن السابع عشر الميلادي- تضيق بالثقافات الأجنبية، وتضيق بالثقافة الغربية خاصة ما لا تضيق بثقافة أخرى؛ فضربت على نفسها عزلة، وحرَّمت على الغربيين أن يدخلوها، أو يدخلوا موانئها، وقيدت سفر اليابانيين إلى الخارج، وحرَّمت عليهم أن يدينوا بالنصرانية، وطردت المنصرين[6]، ولم تستثن من ذلك إلا البعْث التجاري الهولندي؛ لأن الهولنديين بروتستانت، والبروتستانت أقل عناية بالدعوة إلى ديانتهم؛ وأشد انشغالا بالتجارة، على عكس البرتغاليين والإسبان الكاثوليك، وحُكِمَ على كل إسباني يوجد في اليابان بالقتل، فاحتجن الهولنديون وحدهم التجارة مع اليابان أكثر من مائتي عام، من ١٦٤٠ إلى ١٨٥٤ م. وضُبطت العلاقة بالهولنديين ضبطا صارما، مخافة أن يؤثِّروا في اليابانيين، فأقيم المصنع الذي سُمِح لهم به على جزيرة بميناء نجازاكي، تدعى ديشما، ورُبِطت بنجازاكي بجسر عليه حراسة شديدة، فكانوا لا يغادرونها إلا بإذن، وكان مَنْ بالمصنع لا يزيدون على

---

(١) صحيفة الأهالي المصرية، عدد ١٨٤، ١٧/ ١٤/ ١٩٨٥ (نقلا عن: واقع اللغة العربية في أجهزة الإعلام، ٨٦).

(٢) لغات حية، ٢٣.

(٣) المسألة الثقافية في الوطن العربي، ٢٧٥.

(٤) لغات حية، ٣٢.

(٥) الشجونة جمع شجون، وهي في الأصل رتبة عسكرية مؤقتة، يخلعها الإمبراطور على القائد العسكري الذي يكلفه إخضاع الأقاليم المتمردة على حكمه، وتوكوغاو أسرة حكمت اليابان من عام ١٦٠٣ إلى ١٨٦٨، وبعد وصول أسرة الساموراي إلى الحكم صار الشجون منصبا دائما تتوارثه الأسرة (أصول التحديث في اليابان، ١١١ و ٢٠٩).

(٦) التجربة اليابانية، ٤١، وأصول التحديث في اليابان ١٥٦٨ - ١٨٦٨، ٢٩٥ وما بعدها.

عشرين موظفا؛ فكان الاتصال بين الهولندية واليابانية قليلا[1]. ومُنعت اللغات الأجنبية والترجمة منها، ودامت هذه العزلة نحو قرنين. وكان المنصّرون الأوربيون قد نصَّروا ثلاثمائة ألف ياباني في القرن السابع عشر الميلادي، منهم قادة من طبقة الساموراي، فقاتلتهم الحكومة، فقتلت كثيرا منهم، وفرّ من نجا، فلم يؤذن له بالعودة[2]. ولعل سبب ضيق اليابان بالأوروبيين ما في ثقافتهم من تسلط واستلاب، واستصغار الغير وثقافته، والتوسل بما يحدثون في الشعوب من تغيير ثقافي وديني إلى استمالتها وتخديرها، وصرفها عن مقاومة سياستهم في الاستتباع، والنهب، وغزو الأسواق ببضاعتهم، والتحكم في سياسة البلدان، والاستيلاء عليها. وكان حكام اليابان يدركون ذلك؛ فحاربوا التنصير؛ لما قد علموا من أنه وسيلة من وسائل السياسة الغربية إلى الاستعمار، وتغيير الهوية[3]. هذا إلى ما بين الثقافة الأوربية والثقافة اليابانية من تباعد، في المعتقدات، والأخلاق، والقيم، والنظم الاجتماعية. ولم يكن اليابانيون يضيقون بالصينيين والكوريين لتقارب الثقافات. وقد أعانت هذه العزلة اليابانيين على الاعتزاز بلغتهم وصونها من التأثر باللغات الأوربية التي غزت العالم، وما كان ذلك ليتأتى لو تهاونت في علاقتها بالغرب، وتركت لغتها وثقافتها نهبا للغاته وثقافاته، فقد كان شعبها منعزلا، فغزته حضارة الغرب على حين غرة، فهزَّته في الصميم، أولَ الأمر، وأحدثت فيه ما أحدثت في العرب من أثر سلبي. فلما انفتحت على الغرب، وأرسلت طلابها ليدرسوا فيه، كانت وزارة التعليم تجعل المبتعثين أفضل الوطنيين[4]، وتشترط فيهم الوعي والنضج، والاعتداد بالثقافة اليابانية، وتسمِّي لهم ما تريد، من أجل أن يشتغلوا بتحصيله، على عكس ما كان يفعل العرب: لا يشترطون لمن يبتعثون من أبنائهم سوى الحصول على الشهادة الثانوية بتقديرٍ، لا يقل عن جيد، وهو شرط يبدو أنه كان وسيلة للمفاضلة بين الراغبين في الابتعاث، ولو أتيح من المال ما يمكِّن من ابتعاث كل من أراد الابتعاث، ما اشترطوا شيئا، كما لم تكن دول الخليج العربي الغنية تشترطه.

---

(١) انظر: اللغة والاقتصاد، ٣٢١، والتجربة اليابانية، ٥٥، وأصول التحديث في اليابان، ٣١٣ وما بعدها.

(٢) التجربة اليابانية، ٦٤ – ٦٦.

(٣) انظر: أصول التحديث في اليابان، ٢٩٨ وما بعدها.

(٤) العلم وبناء الأمم، ٤٤٠.

فكان تأثر بعضهم بالغرب تأثرا غير حميد: أضعف الانتماء الحضاري، والاعتداد بالهوية، والولاء للوطن، لحداثة السن، وقلة النضج، فقد بهرهم كلّ ما رأوا، فكانوا يعدُّون السبيل إلى التقدم أن يماثل العرب الغرب في كل شيء، حتى لقد دعا بعضهم إلى أن تُحذى شعائر الإسلام على شعائر النصرانية، والمساجد على الكنائس، وأن تكون صلاة المسلمين كصلاة النصارى في الكنائس(١)، وأن يسير المسلمون بسيرة الغرب، ويسلكوا طريقه، ليكونوا له أندادا، وشركاء في الحضارة، خيرها وشرها، وحلوها ومرها، وما يُحَبُّ منها وما يُكرَه، وما يُحمَد منها وما يعاب(٢)؛ فهذا هو الذي يمكِّن من إعداد شباب قادرين على حماية الوطن، وإشعار الأجنبي بأن العرب مثله وأنداده، ويُمكِّنهم من أن يتحدثوا إلى الأوربي، فيفهم عنهم، ومن أن يستمعوا إليه، فيفهموا عنه، ويشعره بأنهم يرون الأشياء كما يراها، ويقوِّمونها كما يقومها، ويحكمون فيها كما يحكم(٣)، كما قال طه حسين مرة. وقال: إن الكاتب الفرنسي بول فاليري ردَّ العقل الأوربي إلى ثلاث: حضارة اليونان، وما فيها من أدب وفلسفة وفن، وحضارة الرومان، وما فيها من سياسة وفقه، والنصرانية، وما فيها من دعوة إلى الخير وحثٍّ على الإحسان. ومن حلل العقل الإسلامي في مصر والشرق القريب وجده لا يزيد على هذه، ومهما نبحث، ونستقص، فلن نجد ما يحملنا على أن نقبل أن بين العقل الأوربي والعقل المصري فرقا كبيرا(٤)، ولا أن الشرق الذي قال فيه كيبلنج في بيته الشهير: «الشرق شرق، والغرب غرب، ولن يلتقيا»، يصدق على مصر والمصريين؛ فإنما كانت مصر جزءا من أوربة، في كل ما يتصل بالحياة العقلية والثقافية، كما قال الخديو إسماعيل(٥). فالحياة المادية في مصر أوربية خالصة، في الطبقات الراقية، وهي في الطبقات الأخرى تختلف قربا وبعدا باختلاف قدرة الأفراد والجماعات، وحظوظهم من الثروة، ومَثَل المصريين الأعلى في حياتهم المادية هو مَثَل الأوربيين الأعلى في حياتهم المادية، وهم يقلدونهم،

---

(١) هويتنا أو الهاوية، ٢٨.
(٢) مستقبل الثقافة في مصر، ٣٩.
(٣) السابق، ٤٢.
(٤) السابق، ٣٠.
(٥) السابق، ٢٨.

ويقتدون بهم، عن علم بما يقلدون، وتعمُّد له، وهم ماضون في ذلك التقليد، ولن يستطيع أحد أن يثنيهم عنه، وهو تقليد تدفعهم إليه عقولهم وطبائعهم وأمزجتهم، وهي لا تختلف في روحها قليلا ولا كثيرا منذ العهود القديمة جدا عن عقول الأوربيين وطبائعهم وأمزجتهم[1]. فلما آنس من نفسه الإسراف فيما ذهب إليه، وفي دعوته إلى الفناء في أوربة، وأنه تعدَّى حدود العلم والعقل، قال إنه لا يدعو إلى آثام الأوربيين وسيئاتهم، وإنما يدعو إلى خير ما عندهم، وأنفع ما في سيرتهم، وما ينبغي أن يُحمَل كلامه على غير ذلك، ولا أن يظن أنه يدعو إلى أن يكون المصريون نسخة من الأوربيين، كما لا يدعو إلى أن يَتقلَّدوا دينهم[2]، بيد أن استدراكه -لو صح- ينقض ما قدَّم، أو هو ضرب من استغفال مَنْ لا يوافقه في هذا التهالك الذي ما كان يتوقع من مثقف وطني، يعي أسباب التقدم، ويميز القشرة مما تحتها.

ولا يخفى أن طه حسين يفخر بمماثلة أوربة مماثلة مادية صورية، ويبدي الإصرار على المضي فيها، ويركب إليها كل صعب وذلول، على وجه، ما يدل على وعي ونضج، فإن المماثلة الصورية ليست هي التي تعين مصر على أن تغير ما بها. وشتان ما الحداثة وما كلِف به طه حسين من قشرة الحضارة الغربية، ومتعها المادية، فأخص خصائص الحداثة الرشد، ويقتضي -فيما يقتضي- الاستقلال والنقد، أما الاندفاع إلى التقليد من غير استبصار، فيناقضها في الصميم. ومن الطريف أن يقف طويلا عند موافقة المصريين للأروبيين في كل شيء، وهو يريد بذلك أن يقرر أنهم أهل للرقي مثلهم، وليس بينهم وبين الأوربيين إلا أن يقلدوهم في كل شيء، لتوافُق العقول، فلما ذَكَر اليابانَ، قال إن مصر جديرة باللوم والذم؛ لأنها لم تبلغ ما بلغت اليابان، مع أن اليابان لا تشبه أوربة كما تشبهها مصر، وليس بينهما علاقة تهيئها للرقي، كعلاقة مصر بها، فلما فكر في سرِّ ذلك جعله المسارعة إلى التقليد، «فما هي إلا أن أحسَّ (اليابان) أن لا سبيل له إلى أن يعيش كريما حتى يشبه الأوربيين في كل شيء، ويزاحمهم في ميادينهم، ويجاريهم في سيرتهم، فما هي إلا أن همَّ حتى فعل،

(١) مستقبل الثقافة في مصر، ٣١ و ٣٤.
(٢) السابق، ٤٤. وانظر ص ٤٩ و ٥٠.

وما هي إلا أن أراد، حتى وُفِّق إلى ما أراد، وإذا هو شعب مهيب، تشفق منه أوربة أشد الإشفاق، وتصانعه أشد المصانعة، وتمنحه ما هو أهل له من الإكبار والإجلال والاحترام»[1]. غير أن المعروف من تاريخ اليابان خلاف ما ظنَّ طه، وعلى غير ما أراد، كما بينا آنفا، لكن لما كان لا يعرف للتقدم بابا إلا التقليد والمماثلة، ظن أن ليس في وسع اليابان أن تبلغ ما بلغت إلا بهما، كما أنه يرى أن لن تبلغ مصر ما أراد لها إلا بهما.

وسار سلامة موسى في أثره، أو سار هو في أثر سلامة، فقد قال سلامة: «يجب علينا أن نخرج من آسية، وأن نلتحق بأوربة، فإني كلما زادت معرفتي بأوربة زاد حبي لها وتعلقي بها، وزاد شعوري بأنها مني وأنا منها، وهذا هو مذهبي الذي أعمل له طول حياتي سرا وجهرا، فأنا كافر بالشرق، مؤمن بالغرب»[2]. وقال إنه يأسف لوجود رابطة بين مصر والحضارة العربية، وإنه ليس للعرب على المصريين ولاء، فإدمان دراسة ثقافتهم مضيعة للشباب، وبعثرة لقواهم؛ فيجب أن يعودوا إلى الكتابة بالأسلوب المصري الحديث، لا بأسلوب العرب القديم[3]. وهو ولع بالمماثلة، لا يختلف عما يُنسَب إلى أحد غلاة الكماليين من الترك، يُدعى أغا أوغلو أحمد، من أنه كان يقول: لقد عزمنا على أن نأخذ كل ما عند الغربيين، حتى الالتهابات التي في مريئهم، والأقذار التي في بطونهم[4]. وهو غير مستغرب من شاب، في آخر العقد الثاني أو أول الثالث، قُدِّم عجينة غضة إلى قوم حراص على أن يصطنعوا مثله، ليتبلَّغوا به مآربهم في بلاده، فصاغوه على الوجه الذي أرادوا، فلم يكن له ولا لأمثاله انتماء إلى أمته أو حضارته، ولا اعتداد بشيء مما عند قومه، وكان جلهم يجهل العربية جهلا مبينا، ولا يعرف من تراثه شيئا ذا بال؛ فخُيِّل إليهم أن الحضارة الإسلامية ليست بشيء، وأن ليس فيها ما يقوم للحضارة الغربية، وأن الفكر الأوربي هو الفكر الإنساني الذي لا فكر سواه؛ لأنهم لم يعرفوا غيره[5].

---

(١) مستقبل الثقافة في مصر، ٣٦.

(٢) دراسات في الأدب العربي الحديث، ١٤٩.

(٣) السابق، ١٤٩ وما بعدها.

(٤) هويتنا أو الهاوية، ٢٨.

(٥) انظر: تجديد الفكر العربي، ٥، واللغة العربية ومكانتها في الثقافة العربية الإسلامية، ١٣١.

وكان ما شدَوا من علوم الغرب وثقافته أولَ ما تعلّموا، فصادف قلبا خاليا؛ فتمكَّن، وخُيِّل إليهم أن ليس وراء الغرب غاية، ولا لغيره علم أو ثقافة، ولا ما يستحق أن يُتعنَّى في تطلبه ومعرفته، وأن سبيل التقدم واحدة، هي متابعة الغرب، على غير بصيرة. وهم في هذا يخالفون الصينيين واليابانيين، فقد كان شعار اليابان: «الأخلاق الشرقية، والعلوم الغربية»[1]، و«الروح يابانية والتقنية غربية»[2]، ويقول الصينيون: «المعرفة الصينية مبادئ جوهرية، والمعرفة الغربية للاستعمال المحلي»، ويقول الكاتب الصيني لاوسي: إن الظاهرة التي يسميها الغربيون العولمة لا تعني للصينيين شيئا غير الأهمية المتنامية لآسية في التجارة العالمية، وتأكيد منزلتها المركزية في قلب العلاقات الدولية، والمعاني الثقافية لكلماتٍ، كالمصلحة الخاصة، والمصلحة العامة، والهيمنة، وحقوق الإنسان، هي ما يفهم منها الصينيون، لا ما يريد الغرب[3]. أي إن الصين تحتفظ بهويتها متميزة، ولا تتابع الغرب في شيء مما يتابعه فيه الحراص على مماثلته. وقال الفيلسوف الإنجليزي، برتراند رسل إن اليابان لم تغرِّب فكرها، وإنما غربت تقنيتها، وظلت إلى هزيمتها في الحرب الثانية محتفظة بعقائدها القديمة، على ما أنجزت من منجزات حديثة كل الحداثة[4]. ويرى بعض النخب العربية أن يكون الروح، والتقنية، والمعرفة غربية، أو لا تكون[5]، وإن أثبت التاريخ العربي والإفريقي الحديث عدم صحة تلك الدعوى، كما قال الكاتب الكيني، علي المزروعي: إن مصر وإفريقية بلغتا ما بلغتا بعمل مضْنٍ من التغريب الثقافي بدون تحديث صناعي[6]، وكان التغريب الثقافي تغريبا شكليا بعيدا من روح الحداثة والعلم، ولا يتجاوز القشرة. وقد ردَّ هشام شرابي ما مُنِيَ به العرب إلى أنهم افتقروا إلى «الوعي الياباني المركَّز للتحدي، وإلى النزعة الانتقامية التي واجه بها التحدي»[7].

---

(١) المثقفون العرب والغرب، ١٣١.
(٢) صدام الحضارات، ١٥٧.
(٣) ثقافتنا في عصر العولمة، ٤٥.
(٤) الفلسفة وقضايا الحياة، ٤٨.
(٥) صدام الحضارات، ١٦١.
(٦) السابق، ١٥٨.
(٧) المثقفون العرب والغرب، ١٣١.

وكان من أضرّ أضرار هذا أن الذين يختلفون من مثقفي العرب لا يكون بينهم ما يجلُّ عن الخلاف، كالوطن، والهوية، مما تحظر قوانين الدول التي تُعْجب بعضَهم أن يُمسَّ مسًّا غير نزيه. من أجل ذلك كان أحدهم يعدُّ العربية سببا من أسباب التخلف، ويطَّرد بغضه إياها وحرصه على إخراجها من الحياة وقلةْ نضجه، وغلوُّه في التغرب، وأمنُه عواقبَ ما يجاهر به من الجدِّ في وأدها. ولما كان هؤلاء هم رجال الدولة في الوطن العربي، كانت الحرب على العربية وسائرِ أركان الهوية العربية أكبر همهم، وكلَّ ما في وسعهم، ومن أهمِّ ما يشغلهم أن يحولوا بينها وبين أن تتمكَّن في بلادها، وسَجْنُها فيما يكرهون من زوايا الحياة (العلوم الشرعية، وما كان منها بسبيل)، والنَّصَب في محاربة التعريب، بحجج، لا يزيدها العلم والتجارب إلا وهَنًا وخُلْفا. ولو أُطيعوا في بعض ما يشيرون به، لأُخرجت أيضا مما يكرهون، غير أن السياسة قد تقتضي من التعقل والمداراة ما يحول دون الإقدام على بعض ما تحمل عليه العقائد الغالية. وكان هؤلاء على طرفي نقيض مع اليابان التي بُنِي تعليمها على أصولها وعاداتها المتأصلة قبل عهد الميجي، لتكون وسيلةَ توحيد عقل الأمة والحفاظ على هويتها، كما بدا في إصرارها على استعمال اللغة الوطنية في التعليم، والتوسل بالترجمة إلى الانفتاح على العلوم والمعارف الحديثة، وتمييزها التحديث من التغريب، فاستوعبت العلوم الغربية بأدواتها، ولم تسقط في التغريب والحداثة المشوهة. على حين كان الوطن العربي يعاني صورا بائسة من الحداثة الرثة بسبب علاقته بالغرب غير المستبصرة، وما تبعها من نزوع إلى عشقه، وتقديسه، والفناء فيه، وما يستوجب ذلك من الترحل بين نظرياته الفكرية، واحتقار التراث، لقلة ما فقهوا منه، ومن روح الحداثة[١].

ولما رحلت اليابان عن كورية الجنوبية، بعد استعمارها أربعين عاما، فرضت فيها لغتها في المدارس، وتعمدت طمس هويتها، كان أول ما فعلت حكومة كورية المستقلة أن أصدرت مرسوما يحرِّم اليابانية، واستدعت المسنين من الأرياف ليعلِّموا الأطفال والشباب والأطباء والمعلمين الكورية[٢]. وبلغ من

(١) انظر: التجربة اليابانية، ١١٤ و ١٣٣ و ١٨١ وما بعدها، والنهضة اليابانية المعاصرة، ١٦٣.

(٢) انظر: التخطيط اللغوي والأمن اللغوي، ١١ وما بعدها، واللغة والهوية، ٧ وما بعدها، والحفاظ على اللغة حفاظ على الهوية.

حرصها على استئصال آثار الاستعمار الياباني أنْ كان الشرطي إذا سمع الكوري يتكلم باليابانية، ساقه إلى السجن[1]. وجعلت التعليم، في أطواره وتخصُّصاته كلها بالكورية، وكذلك الصُحف، ووسائل الإعلام كافةً[2]. وفيها مائة وعشر قنوات خاصة غيرَ واحدة، تبثُّ كلها بالكورية[3]. وتُكتب بها وحدها اللافتات، وأسماء المحالِّ التجارية، ويُسمح للسفارات والفنادق الكُبرى بزيادة الحروف الأجنبية بخط صغير تحت الحروف الكورية مكتوبةً بخط كبير[4]. وذكر يوسف عبد الفتاح، الأستاذ بجامعة هانكوك للدراسات الأجنبية، أنه لما وصل أوّل مرّة إلى كورية لم يعرف طريقه، لأن اللافتات وأسماء المحلات بالكورية فقط. فلما سأل صاحبا له كوريا عن سبب ذلك، قال له: إذا أردت أن تقرأ الأسماء بالإنجليزية، فارحل إلى إنجلترة[5]. ويعتز الكوريون بلغتهم، ويأبون أن يتكلموا بغيرها[6]، مع أن كورية تدرِّس الإنجليزية في أطوار التعليم كلها مادةً إجبارية، من الصف الثالث الابتدائي[7]، ومع ما للكوريين من ولع بتعلم الإنجليزية، ورغبةِ كثير منهم في أن يعرفوها معرفة، تمكنهم من التكلم بها بطلاقة، وبلغ بهم ذلك أن أهل البيت منهم يسافرون كلهم إلى الخارج لدراستها، فلا يبقى منهم إلا الأب، يجمع من المال ما يعينهم به على الدراسة. وتشير البيانات الحكومية إلى أن نحوا من ٢٠٠ ألف أسرة أرسلت أبناءها الذين هم في طور التعليم العام لدراسة الإنجليزية في الخارج[8]. لكن ذلك لم يحقِّر إليهم لغتهم، ولا جعلهم يؤثرون عليها غيرها؛ وإنما يدرسون الإنجليزية من حيث هي لغة أجنبية، ولا يَدْرُسون بها، وهي وغيرها من اللغات عندهم لا تزيد على وسيلة اتصال معرفي.

وكان الزعيم الفييتنامي، هوشي مينه يقول للفييتناميين، في إبان حرب الاستقلال: لا انتصار لنا على العدو إلا بالعودة إلى ثقافتنا ولغتنا، إن الفييتناميين

---

(١) انظر: اللغة والهوية، ٧ وما بعدها، والحفاظ على اللغة حفاظ على الهوية.

(٢) لغة التعليم وتأثيرها في الهوية العربية، ٣٦٣.

(٣) انقراض اللغة العربية خلال القرن الحالي.

(٤) الموضع السابق.

(٥) الموضع السابق.

(٦) الموضع السابق.

(٧) الحفاظ على اللغة حفاظ على الهوية.

(٨) تعلومهم، ٨١.

لا يحاربون عدوهم بالبنادق والصواريخ، فقط، فعنده من ذلك ما يفوق ما عندهم، وإنما يحاربونه بما هو أقوى منها: العزة القومية، وهي عزة لا نراها إلا في جبين اللغة. وبعد انتصار فييتنام على أمريكة أمر بفتنمة التعليم من فوره، فشكا إليه أساتيذ الطب أنهم لا يعرفون الفييتنامية، وكذلك طلابهم، واستنظروه أعواما، ينجزون فيها ما سألهم، وجلسوا إليه في ذلك ست ساعات، فما أنظرهم غير تسعة أشهر من عامهم ذلك، يدرِّسون فيها بالفرنسية مع الفييتنامية، على أن يختبروا طلابهم بالفييتنامية وحدها في نهاية العام[1]، ونجحوا فيما أرادوا، على ما أعنَتَهم، وكلَّفهم من شططٍ، حَمِدوه غِبَّ الفراغ من الفتنمة. مع أن الفييتنامية ليس لها قَدَم في العلم والحضارة، ولا تراثٌ، يعين على نقل العلوم، وكانت -إلى ذلك- لغة فقيرة، وشبه ميتة، وأبعد ما تكون عن الصلاحية للمدنية الحديثة، ومفرداتُ معجمها محدودة، وتعوزها اصطلاحات المفاهيم الحديثة، والمجلاَّت والكتب العلمية المكتوبة بها تعد على الأصابع، فكان بعض الفييتناميين -من أجل ذلك- يرى أن استعمالها في التعليم العالي لا يعين على تقدم العلوم، وكان بعضهم يقول إنها لغةٌ عامَّةٌ وغامضة، يمكن أن تستعمل في القضايا العامة، غير أن طاقتها التحليلية ضعيفة، ومن الصعب أن تصير لغة علم[2]. وبعد الاستقلال أخذ الطلاب الفييتناميون عهدا على أنفسهم ألا يتكلموا بالفرنسية، وألا يتكلموا إلا بلغتهم، وألا يستعملوا المصطلحات الفرنسية إذا تكلموا بلغتهم، وأخذوا يلقون المحاضرات في الجامعة بالفييتنامية، ويكتبون بها البحوث في الفلسفة[3].

ويصطنع الإندونيسيون لغتهم في العلم والتعليم والإدارة؛ فلا يجد طلابهم -من أجل ذلك- دافعا لتعلم لغة أجنبية، كالإنجليزية، ويرى كثير منهم أن لا سبب منطقيا يدعوهم إلى تعلمها، فالمناصب التي سيتولونها لا تتطلب معرفتها، ولا تتطلبها دراستهم أيضا؛ لأن العلوم مترجمة إلى لغتهم، وهذا من عوائق انتشار الإنجليزية في إندونيسية. وكانت سياسة الحكومة في الأعوام الأولى من تأسيس الجمهورية تحرم التعلم بلغة أجنبية، وإنما سمحت به عام

---

(١) في سبيل العربية، ١٧٣، واللغة والهوية، ٤٧ وما بعدها، والعرب والانتحار اللغوي، ٥٧.

(٢) اللغة والهوية، ٣٤.

(٣) السابق، ٣٠.

٢٠٠٣م[١]. وتجعل شهر أكتوبر من كل عام شهرا للدعاية للغتها، بالمطبوعات، والتلفزة، والملصقات[٢]. ومنذ بضعة أعوام والعرب يجعلون للعربية ساعة في العام، تُلْقَى فيها محاضرة عن قضية من قضاياها، أكثر ما تكون تاريخية، ولا علاقة لها بحال العربية ومستقبلها، وإنما يفعلون ذلك امتثالا لأمر اليونسكو، ولولا اليونسكو، ما كانت تلك الساعة، ولا كان ما يقال فيها. وفرضت ماليزية عقوبات مالية على الماليزيين الذين يستعملون الإنجليزية في الكتابة الرسمية، وسمَّت مراقبين لغويين لمتابعة المتكلمين الرسميين مخافة أن يخلطوا الملاوية بالإنجليزية، وكانت تعدُّ ذلك مقاومة لغزو الإنجليزية[٣]. وفي سلطنة بروناي المسلمة يسأل المجتمع المدني السلطان منع المتكلم باللغة الأجنبية الاتصال بالناس، مخافة أن يفسد لغتهم. وفي كل سنة يجعلون أسبوعا وطنيا لا يتكلم فيه إلا باللغة الوطنية، وأما اللافتات والإعلان، وكل ما يعلق في الشوارع، فيمنع أن يكون باللغات الأجنبية ألبتة[٤]. ولما استقلت تيمور الشرقية عن إندونيسية، كان أول ما فكَّرت فيه سياسةً لغوية، تحيي بها لغتها، وتستعملها في التعليم، على قلة الناطقين بها[٥]، ثم اتخذت البرتغاليّة لغة وطنيّة، والأسكودو عملة، أي إنها عادت إلى ما كانت عليه في إبان الاستعمار البرتغالي[٦].

ولا يكاد العارفون بالإنجليزية والفرنسية من ساسة العرب يتكلمون مع غيرهم من الأجانب إلا بهما، ولا يكاد واحد منهم يلتزم العربية، إن كان في وسعه أن يتكلم بها؛ إذ ليس له من الوعي ما يحمله على ذلك، ولا على الأنفة من امتهان هويته وهوية قومه بالتنازل عنها لغيرها، ومنهم من يدير المؤتمرات العربية بالفرنسية، ويجيب عن أسئلة الصحافة العربية بها[٧]، ويتكلم بها في القمم التي تُعقَد في الوطن العربي، كما تكلم عبد العزيز بو تفليقة بالفرنسية في تعليقاته في مؤتمر القمة الإفريقية الأوربية بالقاهرة، في ٩/ ٤/ ٢٠٠٠،

(١) السياسة اللغوية والتخطيط اللغوي، ١٥٠.
(٢) اللغة والاقتصاد، ١٣٥.
(٣) اللغة وعلائقيتها، ٤٧ (نقلا عن: الهوية اللغوية في ظل العولمة الثقافية، ٥٩٧).
(٤) في الأمن اللغوي، ٢٠٩.
(٥) اتجاهات الشباب نحو استخدام اللغتين العربية والإنجليزية في التعليم.
(٦) أي مستقبل للغات، ١٤.
(٧) الفصحى والعامية في وسائل الإعلام، ٤.

فبعث إليه جاك شيراك ببرقية، يشكره فيها على ما فعل[1]، ولولا علم جاك أن برقيته تقع منه موقعا حسنا، ما بعث بها، لما فيها من إهانة له وللجزائريين والعرب جميعا. واستعمل الرئيس التونسي الباجي قايد السبسي الفرنسية في قمة المناخ بباريس، على غناه عن ذلك بالترجمة الفورية التي كانت مبذولة له، على حين استعمل رئيسا الصين وإسرائيل لغتيهما الرسميتين، كما فعل غيرهما من الرؤساء[2]. وكذلك يفعل غير رؤساء العرب أيضا، حتى إن منظمة الأمم المتحدة في نيويورك نظرت مرة في إلغاء العربية دون سائر اللغات الرسمية، لأسباب، منها عدم استعمال نواب الدول العربية إياها في الخطب والمناقشات، والاستغناء عنها بالإنجليزية والفرنسية[3]، واقتصارهم من استعمالها على الخطب المكتوبة التي تتلى. ومن المؤسف ما قال أحد العرب ممتعضا: لقد حضرت مرة إحدى الجلسات في مركز فيينة الدولي، تكلم فيها مندوبون عرب بغير لغتهم، وكان المتحدث الأوحد بالعربية يومذاك سفير اليابان![4]. وكان من المستائين من هذا العمل أيضا الديبلوماسي المغربي، رشيد لحلو، فقد كتب مرة: إن تكلُّم الوفود المغربية بالعربية في الأمم المتحدة منذ عام ١٩٨٣ إلى الآن كان قليلا قلة عجيبة![5]. وكذلك يفعل بعض مندوبي العرب في اليونسكو، مع أنها منظمة تُعنى بالثقافة، والحفاظِ عليها، وعلى خصوصيات الشعوب. وهذا يقتضي أن يكون كل شيء يصدر من مندوبيها في المقامات الرسمية مبينا عن تلك الخصوصية، ومعرِّفا بها، كما يفعل مندوبو الدول التي لا تستحيي من ثقافاتها، ولا تَخْزَى من التكلم بلغاتها، ولا تبتغي العزة والحداثة والتعظم في عيون الشعوب في الفرنسية والإنجليزية. فإذا عدل المندوب العربي عن لغته، واستهان بثقافته، كان عدوله بوحي من عُقَده النفسية، ونظرته الدونية إلى ثقافته، وهو مبين عن تبعيته، وفناء شخصيته، وعشقه الظاهر والباطن لقوم، لا يعرف من تاريخهم في بلده ما يستوجب أن يودهم ودًّا ينسيه نفسه وهويته، وهو

(١) مصير وحدة الجزائر، ١٩١، والإهانة، والتلفزيون يراقب برقيات بوتفليقة.

(٢) موقع جمعية الدفاع عن اللغة العربية في تونس.

(٣) انقراض اللغة العربية خلال القرن الحالي.

(٤) اللغة العربية في الخطاب التشريعي والإداري والإعلامي بالمغرب، ٣٦٦.

(٥) لغتنا الجميلة احتفاء أممي وغربة في عقر الدار.

إنما ينوب عن الدولة المنهزمة التي لا تستحق أن تكون عضوا في منظمه، هذه غايتها؛ فليست لها ثقافة، تعتد بها، ولا خصوصية، تحافظ عليها، وترى أنها أهل لأن تُعرَض على غيرها من الدول، ويُعرَّف بها، وإنما هي لحقٌ ثقافي لمن كان يستعمر أرضها، وما زال يستعبد قلوب الملأ من أهلها. وهو يدل - فيما يدل عليه- على أن الذين يفعلونه لا ينتمون إلى أمتهم وأوطانهم، كما ينتمي غيرهم من الساسة والمثقفين إلى أممهم وأوطانهم.

وما يفعل هؤلاء تشهير بالعرب، وإشهاد للناس على رأيهم في أنفسهم، ومكانة لغتهم عندهم، وأنهم يضعون منها ما يريد العالم أن يَرْفَع، إذ جعلها لغة رسمية، وهيأ لهم مَن ينقل ما يريدون إلى من يريدون، فأبوا -على ما تقتضي العبودية المختارة- إلا أن يصطنعوا ألسنة مَن جعلتهم هذه المنظمات أندادا لهم، ويتعللون لفعلتهم بأنهم إنما يقصدون إفهام الرأي العام، كأن الرأي العام يعرف الروسية والصينية، مثلا، وإنما يجهل العربية وحدها، ولا يمكن أن يفهم ما يترجم منها كما يفهم ما يترجم من الصينية والروسية: (وكان الإنسان أكثر شيء جدلا). وقد قال جاك شيراك: «العالم لن يستمع إلى أمة تتحدث بلسان غيرها»[1]، أي إن الأمة التي تتحدث بلسان غيرها ليست بأمة، وليس لها اعتبار حضاري، ولا هوية، وإنما هي لَحَق لمن تتكلم بلسانه؛ فالأمة التي لا تؤمن بنفسها لا وجود لها، ولا يكفي أن يكون لها سفراء، ورئيس دولة، وموظفو جمارك، فإذا لم يكن لشعبها هوية، يُعبِّر عنها، فلا وجود له، واستقلاله استقلال ظاهري، ولا يدوم. والوسيلة الوحيدة لتعبير شعب عن وجوده هي الثقافة، والوعي بالهوية[2]. وإذا أبى العرب أن يتكلموا إلا بالفرنسية والإنجليزية في المنظمات الدولية التي تصطنع العربية لغة رسمية، وتهيء لهم من التراجم من ينقلون إلى العالم ما أرادوا، فمن غير الممكن أن يكون لهم اعتبار فيه.

وأدهى من هذا وأمرُّ أن يُعقَد المؤتمر في البلد العربي، فتُجعَل لغته الإنجليزية أو الفرنسية، ويكون الذي يشذ عن التكلم بهما من حاضريه من غير العرب، كما جعلوا الإنجليزية لغة مؤتمر اقتصادي، عقد في منتدى جدة

---

(1) في سبيل العربية، ١٦٨.

(2) أهمية تدريس العلوم الطبية باللغة العربية، ٣٩.

الاقتصادي عام ٢٠١٣ م، فتكلَّم بها المتكلمون، غير السفير البريطاني، فقد تكلم بالعربية[١]. وتُعقد الندوات العربية، في شأن من شؤون الثقافة العربية، فتجعل لغتها الإنجليزية أو الفرنسية، وإن كان حاضروها من العرب كلهم أو جلهم، ومن تكلم بالعربية كان محل سخرية واستهزاء[٢]. وأسوأ من هذا أن يتكلم العرب في المناسبة، لا يحضرها إلا العرب، بلغة أجنبية، كمناسبة تكريم الطبيب المغربي الخمليشي لحصوله على جائزة عالمية في جراحة الأعصاب، فقد تكلم المتكلمون من حاضريها بالفرنسية، ما عدا وزيرة البحث العلمي المغربية، تكلمت بالعربية؛ لأنها -كما قالت- لغة بلدها الرسمية، وكان من المتكلمين بالفرنسية وزير التربية الوطنية، رشيد بلمختار![٣]، وأن تَصطنع الحكومةُ العربيةُ الفرنسية في اجتماعاتها واجتماعات كثير من الوزراء والكتاب العامين والمديرين المركزيين ورؤساء الأقسام، وأن تصاغ بها القوانين والقرارات، قبل أن تترجم إلى العربية، وأن تستحوذ البرامج الفرنسية على ٦٥٪ من البرامج التي يقدمها بعض قنواتها، وتجعل أجور الصحفيين الذين يستعملون الفرنسية أضعاف أجور الصحفيين الذين يستعملون العربية[٤]. ويسمي بعض الدول العربية مدرسي العربية في مراتب وظيفية أدنى من مراتب نظرائهم في التخصصات العلمية، وبرواتب أقل من رواتبهم، وربما دونهم فيما يحصلون عليه من الحوافز، وفرص التدريب والتطوير، وتفضل مدرسي الإنجليزية عليهم في التوظيف والرواتب وما تضع من الحوافز[٥]. وأن يبدأ العربي كلامه الرسمي بالاعتذار من عدم قدرته على الكلام بالعربية؛ لأنه لا يعرفها، ويعجز عن إيصال مراده إلا بالفرنسية أو الإنجليزية[٦]. وتزور فرقة من الجيش الروسي المغرب، فتعزف النشيد المغربي، وتنشده بلغة عربية فصيحة، تَجْعل له طعما غير طعمه الذي عهد المغاربة من فرقتهم الوطنية؛ فيطرب له الجمهور، ويصفق طويلا، ثم

(١) واقع الهوية اللغوية في المجتمعات العربية بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١.
(٢) الموضع السابق، واللغة العربية وهوية الأمة في مؤسسات التعليم العالي في الأردن.
(٣) معاهدة التسليم أو الاستعمار الجديد.
(٤) حزب فرنسا في المغرب.
(٥) التحديات التي تواجهها اللغة العربية المعاصرة في تعلمها والتعليم بها في دول الخليج (المعتوق)، ٣٤٥ (عن: اللغة العربية واقعا وارتقاء، ٤٧).
(٦) العربية: وظلم ذوي القربى.

تنتقل إلى الدار البيضاء، فيرحب بها عمدتها، وعضو من اللجنة المنظمة للحفل بالفرنسية، أما رئيس الفرقة، فيقدم فرقته بعربية فصيحة، لا يعرفها وزير الثقافة المغربي![1]. ويتكلم السفير الروسي، فاليري فوروبييف بالعربية في المنتدى المغربي الروسي بالرباط، ويتكلم وزير الفلاحة، عزيز أخنوش، ورئيسة الاتحاد العام لمقاولات المغرب، مريم بن صالح بن شقرون بالفرنسية[2]. ويتكلم السفير الروسي بالمغرب، في يوم العربية العالمي بالعربية الفصحى، فيسأله مسؤولون مغاربة أن يتكلم بالفرنسية، فيعجب من سؤالهم؛ لأن لغة المغرب الدستورية هي العربية والأمازيغية، لا الفرنسية، ويقول إن الازدواج اللغوي في المغرب مأساة، فيرد عليه كاتب وزارة التربية العام بأن الوزارة تفضل أن تكون التعاليق في الندوات الدولية بالفرنسية، تسهيلا لفهم غير المغاربة[3]، وهو عذر، ليس بدون الذنب؛ لأنه يحول بين غير المغاربة وتعلم العربية، كما يتعلم اللغةَ كل من أقام بين ظهراني أهلها، ويُشْهِدهم على أن المغرب ليس بذي هوية، وإنما هو لَحَقٌ فرنسي. ويتهجّى المسؤول المغربي ما يُدلي به من قول بالعربية تهجيا، ثم تدركه الصبابة بالفرنسية، فيعدل إليها عن العربية. ويخاطب كثير من الوزراء والموظفين السامين في المغرب أهلَ المغرب بالفرنسية، إمعانا في احتقار العربية، ويتكلم بها مدير مسجد الحسن الثاني في نشرة أخبار عربية في التلفزة، كأنما يدير كنيسة في الدائرة الثامنة بباريس، لا مسجدا في قلب الدار البيضاء! وألا يكون في أغلب مقاهي الشابكة في المغرب جهاز عربي[4].

وتنتهي وساطة الجزائر فيما يعرف بأزمة الرهائن الأمريكيين عام ١٩٨١ بمعاهدة، تُكتب نسختها الإيرانية بالفارسية، ونسختها الأمريكية بالإنجليزية، أما نسختها الجزائرية، فتكتب بالفرنسية[5]. ويُلْقي الوزير الجزائري الأول في القمة الإفريقية التاسعة والعشرين بأديس أبابا كلمة الجزائر بالفرنسية، لا

(١) لماذا يحتقرونها؟.

(٢) لغات حية، ٩٧.

(٣) السفير الروسي لمسؤولين مغاربة: كيف تطلبون مني الحديث بالفرنسية؟.

(٤) لماذا يحتقرونها؟.

(٥) اللغة والهوية، ٧.

العربية لغة الجزائر الرسمية، كما ينص على ذلك دستورها[1]، وتكتب وزارة الخارجية الجزائرية رسالة إلى اليمن بالفرنسية![2]. ويلتحق بمعهد الترجمة في الجزائر العاصمة طلبة من جمهورية بورندي الإفريقية، ليتعلموا العربية، فلا يجدون من يتكلم بها، وإنما يجدون عشرات اللهجات المعقدة، تطغى على بعضها ألفاظ أجنبية لا تمت للعربية بصلة، ويجدون طلبةً وأساتيذ ومثقفين ومفكرين ودكاترة وعلماء من أبناء المجتمع يستخفون بها ويستعجلون موتها، ويتهكمون بها، ويظهرون الشك في قدرتها على مواكبة العصر ومسايرة الإبداع والتطور، متوهِّمين أنَّ لغة الثقافة والحضارة والتطوّر لا تكون إلا الإنجليزية أو الفرنسية. ويرسل «الصالون الدولي للكتاب»، في الجزائر، دعواته إلى الأدباء الجزائريين بالفرنسية. ويتعذَّر على وكلاء بعض المؤسسات الجزائرية مواصلة رفاقهم من العرب دون مترجمين. ويزور المسؤول الجزائري الكبير بلدا من بلدان المشرق العربي، فيُلْقي في الحضور كلمة بالفرنسية، فلا يفهمه إلا الوفد المرافق له[3]. وتعدُّ مصر تعلُّم اللغة الأجنبية غرضا قوميًّا، وإجادتها من شروط تولي الوزارات، كما تعدُّ دخول المدارس الأجنبية غرضا، يُسعَى في إصابته[4]. وسنرى من ذلك أشياء كثيرة، نمسك عن ذكرها هاهنا مخافة التكرار، تدل كلها على مبلغ هوان العرب على أنفسهم، إذ هانت عليهم لغتهم، على وجه ليس له نظير إلا فيمن شاكلهم من الشعوب التي ما زال يحكمها صنائع الاستعمار.

ويجعل اللبنانيون وبعض أهل المغرب العربي معامل العربية أدنى معامل في المقررات الدراسية، أو يخرجونها من حساب المعدل، فإن رسب فيها الطالب لم تخفِض معدله، أو نجح لم ترفعه، ولا يشترط اللبنانيون النجاح فيها للانتقال من صف إلى آخر، من أجل ذلك يستهين بها أكثر طلابهم، بل يحتقرونها؛ لأنهم يرونها مقصاة من أهم المقررات (العلوم والرياضيات)، مقصورة على مقررات، لا يُلْقي لها أكثرهم بالا، ولا يقيم لها وزنا، وإن أُكرهَ على التخصص فيها؛ لأنه لم يُقبَل في غيرها. وكان في التعليم اللبناني نظام،

---

(١) إرضاء لمن ندوس على لغتنا؟.

(٢) انظر: إنية وأصالة، ٢٥.

(٣) الوضع اللغوي في الجزائر: لهذا لم تستعد العربية مكانتها.

(٤) الفصحى والعامية في وسائل الإعلام، ٤.

يسمى «نظام العلامة اللاغية»، يقضي بألا ينجح الطالب في امتحان الثانوية العامة الأولى، ولو حصل على درجة النجاح، إلا أن يحصل على درجة معينة في اللغة الأجنبية[٥]، أي إنه يجعل اللغة الأجنبية في لبنان كاللغة الألمانية في ألمانية. ويذكر بعض الباحثين الجزائريين أن علامات أغلب الطلاب الناجحين في الثانوية العامة في الأدب العربي لا تزيد على ٣ من ٢٠[٦]، مع أن الدرجة الدنيا للنجاح في سائر المقررات هي ١٠ من ٢٠. وفي مصر تُجْمع درجات فروع العربية كلها، وتجعل درجة واحدة، فمن نال منها خمسا وعشرين، نجح في مقررات العربية كلها، ولو نال في بعضها صفرا[٧]. ولعل هذا من أسباب أن يجد المرء عند غير المتخصصين في العربية من المصريين واللبنانيين من الازورار عنها، والاستخفاف بها، والاعتداد بالعامية، وقلة التحرج من التكلم بها في أكثر مقامات الجدِّ، ما لا يكاد يَجِد في بلد عربي، ويشعر المرء إذا رأى المصري يتكلم بالعامية بأنه يتكلم بلغة، لا يعرف غيرها، ويرى أنه ما ينبغي أن يتكلم بغيرها، فضلا عن أن يشعر بالحرج من التكلم بها حيث يجب أن يُتكلَّم بالفصحى. ومثل هذا، بل أسوأ منه، أن الطلاب الأجانب الذين يريدون أن يتعلموا العربية يرون أن بعض البلدان العربية، كتونس، ليست هي الأمثل لتعلم العربية؛ لأن التونسيين يتكلمون معهم بالفرنسية، ويحتقرون العربية الفصحى[٨]. وإذا أراد الطلاب الأجانب الذين يدرسون العربية في جامعة الأخوين بالمغرب التحدث بالعربية مع رفاقهم من المغاربة للتمرن على استعمالها ومعرفة الثقافة المغربية، وجدوهم يتكلمون فيما بينهم بالإنجليزية والفرنسية، ويتكلمون بهما مع الطلاب الأجانب، فيستاؤون أشد استياء؛ لأنهم إنما قصدوا المغرب لأنه بلد لغته «الرسمية» العربية، وأن ذلك سيمكنهم من معرفته ومعرفة الوطن العربي، فلا يجدون في الطلاب المغاربة أثرا للثقافة المغربية، ولا سبيلا إلى معرفة الثقافة العربية[٩]. ويفد الطلاب غير العرب على القطر العربي لدراسة

---

(٥) التقرير العربي الرابع للتنمية، ٣٨٦.

(٦) الفرنسية أفسدت لغة الجزائريين وحولتها إلى أضحوكة.

(٧) لغة العرب وكيف ننهض بها، ٢٣.

(٨) الازدواجية اللغوية الأمارة، ٩٧ وما بعدها.

(٩) الأداء اللغوي والإندماج الثقافي لدى المتعلمين الأجانب للعربية.

العلوم الدقيقة، فيدرِّسونها بالإنجليزية أو الفرنسية، كأن العرب ليست لهم لغة، يعلَّم بها، وحين يفدون على قطر آخر من أقطار الأرض يعودون منه وقد تعلّموا لغته وتعلَّموا بها، ولو كان من الأقطار التي لم تكن يوما في عير الحضارة ولا نفيرها. ومثل هذا أن يَبْعث قطر عربي طلابه إلى قطر عربي، يدرسون فيه التخصصات العلمية بالعربية؛ ليستعين بهم على التعريب، فيرجعون إليه وقد أتقنوا لغة أجنبية؛ فيوظفهم فيما أرادهم لغيره[1].

ويأتي غير العربي إلى البلدان العربية، فيمكث فيها عشر سنين، ثم يمضي ولم يكلف نفسه أن يتعلم العربية؛ لأنه إذا أراد أن يتكلم بها سارع العرب إلى تكليمه بلغته أو بالإنجليزية[2]، وهو عمل يتبرم منه الذين يرغبون في تعلم العربية كثيرا، كما قال مصطفى الشهابي عام ١٩٣٥ م إن مهندسا فرنسيا حريصا على تعلم العربية ذكر له أنه قضى مدة بالشام، فكان أينما حلَّ، كلمه الشاميون بالفرنسية، حتى ودَّ لو كانوا يجهلونها؛ إذن لتعلَّم العربية في مدة وجيزة[3]. وقد رأيت من ذلك في موريتانية شيئا، ما رأيت له نظيرا في بلد عربي، فالناس يتكلمون بالفرنسية مع كل قادم، ولو كان عربيا، حتى غدا العربي الذي يقيم معهم يتعلم من الفرنسية أكثر مما يتعلم من لهجتهم العامية، ويتكلمون بها مع الزنج الموريتانيين، حتى غدت هي اللغة التي يتلاقون عليها ويتفاهمون بها بدلا من العربية، وترتب على ذلك أن ذوي النزعة العنصرية أو الفرنكفونية من الزنج يأبون التكلم بالعربية عمدا، تعصبا للغتهم أو للفرنسية، مع أن كثيرا منهم يعرفون العربية، لكنهم يكتمون ذلك، ويصرون على أن يكون ما يكلَّمون به هو الفرنسية. وأذكر من ذلك أني دخلت مرة مكتبة بنواكشوط، وكان أول من رأيت من العاملين فيها زنجيا موريتانيا، فسألته: أهذه مكتبة القرنين؟ فأشار إلي -وهو يتكلم بالفرنسية- أن سل تلك الفتاة، وكانت تعمل معه، أنفةً من أن يتكلم بالعربية. ورأيت أحد العاملين في المتاجر الكبيرة يكلم آخر بالفرنسية، فسألته: أهذا الذي تكلمه موريتاني؟ قال: نعم، قلت: فلم لا تكلمه بالعربية؛

---

(١) تعريب التعليم في الجامعات الجزائرية، ١٨٠، ومستقبل اللغة العربية بين محاربة الأعداء وإرادة السماء، ١١٦.
(٢) تجربتي في تعليم الطب بالعربية، ٧٤.
(٣) الشذرات، ١٩٨.

ليتعلمها إن كان لا يعرفها؟ قال: إن هذا (وأشار إلى رأسه ممازحا) لا يفهم! وقلت لآخر، رأيته يكلم عاملا ماليا بالفرنسية: لم تكلمه بالفرنسية، ولا تكلمه بالعربية؛ ليتعلمها؟ قال لي: إنما يجب تعليمه العربية على من يعمل عنده، أما أنا، فما يعنيني أمره!

(٢)

وكانت العربية في القرن التاسع عشر عند الحكومة المصرية كالألمانية عند الألمان، فقد أصدر الخديو عباس حلمي الثاني عام ١٨٩٣ قانونا، يقول: لما كانت العربية هي لغةَ البلاد، وكان من الواجب جعْلها أساسا للتعليم في مدارس الحكومة، وتقديمها على كل لغة أخرى، وجب أن تشتمل برامج المدارس الأميرية على أكثرِ ما يمكن من المواد التي تعلّمها؛ حتى تتأتى معرفتها معرفة تامة وأكيدة، ولا تعطي نِظارة المعارف العامة طالبا شهادةً في طور من أطوار التعليم، مهما تكن معرفته بسائر المواد، إلا إذا كانت معرفته بالعربية مستوفية للشروط المنصوص عليها في برامج الحكومة الرسمية[1]. إلا أن بين قانون عباس حلمي هذا وما فعلت لجنة الامتحان والمحاكم الألمانية فرقا، هو أن لجنة الامتحان والمحاكم الألمانية كانت تجتهد، وتبني على ما ليس صريحا من نصوص القانون، وأصدر عباس حلمي مرسوما بمنزلة القانون الصريح الذي لا يدع مجالا لاجتهاد مجتهد. ولعل نظرة عباس حلمي الثاني هذه إلى العربية هي التي جعلت سلفه يجعلون العربية لغة التعليم في المقررات كلها منذ عهد محمد علي باشا، وجعلتهم يتمادون في ذلك، إلى أن احتُلَّت مصر، وأُجبرت على اصطناع الإنجليزية مكان العربية. ومما يستوقف من مرسوم عباس حلمي هذا أن الحكومات التي يَنظر إليها بعض السياسيين والمثقفين من العرب المعاصرين نظرةً دونية، لقدمها، واختلاف حال العلم في عهدها عنه في عهدهم، كانت بهذا الوعي، والصرامة في أمر الهوية، وهم -على ما يدَّعون لأنفسهم من العلم والحداثة- يتسمون بما قد علمنا من استخفاف بالهوية، وازورار عنها.

---

(١) التخطيط اللغوي في مصر، ١٣٣.

والبلد العربي الأوحد الذي أشبه ما قد رأينا من الدول التي تعتز بلغتها هو سورية أيام الحكم العربي، فقد رافق قيام الدولة العربية في سورية شعورٌ عارم بالعزة والكرامة، فاندفع السوريون جميعا، معلمين وصحفيين، وكتابا، وأدباء، وشعراء، وموظفين، وسياسيين، في معركة التعريب، ورأت حكومة فيصل بن الحسين أنها غير جديرة بالعروبة إن لم تحكم دولة تصطنع العربية. وكان عليها أن تُحِلَّ العربية محل التركية في المدارس والدواوين كلها، وتزيل آثار التريك في اللغة والثقافة. فعرَّب مجمع اللغة العربية بدمشق الدواوين، وأصلح لغة التعليم والصحافة في مدة قصيرة، والتفَّ حوله الشعب وأنصار العربية في الأقطار الإسلامية عامة، والأقطار العربية خاصة. وامتلأت صفحات مجلته بدراساتهم وآرائهم فيما كان يُعرَض عليه[1]. والتزمت الحكومة ألا تصدر قانونا إلا بعد إحالته على المجمع، لينظر في لغته، وبقي ذلك بعد زوال الحكم العربي مدة قصيرة[2]. فنجحت التجربة، فكان لسورية من التعريب ما لم يكن لبلد عربي. وكان العرب مدفوعين فيما أنجزوا بالشعور بالتحدي، وما يرون من وجوب الفوز فيه، والخوف على الهوية، وحمايتها من الاستعمار الغربي الذي كان من أولوياته أن يُلْقيَ في روع العرب أن العربية ماتت، وأن الإسلام -كسائر الأديان- خرافة، فكانت محاولات التعريب صادرة من علماء العرب وأدبائهم أكثر من صدورها من السياسة التي ليس حتما أن تكون موافقة للشعب في مخاوفه، ولا في شعوره بالتحدي، ولا في الغيرة على الوطن والهوية؛ فقد كانت صنيعةً للإنجليز، وأمْرها لأمرهم تبع، وليس لها استقلال دونهم، وكانت هي وسائر الحكومات العربية تشترك في قلة العلم والوعي، وإن خالفتها في أن التبعية لم تحل بينها وبين شعورها القومي، فقد كانت لفيصل بن الحسين عناية بالعربية والتعريب إذ كان ملكا على سورية، فلما انتقل إلى العراق انتقلت معه، وظلَّ عليها[3]. على أن الذي أنجح تجربة فيصل في سورية هو تواطؤ عزائم الغُيُر من العرب، من شاميين، ومصريين، وعراقيين، وليبيين، ومغاربة،

(١) تجربة سورية في تعريب العلوم في التعليم العالي.
(٢) من حاضر اللغة العربية، ١٠٢.
(٣) المصطلحات العلمية في اللغة العربية، ٥٩.

وجزائريين، وحجازيين، فقد جاؤوا من بلادهم، واشتركوا في الثورة العربية بالسيف والقلم واللسان، وأعانوا على إدارة الدولة، وإنجاح التعريب؛ لأن الثورة كانت باسم العرب كافة، ولم تكن ثورة قطر؛ فكانت المعجزة التي تمت في مدة، لا تزيد على عامين (١٩١٩ - ١٩٢٠ م)، هما عمر الحكومة العربية(١). كما دعت الحكومة المختصين من العرب المقيمين خارج البلاد العربية إلى المشاركة في إنشاء الدولة والتعويض عن الموظفين الذين رحلوا مع الجيش التركي(٢). أي إن نجاح التعريب في سورية كان عملا عربيا، ولم يكن سوريا فقط. وقد سبق هذا عملٌ، كانت تقوم به اللجان القومية السرية التي كانت مهمتها توعية الشعب بعروبته، ووجوب اعتزازه بلغته وحضارته، والتحفز لردِّ ما يريد قوميو الترك من طمس هويته، فقد كانت جمعية النهضة العربية -في خطتها لصدِّ التتريك الذي تولاه الطورانيون وجمعية الاتحاد والترقي- تلتزم في لقاءاتها الكلام بالفصحى، فمن لم يستطعه حاوله، فإن شقَّ عليه، تكلَّفه، وكان بعض أعضائها يحث رفاقه على هجر الاصطلاحات التركية والفارسية حين يلعبون النرد، وأن يستبدلوا بها الأرقام العربية، فاستجابوا لهم، وكان بعضهم يسأله السائل بالعامية، فيعلمه ما يقول بالفصحى، فإن تكلم به، تصدَّق عليه(٣). وظلَّ الشعب نصيرا للتعريب، ويدافع عنه كما يدافع المثقفون، وكان يبين عن ذلك بحضور المحاضرات، ونضال الاحتلال بتكسير اللافتات المكتوبة بالفرنسية، وحَمْل الحكومة على سَنِّ ما يوجب كتابتها بالعربية من القوانين، وإجبار المدارس الأجنبية على تعليم العربية(٤). وكان من آثار ذلك أنه في عام ١٩٥٢ صدر مرسوم يمنع تسمية المحالِّ العامة والخاصة، كالأندية، والفنادق، والمقاهي، والمطاعم، والحوانيت، وما شابهها بأسماء أجنبية. وهو يدل على سبق سورية غيرها من الأقطار العربية في تحصين الحياة العامة من ضرر الدخيل(٥). واجتهد العلماء وأعضاء المجمع في التعريب، وتنقية العربية مما

(١) من حاضر اللغة العربية، ٦٨ وما بعدها.
(٢) قضايا اللغة العربية، ٨٦.
(٣) من حاضر اللغة العربية، ٣٧.
(٤) السابق، ١٤٩.
(٥) الإعلان في وسائل الإعلام، ٧٥٠.

بها من كلم أجنبي، وتنكُبوا الاصطلاحات الأجنبية في الترجمة والتأليف، كما فعل محمد جميل الخاني، الأستاذ بجامعة دمشق، في كتاب، ألّفه في الطب، سمَّاه «القطوف الينيعة في علم الطبيعة»، فقد أخلاه «من كل لفظ أعجمي، إلا بعض كلمات صارت كالأعلام، كالمتر، والغرام، من المقاييس، والمليون والمليار من الأعداد، والجول والأمبير، مما سمي باسم مخترعه»[1]. وكان عمله هذا مبينا عن «الدستور المتبع لدى كل أستاذ حاضرَ في الجامعة السورية، وألَّف في فنه»[2]، وهي السياسة التي أقلقت الاستعمار الفرنسي، فأراد ليميتها، ويستلَّ الروح الذي يخططها في المجمع والجامعة، فأدخل في المجمع من تولى ذلك. وكان من فضائل جامعة دمشقَ التي انفردت بها عن سائر الجامعات العربية أن لم يُدرَّس فيها شيء من العلوم بلغة أجنبية مذ أنشئت[3].

وظلت سورية قيادة وشعبا من أفضل الدول العربية عناية بالتعريب والحفاظ على الهوية العربية، ولها في ذلك ما ليس لبلد عربي، كالحفاظ على هوية الشارع، ومنع استعمال غير الأسماء العربية فيه، وإصدار المراسيم والقرارات التي تَشْرَع ذلك، والمراسيم التي تُلزم الطلاب وأساتيذ الجامعات دراسة العربية ومعرفتها معرفة جيدة، واصطناع لجان للتمكين للعربية في الحياة كلها، بتنفيذ القرارات والمراسيم الصادرة، وعمل ما تراه ملائما لذلك[4]. وكانت العربية تلقى فيها عناية تشبه عناية الألمان بالألمانية، فقد كان الحد الأدنى للنجاح فيها ٥٠٪، والحد الأدنى للنجاح في غيرها من المقررات ٤٠٪، وكان الطالب إذا رسب فيها وحدها أعاد العام الدراسي، ولا يعيده إذا رسب في غيرها، إلا أن يرسب في مقررين فصاعدا، وفي عام ١٩٨٣ صدر مرسوم جمهوري، يُلْزِم طلاب الجامعة كلهم دراسة مقرر دراسي في العربية طوال أعوام الدراسة[5]. وظلت كذلك إلى عهد قريب، فقد صدر -مثلا- بلاغ من رئاسة مجلس الوزراء السوري عام ١٩٩٨، بأن تَشترط وزارة التعليم العالي على الأساتيذ المسمَّيْنَ في الجامعات النجاح في

---

(١) من حاضر اللغة العربية، ١٣٤.

(٢) السابق، ١٣٤ (الهامش).

(٣) واقع التعريب من ألفه إلى يائه، ٧٧.

(٤) التجربة السورية في التعليم باللغة الأم، ٣٩٦ وما بعدها.

(٥) التخطيط والسياسة اللغوية: تجربة القطر العربي السوري، ٤٤ و ٤٧.

امتحان لغوي وكتابي في العربية، وإقامة دورات تأهيلية في العربية للأساتيذ[1].

وكان أساتيذ جامعة دمشق في العقد التاسع من القرن الماضي يعلنون لطلابهم في مبدأ العام الجامعي أنهم سيحاسبونهم في الامتحان على الأخطاء اللغوية وركاكة الأسلوب، وينهون الإعلان بقولهم: لا يفاجأ الطالب الذي أجاد في الامتحان، من حيث المادة العلمية، برسوبه، فإنما مرد رسوبه إلى ضعفه في اللغة، وعدم إتقان التعبير السليم[2]. غير أن العربية في سورية لم تزل في انحدار، حتى كادت تنتهي إلى ما انتهت إليه في سائر الأقطار العربية، وإن ظل التدريس فيها بالعربية في الكليات العلمية، فقد دخل في عداد المدرسين في ربع القرن الأخير -بسبب الحاجة إلى الأساتيذ- كثير ممن لا يحسنون الكلام بالفصحى ولا أَلِفُوه، فصارت المحاضرات تُلْقَى بالعامية في كثير من الكليات، حتى كلية الطب، بعد أن كان من أعرافها أن يكون المدرس فيها متمكنا من الفصحى. وسرى هذا الداء إلى أمالي بعضهم، فصارت نصوصا تكاد تكون فارغة من المعنى؛ لأن مؤلفيها لا يحسنون البيان[3]. ومعنى هذا أن العرب كانوا يتجهون إلى الأسوأ، وأن الذي كان يُرجَى أن يكون مثلا يُسْكَت به من يشكك في صلاحية العربية للعلم، كان يتراجع إلى صنيع الذي يعاديها ويستهين بها، ليصدِّق ما يقال فيها. وهو أمر كان يطَّرِد هو وضعفُ العرب، واستسلامهم، وضعف الشعور القومي الإسلامي فيهم. ولا غرو، فإذا كانت اللغة من السياسة، فلن يكون حال الجزء خيرا من حال الكل، فإذا قويت السياسة واستقلت، وملكت أمرها، عزَّت اللغة، ونالت مكانتها التي تليق بها، فإذا ضعفت واستسلمت كان لزاما أن تضعف وتنخزل حيث تنخزل السياسة. وقد انتهت السياسة اللغوية السورية في عهد بشار الأسد إلى حال كانت فيه أسوأ من حالها في عهد أبيه، كما انتهت في عهد أبيه إلى حال أسوأ مما كانت عليه قبله.

وذكر المرحوم الدكتور علي فهمي خشيم، رئيس مجمع اللغة العربية الليبي السابق شيئا يجعل ليبية أقرب البلدان العربية إلى سورية، في التعريب، من

---

(١) اللغة العربية بين مهددات الفناء ومقومات البقاء، ٩٧.

(٢) اللغة العربية: قضايا الواقع والمعاصر، ٤٠.

(٣) في سبيل العربية، ٥٢.

حيث الجد فيه، والغيرة على العربية، فقال إن التعريب بدأ منذ الشهر الأول لقيام الثورة الليبية، فكانت جريدة «الثورة» تُظْهر على الصفحة الأولى منها قرارات بمنع استعمال المفردات الأجنبية في الأوراق الرسمية منعًا باتًّا، ومَنْ خالفها عرَّض نفسه للعقاب. كما صدر الأمر بمحو كل كتابة على اللافتات وألواح الإعلانات بغير العربية، واستبدال التسميات العربية بالتسميات الأجنبية للمتاجر، والمقاهي، والصيدليات، وما إليها. وكانت تُنشَر في الصفحة الأولى من صحيفة «الثورة» التي صدرت بُعيْد ثورة الفاتح جداول بـ»قل ولا تقل»، تذكر اللفظ الأعجمي وما يقابله بالعربية، لتنقية العربية من الدخيل. ودام ذلك أعواما، حتى صار المرء لا يجد أثرا للغات الأجنبية في طول البلاد وعرضها، وبلغ أمر التعريب العامِّ مداه بإبطال استعمال كل حرف أعجمي في الأوراق الرسمية، حتى الموجَّه منها إلى السفارات والشركات الأجنبية، وكذلك الجوازات الليبية، فقد كانت مكتوبة بالعربية وحدها، وطُلِب من كل أجنبي يبغي دخول البلاد أن يكون جوازه مكتوبًا بالعربية مع لغة بلاده، ثم سُهِّل الأمر بقبول ملصق بالجواز رسمي، يحمل ترجمة عربية لما يحوي من معلومات. وكان يَسند هذه السياسة الحازمةَ قرارٌ ثوري حاسم؛ فلذلك أثمرت إثمارا يدعو إلى الإعجاب؛ فصار مما يَستنكِف منه الليبي أن ينطق لفظًا، يعلم أنه أجنبي، إلا ما سقط إلى العامية، فصار منها من غير أن يُعرَف مصدره. وبلغ التعريب الفلاحين، فصاروا يقولون مضخة الماء، بعد أن كانوا يقولون (بومبا)، وتسمع بائع الفاكهة يسمي نوعًا من البرتقال الحسناء، بعد أن كان يدعوه «بيلادونا»، وهي كلمة إيطالية، معناها: السيدة الجميلة، وعُرِّبت الرياضة تعريبا تاما[1].

غير أن التجربة السورية كانت فريدة في الوطن العربي، بسبب مواطأة الحكومة السورية إرادة الشعب، وموافقتها إياه في وجهته، أما سائر الحكومات العربية، فكان الغالب عليها مواطأة الاستعمار على خلاف ما تريد الشعوب، وكان بعضها معاديا للعربية والتعريب، وهواه تبع لإرادة المستعمر. هذا إلى أن بعض مثقفي العرب والمتعلمين منهم لم يكونوا بالوعي الذي يجعلهم يدركون أهمية التعريب، وما تقتضي من جدٍّ في إنجازه، بل كانوا يرون أن

---

(١) العامية الليبية من فصيحة تدرجت إلى دارجة تفصحت، ١١ وما بعدها.

اللغات متساوية، وليست بأكثر من وسيلة إبلاغ، وأن امتلاك ناصية العلم مشروط بتعلمه بلغة أجنبية؛ لأن أهلها أعلم، والعلم فيها أعرق، وأسرع تجددا، والمراجع أكثر؛ فكان سعيهم في عرقلة التعريب من أجل ذلك والصدّ عنه، على وجه يشبه العداوة الصريحة، وعدُّه بابا من أبواب التخلف، والحؤول دون العلم. فقد أصدر محمد حسين هيكل -مثلا- لما ولِي وزارة المعارف عام ١٩٣٨ مرسوما بتعريب التعليم، فاستنظره أساتيذ الطب بجامعة القاهرة عشرة أعوام، يعرِّبون فيها الاصطلاحات، بيد أنهم ما صنعوا شيئا، وإنما كان استنظارهم تملصا من إمضاء ما رسم به؛ فقد علموا أنه ما كان ليمكث في الوزارة تلك المدة، وأن آخر ما قد يفكر فيه من يخلفه إمضاء مرسومه[١]. وكان ما فعلوا بعيدا مما فعل الترك، فإنهم -لما جعل السلطان العثماني محمود الثاني الفرنسية لغة الطب، وعهد بتعليمه إلى أساتيذ من جنسيات شتى، وقال قبل نحو مائة عام من مرسوم محمد حسين هيكل: إنه ليس بوسعنا أن نجعل التدريس الآن بالتركية، وأَعِدكم أن يتم التتريك في القريب العاجل- سخطوا عليه، وعارضوا قراره، وكان في طليعة الساخطين طلاب الطب، وكانوا يبينون عن رغبتهم في أن يدرسوا بالتركية في كل مناسبة، وناصرتهم الصحافة، ونعتتهم بالطلاب المجاهدين، فلقيت دعوتهم قبولا عند السياسيين، ومنهم أسعد باشا، رئيس الشورى العسكرية، فاستدعى ثلاثة من كبار الأساتيذ الأجانب، فسألهم عن التدريس بالتركية واللغة الأجنبية أيهما أجدى، وأعْوَدُ بالنفع على الترك، فقالوا: التركية. فأمر بالتتريك، وشَرع يُعِدُّ له العدة، فألَّف جمعية، تضم كبار الأطباء، عُرِفت بالجمعية الطبية العثمانية، من أهم مهامها وضع الاصطلاحات الطبية بالتركية، فاستغرق تتريك الطب خمسة أعوام. وحضر السلطان عبد الحميد بنفسه امتحانات التخرج، من عنايته بالتتريك[٢]، فاقتحم الترك العقبة، وتخلصوا من العقدة التي خلَّدها أساتيذ الطب المصريون في مصر وغيرها من الأقطار العربية. وكذلك تفعل الشعوب الحرة الأبية، الواثقة بنفسها، التي تتأبى على التبعية والهوان، والشعوب التي ترى أنها دون أن تستقل بشيء من تبعات

(١) إنية وأصالة، ٨١.
(٢) تعريب علوم الطب، ٦٥٣ وما بعدها.

الحياة، وإنما خُلِقت لتَتْبَع وتحاكي. وفرَّست حكومة إيران الحياة بضغط من الحركة الوطنية، فعُمِّمَ استعمال الفارسية، ودُرِّس الطب بها منذ عهد الشاه رضا خان[١]. وقد نبه أحد الباحثين على أن معظم محاولات التعريب تمت خارج الجامعات العربية: قام بها مجمع اللغة العربية في القاهرة، وجامعة الدول العربية، ولا سيما الإدارة الثقافية والمنظمات المتخصصة، والمجمع العلمي العراقي، والمجمع المصري للثقافة العلمية، ومجمع اللغة العربية الأردني، والاتحادات العربية المتخصصة، والاتحاد العلمي العربي، ما عدا الجهود التي قامت بها جمعية خريجي كلية العلوم بجامعة القاهرة، ومجلة رسالة العلم، وبعض جهود أساتيذ الجامعات الفردية[٢]. وهو يدل على معارضة الجامعات العربية للتعريب، وتجاهلها ما أنجزت تلك المؤسسات من أعمال، تعين عليه، أو عدم تحمسها له، في أحسن الأحوال، كما يدل على ضعف انتمائها الحضاري، وقلة الوعي والنضج الفكري في أساتيذها، وسلبيتهم تجاه القضايا الوطنية الكبرى، كقضية التعريب، وصدودهم عن تحمل ما يتحمل نظراؤهم في جامعات العالم، من جلائل الأمور، كتوطين العلم، بنقله إلى اللغات الوطنية. ولسنا نفتئت لا على الجامعات ولا على أساتيذها، وإنما نصف واقعا. وبسبب هذه السلبية، وضعْف الانتماء الحضاري كان رفض تعريب التعليم الجامعي، والإصرار على التدريس باللغات الأجنبية مما تكاد تنفرد به الجامعات العربية، فإن التعليم الجامعي في جل دول العالم إنما يكون باللغة القومية ما عدا بعض مستعمرات فرنسة وبريطانية في آسية وإفريقية[٣].

وما كانت الاصطلاحات تعوز أساتيذ الطب المصريين، ولا كان ما في حوزتهم منها أقلَّ مما كان في حوزة الفرس والترك، لَمَّا أرادوا تتريك الطب وتفريسه، فقد كان تتريك الطب شبه تعريب، إذ كان ٩٠٪ من اصطلاحاته عربيا[٤]، و٦٥٪ من اصطلاحاته بالفارسية عربيا[٥]، ولهذا قال أحد الإيرانيين للكاتب

---

(١) التعريب في الجزائر، ١٤٧.
(٢) التدريس باللغات الأجنبية في الجامعات المصرية، ١ وما بعدها.
(٣) السابق، ٢.
(٤) تعريب علوم الطب، ٢٥.
(٥) مستقبل العربية في سوق اللغات.

الجزائري الشهير، الدكتور عثمان سعدي مرة: إذا عرّبتم الطب في الجزائر، فستجدون معجم الطب الفارسي نعم المعين؛ لأنه يضم كثيرا من الاصطلاحات العربية[1]. وكذلك الشعوب الجادة، لا يحول شيء بينها وبين ما تريد، وتسعى في إزالة ما يعترض سبيلها، وتخترع الشعوب غير الجادة من التعلات والمعاذير ما تسوغ به ما رضيت لنفسها من العجز والكسل، فقد اخترع الفييتناميون ربع مليون كلمة في عشرين عاما، من غير أن يلجؤوا إلى الاقتراض من الإنجليزية أو الفرنسية، كما يفعل العرب، على غناهم عنه، وافتقار الفييتناميين إليه، وكانوا إذا لم يجدوا في الفييتنامية مادة للاصطلاح بحثوا في الصينية[2]؛ لأنها من فصيلتها، وقريبة منها، فأفادوا منها ما أفاد الفرس والترك واليهود من العربية[3]؛ أما الذي كان -وما زال- يعوز المصريين، ويعوز غيرهم من العرب، فالعزة الحضارية، والأنف من التبعية، والهمة، والإرادة، والثقة بالنفس. لقد عارض الترك والفرس حكوماتهم فيما أرادت من تبعية للغرب، وحملوها على توطين العلم حملا، وعارض المصريون حكومتهم فيما أرادت من التعريب، والتقدم والاستقلال، فحملوها على تخليد ما صنع بهم عدوهم (بريطانية) حملا.

وقبْل مرسوم محمد حسين هيكل بأعوام قليلة (في أوائل العقد الثالث من القرن العشرين) افتتحت الجمعية اليهودية الألمانية معهد التخنيون (التقنية) في حَيْفَا، وارتأت أن تصطنع الألمانية لغة للتدريس فيه؛ لأن العبرية غير صالحة له، فأضرب المعلمون والتلامذة، واستقال كثير من العاملين في المدارس الألمانية، وعدُّوا ذلك إهانة لليهود في فلسطين، وأنشؤوا مدارس عبرية، بدلا منها، فأذعنت لما أرادوا، ورجعت إلى التعليم بالعبرية[4]. ولما احتلَّ البريطانيون فلسطين عام ١٩٢٠ أصدرت حكومة الاحتلال عملة، نُقِش عليها اسم فلسطين بالإنجليزية والعربية دون العبرية، فكتب أليعازر بن يهودا إلى الحاكم البريطاني:

---

(١) التعريب في الجزائر، ١١٥.

(٢) اللغة والهوية، ٣٧.

(٣) محاضرات في تاريخ الاصطلاحات الفلسفية العربية، ١٦١.

(٤) السابق، ٢٩. وورد في محاضرة للدكتور إسحاق الفرحان بمجمع اللغة العربية الأردني أن هذا ورد في وثيقة، وقّعها موشيه شاريت، ودون خوس، وإلياهو كولومب عام سنة ١٩١٣، وأن الوثيقة في صفحة ٣٣٢ من الموسوعة اليهودية بالعبرية، ومترجمة إلى الإنجليزية. (تجربة مجمع اللغة العربية الأردني في تعريب التعليم العلمي الجامعي).

إنها لإهانة قومية أن تكون العبرية في منزلة دون منزلة العربية والإنجليزية، فلما أصدر العملة بعد ذلك، نقشها باللغات الثلاث: العربية، والعبرية، والإنجليزية، وكان ما كُتب بالعبرية «ريتْس إيزراييل»، أي أرض إسرائيل[1]، مع أن العبرية كان قد أتى على موتها نحو من ثلاثة آلاف عام. بيد أن الحقيقة اللغوية تقول إن كل لغة صالحة لأن تكون لغة للعلم، ولكنها تحتاج إلى سياسة وتخطيط، وثقة، وصبر، ثم يبلغ بها أهلها ما أرادوا، أما الاشتراط عليها، فلا يكون إلا سببا في قتلها. ولم ينظر الترك، والفرس، واليهود، والفيتناميون إلى لغاتهم بعين الازدراء، ولا عدوها لغات عقيما، ولا راغوا عنها إلى غيرها من اللغات، يبغون العلم والتقدم فيها، مع أن فيتنام كانت مستعمرة فرنسية، ثم أمريكية، أما اليهود في فلسطين، فقادمون من بلاد شتى، منها أوربة الغربية وروسية، وكان في وسعهم أن يصطنعوا واحدة من لغاتهما، كالإنجليزية، والفرنسية، والألمانية، والروسية، وهي أكثر تقدما وصلاحية للعلم من لغة ميتة. ويرى بعض الباحثين -إلى ذلك- أنها مسروقة، وأنما هي خليط من اللهجة التي كتبت بها التوراة قديما، و«اليِدِش»، التي هي خليط أيضا من البولونية والألمانية والروسية، ومنهم من يرى أن اليهود سطوا على كثير من مفردات الأكّدية، والكنعانية، والآرامية، وغيرها، فأدخلوها في هذا الخليط لإيهام من لا يعرف حقيقتها، وآية ذلك أن من يتكلمون بها إذا أرادوا أن يقرؤوا التوراة لم يستطيعوا، إلاَّ بعد دراسة وتدريب[2]، وليست هي عبرية التوراة، ولا العبرية التي تحمل تراث اليهود القديم في المشرق والمغرب، قبل الإسلام، وبعده، وإنما هي لغة مصنوعة من عشرات اللغات واللهجات، يُلزَمها المهاجرون إلزاما[3]، وكانت مهملةً إلى

---

(١) تعريب العلوم – القضية، ٢٠٠.

(٢) هل توجد لغة عبرية قديمة في الواقع اللغوي الشرقي القديم؟، ٢٥٨ وما بعدها.

(٣) لغتنا العربية والسياسة، ٣٠. وهذا يبين خطأ قول أحد العرب المعاصرين إن اللغة التي سلمت أكثر من غيرها من الاندثار ولم يلحقها ما لحق غيرها من عوامل الهدم والانحلال هي العبرية، فقد ظلت حاملة علاماتِ تسميتها الأولى، ففي قاعها يترسب جانب مهم «من المعرفة الإلهية الصامتة، ومن قرارها ينبعث صوت شج خافت، يرجِّع أغنية العالم القديمة، أغنية الخلق الأولى. وكما أن الإله وضع في الكون أشياء تحمل توقيعه، وتنطويَ على سره وحكمته، ودعانا إلى تعرُّفها بفك رموزها ومستغلقاتها، ووضعَ الحكماء في الكلمات أسرارا، وضمنوها حكما وحقَائق سرمدية، فكانت العلاقة بالكلمات والنصوص بمنزلة العلاقة بالأشياء، وكان على الدارس أن يتدبر أمر الكلام، ويكشف ألغازها، ذلك أن الحكماء لا يفصحون عن أسرار الطبيعة إفصاحا، وإنما يتوسلون بطرق وفنون من الكلام، تعدل عن أساليب الكلام المألوفة، ومسالك البيان المعهودة تأنقا واستثارة للفكر» (النقد العربي الحديث ومدارس النقد الغربية، ٣٣).

وقت قريب من الفتح الاسلامي، وكان كثير من اليهود لا يفهمونها[1]، «كان أليعازر بن يهودا يأخذ لها من العربية ما يستعين به على نقل العلم إليها، لكنه كان يدَّعي أن ما يأخذ منها عبري الأصل؛ لأنه سامي، فهو ملْك لليهود، فقد قال مرة، يخاطب اليهود في فلسطين: لقد عثرت بكثير من المفردات العبرية، لا أخفي عنكم أين وجدتها، لقد وجدتها في المعجمات العربية، وهي ليست بعربية خالصة، وإنما هي سامية، وهي عبرية أيضا، إنها ملكنا، لقد فقدناها، وها نحن أولاء قد عثرنا بها، نعم، ربما أصاب بعضَها تغيرٌ في الشكل، لكن إذا غيرناها قليلا، وأعطيناها صورة عبرية، فسيعرفها كل من رآها، إنها البذور التي باركها الله. أقترح على مجلس العبرية أن يصدر بيانا، يعلن فيه أن الكلمات ذات الأصول العربية، ما عدا ما ليس ساميا منها، عبرية أيضا، وعلى المجلس أن يجتهد في جمع الأصول التي ليست في لغتنا الآن كلها من المعجمات العربية[2]. وكان يعوِّل فيما يضع من اصطلاحات على «القاموس المحيط»، و«لسان العرب»، فيأخذ أصل الكلمة العربية، فيزيد فيه سوابق أو لواحق من العبرية[3].

لقد صنع اليهود لغة، لتكون لهم هوية، ونسبوها إلى التوراة ليكسبوها قدسية، تعلِّقهم بها، وتجمعهم عليها، وأخذوا لها من العربية ما عوضوا به فقرها، ويفعل العرب بالعربية ما نعلم! وهذا يدل على ما بين العُصَب الوطنية التي تستعجل التقدم، وتبصر طريقه، وتَعْلم أنه غير التغرب والاتباع، وهي -بعد- تعتز بهويتها، وتعي مكانة اللغة منها؛ فهي تجدُّ في توطين العلم، وتأبى أن تتوسل إليه بلغة أجنبية، قد علمت أنْ لا توصلُ إلى غير أهلها إلا قشوره، والعصب العربية التي أضاعت قلوبها، وخُطِفت عن نفوسها، ورضيت بـ«العبودية المختارة»، فلا تعتز إلا بما شَدَت من لغة غيرها وثقافته وعلومه، وترضى أن تعيش أبدا على ما يسقط إليها منها، على ما يكلِّفها، كما يرى بعض ساستها أن يعيشوا على ما يُلْقَى إليهم من مساعدات الغرب، على ما تكلفهم

(١) أثر اللغة العربية في إسهامات اليهود والنصارى في الأندلس أثناء عهدي الخلافة والطوائف، ٥٠١.
(٢) اللسان العربي: الهوية، الأزمة، المخرج، ٢١٩.
(٣) اللغة والهوية، ١٤، ومولود قاسم، ١٣٥.

من ذل، وهوان، وتبعية. كذلك يُفْهَم مِن فعْل أساتيذ الطب بمصر، واجتوائهم التعريب، وحرصهم على تأخيره، بكل وسيلة. فهم، إذ لم يُتْرك لهم خيار فيه، أرادوا أن يؤخروه ما استطاعوا، لعل أمرا يحول دونه، أو يصرف عنه، كأن يخلف محمد حسين هيكل من لا يسألهم تعريبا، ويرتضي منهم ما يرتضون؛ لأنه يوافقهم في هواهم. وما زال جل المتخصصين في العلوم الطبيعية في الجامعات المصرية والعربية يرون رأي أساتيذ كلية الطب في عهد محمد حسين هيكل، مع ما لمصر -خاصة-، والعرب -عامة- من تراث علمي عظيم، كتراث مدرسة قصر العيني، وقد درَّست الطب بالعربية ما يزيد على ستين عاما، فضلا عما ترجم المصريون منذ أيام محمد علي، من معجمات فرنسية، وألَّفوا من معجمات علمية مزدوجة اللغة، واستخرجوا من كتب التراث من اصطلاحات، ضمُّوها إلى المعجمات المؤلفة والمترجمة، كما استخرجوا ما في «القاموس المحيط» من ألفاظ الأمراض والنبات والحيوان والمعادن، وأدخلوا ذلك في بعض ما ترجموا من المعجمات الفرنسية، وضموا إليه ما في «القانون»، لابن سينا، و«تذكرة داود الأنطاكي»[1]. هذا إلى تراث مدرسة الألسن، وما عرَّبت وعرَّب مجمع اللغة العربية بالقاهرة، منذ شرع في العمل عام ١٩٣٤ م، وما عرَّبت كلية الطب ومجمع اللغة العربية بدمشق، منذ أسس عام ١٩١٩ م، أي قبل مرسوم محمد حسين هيكل بنحو من تسعة عشر عاما. وقد قدَّر بعض المؤرخين الكتب التي ترجمها خريجو مدرسة الألسن بألفي مجلد، بين مخطوط ومطبوع[2]، كان نصيب الطب منها في عهد كلوت بك ستة وثمانين مرجعا طبيا، ترجمت من الفرنسية، فكانت أول مكتبة طبية عربية، وأكبر مكتبة طبية في العالم، تُرجمت من لغة إلى لغة[3]. وهو -كما لا يخفى- تراث جيد، يمكن أن يُبنى عليه كما بنى عليه أساتيذ جامعة دمشق، فقد أقروا بأنهم أفادوا منه كثيرا من الاصطلاحات والأساليب، وأفادوا منه في وضع ما ألَّفوا من المعجمات، كالمعجم الموحد. وكانت كتب المصريين تشهد بالمنزلة العلمية

---

(١) تعريب العلوم.

(٢) تاريخ الترجمة والحركة الثقافية في عصر محمد علي، ١٤٧.

(٣) العلم واللغة: متى يتكلم العلم العربية؟، ٤٠.

الرفيعة التي بلغها الطب في عهد محمد علي، وإنما سارت دمشق في أثر القاهرة في تعليم الطب بالعربية، وكان ذلك في مطلع القرن العشرين، أي بعد ما يزيد على تسعين عاما من مأثرة القاهرة المجيدة[1]. وهذا يعني أن مصر كانت مؤهلة للتعريب والريادة في الطب مرة أخرى أكثر من سورية، بيد أن همم المستأخرين من أساتيذها كانت دون همم المستقدمين، والفكر غير الفكر، والسياسة غير السياسة، فقد بنى المستقدمون، وأسسوا، وأصَّلوا أصولا كان من اليسير أن يبني عليها المستأخرون، ويستعيدوا لمصر ما كانت عليه من تقدُّم، واستيعاب للطب وغيره من العلوم. ولم يكن أساتيذ كلية الطب بدمشق أعلم بالعربية، ولا أقدر على التعريب من أساتيذ جامعة القاهرة، فقد كان قليل ممن بدؤوا التعريب هم الذين يعرفون العربية، كأمين المعلوف، وعبد الرحمن الشهبندر، ومرشد خاطر، وأحمد حمدي خياط، وعبد القادر سري، أما سائرهم، فإنما درسوا في المدارس التركية، ولكنهم تعاهدوا جميعا على التدريس بها، وأقبلوا على تعلم ما لا يعرفون منها، حتى بلغوا منها ما أرادوا[2]. وهذا بعينه ما فعل أساتيذ الطب الفييتناميون، فلم يكونوا على علم بالفييتنامية، وكانوا قد دَرَسوا بالفرنسية، ودرَّسوا بها، ولبثوا عشرات السنين وهم يتكلمون بها، لكن الإيمان بالقضية، والإصرار عليها سهَّلا الوعر، ويسَّرا العَسِر، فضْلا عن عزْم الرئيس هوشه منه وحسْمه، وقد لقوا عنتا من فتنمة العلوم، -كما يبدو مما قال مدير جامعة هانوي، من أن كل من كانوا في الجامعة ما كانوا يستطيعون التكلم بلغتهم بطلاقة، وكانوا يجدون حرجا من استعمالها في البيان عن فكرة طويلة ومعقدة، وكانوا يفكرون بالفرنسية، ثم يترجمون ما يريدون إلى الفييتنامية ترجمة ركيكة[3]، ويكتبون الأسئلة بالفرنسية، فتستغرق كتابتها يوما أو نصف يوم، ولكنهم يقضون أياما كثيرة في ترجمتها إلى الفييتنامية. وكان بعضهم يعدون محاضراتهم بالفرنسية، ثم يترجمونها مستعينين بالمعجم[4]. وشبيه بهذا ما فعل مصطفى بن يخلف في تعريب علم الإحصاء، فقد تعلَّم في ثانوية مغربية مزدوجة اللغة، ثم سافر إلى

---

(١) في سبيل العربية، ٤٣.
(٢) انظر: السابق، ٤٤، ومن حاضر اللغة العربية، ٦٧، والمصطلحات العلمية في اللغة العربية، ٦٥.
(٣) اللغة والهوية، ٤٥.
(٤) السابق، ٤٨ وما بعدها.

فرنسة وأمريكة، فلبث فيهما اثني عشر عاما، ما يتكلم إلا بالفرنسية والإنجليزية، فلما رجع، كان يشق عليه أن يتكلم بالعربية، بيد أنه لما همّ بتعريب الإحصاء اقتحم العقبة، فدرَّس بالعربية في المعهد الوطني للإحصاء بالرباط، بعد أن كان عسِرًا عليه أن يتكلم بجملة فصيحة، فكان ذلك مما يعجب منه أصدقاؤه، ثم حضَّهم على أن يسلكوا سبيله، ففعلوا، فنجح ونجحوا[1]. ولما قوّم الفييتناميون عملهم، كانت النتيجة ما قال نغوين فانْ هوين: بعد بحث ودراسةٍ وجد كثير من المعلمين في اللغة الوطنية كلماتٍ لها قوة تعبيرية عظيمة، قادرة على ترجمة المفاهيم العلمية، ومنها مفاهيم العلوم الطبيعية. وتبيَّن أن بعض الاصطلاحات المخترعة من كلمات فييتنامية أدق من الاصطلاحات المرادفة لها في لغات البلدان المتقدمة[2].

ومن وازن بين ما انتهت إليه تركية، وإيران، وفييتنام واليهود في فلسطين المحتلة، وما انتهت إليه مصر، عَلِم ما جنت أيدي أساتيذ الطب والعلوم المصريين على مصر من تخلُّف، وما شادت أيدي أولئك من تقدم، مع أن ما جنى المصريون كان -وما زال- تُدَّعى له الدعاوي التي أثبتت تجارب أولئك وغيرهم تهافتها، وقصور أهلها الفكري، على ما يدَّعون من عكس ذلك. وإنما كان يستكنُّ في نفوس المصريين أمران: الكسل، وعقد نفسية، حالت بينهم وبين التفكير في التعريب، ما كان يحلها إلا صرامة كصرامة محمد علي باشا، وهو شيء منه، ولن يحلها إلا القرار السياسي الصارم الذي لا يُنْظِر، ولا يستشير كَسِلاً عليمَ اللسان، بصيرا بتوليد كل متهافت من التَّعِلاَّت والمعاذير، ولا عدوًّا للتعريب، ينتحل منطق العلم عند من لا يعرفه؛ فإن من يقول: إننا مدينون بالعلم الحديث لأوربة، ومدينون لها بمدنيتنا الحاضرة، خيرِها وشرِّها، وسنظل مدينين لها أجيالا، راغبين أو كارهين، وسنظل بحاجة إلى لغتها، راضين أو رافضين، فإذا أخذتنا نعرة كاذبة آثمة لطلب إبعاد اللغة الأجنبية إبعادا، فإنما نكون قد جدعنا أنوفنا لننتقم من وجوهنا، وأغلقنا الباب إلى العلم، وهذا منتهى ما

---

(١) مصطفى بنيخلف يتحدث عن تجربته في تعريب سلك مهندسي الإحصاء، ٣٤.
(٢) اللغة والهوية، ٣٧.

يتنماه مخاصم خصيم[١] -مبتلى -على تذاكيه- بقصور فكري، وعقد نفسية، ومثله لا يعرِّب مختارا. فالحضارة الأوربية صنعتها أمم كثيرة، وليست حجرا محجورا على الأوربيين، فعلْم الحساب -مثلا- إنما ابتدعه العرب، ثم تلقفته أمم الأرض كلها، وتاريخ العلم والتقنية نتاج شعوب وأجناس شتى، في إفريقية وآسية، وأوربة وأمريكة وأوستراليةَ[٢]. على أن الانتفاع بها -إن قُدّر أنها وحي نُزِّلَ على الأوربيين من دون الناس- ممكن بغير التخلي عن النفس واللغة والهوية، وقد تقدَّمت بلاد كثيرة من غير أن تصطنع لغة أوربية، كاليابان، فكثير من علمائها لا يعرفون لغة أوربية، ولا يستعملون ما يعرفون منها في غير البحث العلمي، إذا احتاجوا إليه. وهذه الجبرية اللغوية تدل على مبلغ تمكن التبعية من نفوس بعض العرب، كما تدل على أن بعض مثقفيهم يعرض لقضايا، ليس له من العلم والفكر ما يؤهله للنظر فيها. ثم إن اصطناع اللغة الوطنية لا يعني الإعراض عن اللغات الأجنبية، وما أعرف من أنصار التعريب من قال بإهمال اللغات الأجنبية، أو زهَّد في تعلمها، أو عمل بمقتضى ذلك، منذ كلوت بك إلى اليوم، وإنما فرَّقوا بين تعلم اللغات والانتفاع بها في البحث العلمي، والتعليم بها، وميزوا الاستعمال الذي ينال من الهوية من الاستعمال الذي لا ينال منها. فقد أنشأ كلوت بك قسما لتعليم الفرنسية في مدرسة الطب؛ ليمكِّن الطلاب من دراسة الطب في مصادره، بعد أن كانت دروس الطب يلقيها أساتيذ أوربيون، معظمهم فرنسيون، وتترجم للطلاب. وكانت له إلى ذلك غاية أخرى، هي القضاء على الإيطالية، وإحلال الفرنسية محلها[٣]. وكانت الفرنسية تدرَّس في المدارس الصناعية بمصر كلها في عهد محمد علي، ومنها مدرسة الكيمياء، والمعادن، وغيرها[٤]. وما يزال أشد العرب تعصبا للتعريب يرى حتما أن يُعلَّم الطلاب لغة أجنبية، تعينهم على متابعة جديد العلم، بل قال الدكتور محمد توفيق الرخاوي، وهو واحد من المجاهدين في التعريب: لم أناقش تعريبيا واحدا إلا وجدت منه حماسة مفرطة لأن نتعلم جميعا لغة أجنبية واحدة -في الأقل-

---

(١) أزمة التعريب، ٣١.
(٢) تصفية استعمار العقل، ١٢٧ وما بعدها.
(٣) تاريخ الترجمة والحركة الثقافية، ١٣.
(٤) أثر الثقافتين الفرنسية والإنجليزية، ٥١.

تعلما حقيقيا، يمكّننا من أن نقرأ بها، ونفهم منها، ونعامل الأجانب، فالتعريبيون عامة - يعلمون، ويقرّرون، ويكادون يُقسمون (غير حانثين) أن التعريب وتعلّم لغة أجنبية (تعلّما حقيقيا) يجب أن يكونا فرسي رهان، وهم أشد حماسة من كثير من أنصار التعليم باللغات الأجنبية لتدريس اللغات الأجنبية، لا للتدريس بها[1]. وقال الدكتور موسى الشامي: نحن مع الانفتاح على اللغات، وآية ذلك أن كثيرا من أعضاء مكتب الجمعية المغربية لحماية العربية أساتيذ للفرنسية، لكننا حين ندعو إلى الانفتاح الذي اختارته الدول المتقدمة كلها، ندعو إليه مع الحفاظ على هويتنا وخصوصيتنا اللغوية، والانفتاح -إن كنا صادقين فيه- إنما يكون بحسب مصلحة بلدنا[2]. فالذي يختلف فيه دعاة التعريب ودعاة التغريب أن دعاة التغريب، إذ يصرون على التعليم بلغة أجنبية، إنما يريدون إخراج العربية من الحياة واستبدال اللغة الأجنبية بها، فهذا هو مقتضى دعوتهم وما يفعلون، علموا أم لم يعلموا، وحسنت نياتهم أم ساءت، ويريد دعاة التعريب أن يمكَّن للعربية في الحياة، ولا سيما التعليم والإدارة، وتُرْفَد بما في غيرها من اللغات من جديد العلم، فدعاة التغريب يخالفون ما يفعل جُلُّ دول العالم، وما يريد دعاة التعريب هو ما تفعل. ومن الدول التي تفعل هذا فرنسة، فعلمها بأهمية التمكن من الإنجليزية في مراكز البحث العلمي لاستيعاب المعرفة المكتوبة بها لم يصرفها عن لغتها والتعليم بها، بل أبقى على الفرنسية لسانا للتقنية الفرنسية، ولغةَ إنتاج وتصدير، وأتاح لها أن تتعلم الإنجليزية لتتزود ما فيها، وليس لها خيار غير هذا، إن أرادت أن تبقى هي فرنسة[3]. وكذلك تفعل الدول الإسكندنافية[4]، واليابان، وكورية. وهو يدل على تفكير واستبصار، وحرص على الإفادة من اللغات الأجنبية إفادة صحيحة، لا تنال من الهوية، ولا تصادم الفطرة التي قضت بأن المرء لا يخلص إلى عقله العلم خلوصا تاما إلا أن يكون بلغته. وهو عكس ما يفعل العرب اليوم، ولا سيما أهل المغرب العربي، فهم لا يستعملون اللغات

---

(١) عناصر التعريب وقضيتنا الحضارية، ١٩٧.

(٢) موسى الشامي رئيس الجمعية المغربية لحماية اللغة العربية لـ«التجديد»: لا نقبل أن تُعبَّد الطريق إلى الفرنسية عبر هدم أركان العربية.

(٣) اللغة العربية وسؤال الهوية، ١٨.

(٤) السابق، ٢٠.

الأجنبية في البحث العلمي والاطلاع على جديد المعرفة، وإن كانوا يدرّسون بها، ولا يترجمون منها ما فيها من علوم وآداب، ليجعلوه ملكا لهم، وإنما يستعملونها لغة للإدارة، والإعلام، والوثائق الرسمية، والشوارع، وواجهات المتاجر، والمنازل، والمقاهي، والمطاعم، ومحالِّ الخرَّازين، والمزيِّنين، وأزقة الأحياء العتيقة، حيث لا أثر لفرنسي ولا لإنجليزي[1]، ولا لمن يعرف الفرنسية أو الإنجليزية. فهم يستعملونها حيث لا يُحتاج إليها، ولا يفيد استعمالها، وإنما يضر، ولا يستعملونها حيث ينبغي أن تستعمل، فاستعمالهم إياها استعمال غير واع، ولا متعقِّل، ويخالف استعمال الشعوب التي تأنف من التبعية، وتأبى أن تتنازل عن هويتها؛ ولهذا بقي الوطن العربي ذيلا، يجترُّ ما ينتج الغير، ويكتفي باستهلاك ما يصدِّر إليه، وليس له عمل وراء ذلك[2].

(٣)

وإنما علاقة العرب بلغتهم أثر لسياستهم اللغوية، وهي سياسة مبنية على تعظيم اللغات الأجنبية، وإيثارها بكثير من مجالات الحياة، والاستهانة بالعربية، وتصغيرها[3]، ولذلك كانت العربية كما قال أحد المستشرقين: ليس على وجه الأرض لغة لها من الروعة والعظمة ما للعربية، ولا على وجه الأرض أمة، تسعى بوعي أو بغير وعي في تدمير لغتها، كالعرب[4]. وقال آخر إنه يعجب مما بلغ استخفاف أبناء العروبة بالعربية، وقصورهم عن التعبير بها، واستهانتهم بنحوها وصرفها، ورسمها، وقلة مبالاتهم ببيانها وبديعها[5]. وإنما السياسة اللغوية أثر من آثار السياسة العامة، وهي سياسة لا يتجاوز عملها تسيير الواقع بما تيَسَّر، وليس لها تصوُّر واضح، ولا غايات جليلة، تروم بلوغ الشعوب بها. وهذه السياسة هي التي صنعت كلَّ شاذٍّ في حياة العرب عما عليه الأمم السوية، ومنه السياسة اللغوية. وقد مُنِيَ العرب بصنفين من الناس، هم سبب

(١) انظر: اللغة العربية في مراحل الضعف والتبعية، ١٤٤.
(٢) اللغة العربية وسؤال الهوية، ١٩ وما بعدها، والتعليم العالي في لبنان بين التعريب والتغريب، ١٣١.
(٣) كلمة في اللغة العربية، ٥ وما بعدها.
(٤) الجامعة والتنمية، ١٦١.
(٥) فلسفة اللغة العربية، ٨٠.

ذلك: الساسة الذين لا يعلمون، وحَمَلة الشهادات العليا الذين لا يعون، ومن كان ذا وعي من حملة الشهادات، فهو يدين بالتبعية للغير، ويرى أن ليس للعرب إلا أن يجتهدوا في مماثلته. وهؤلاء هم الذين يعلنون الحرب على العربية سرا وجهرا، ويعارضون التعريب[1]، وهم -في الغالب- بطانة الساسة الذين لا يعلمون. فقلة علم الساسة نأت بهم عن اللغة، وفهْمها، وفهم ماهيتها، وصلتها بالعقل والثقافة والهوية، فهم لا يعرفونها، ويثقل عليهم منها ما يثقل على الأميين، ولا يستنكفون من مساواتهم في الجهل بها، فتراهم -من أجل ذلك- يخطبون في المحافل الدولية بالعامية الموغلة في الشعبية، فإن تكلَّفوا قراءة ما كُتِب لهم، لم يصيبوا إلا فيما لا يمكن الخطأ فيه، ولا يعدلون عن ذلك، إذ ليس في وسعهم ما هو خير منه، حتى حين يزورون الدول الأجنبية التي يكثر أن يكون رؤساؤها مثقفين، أو متعلمين، ويعرفون الحد الأدنى من لغاتهم، ولا يتكلمون في مقامات الجد بما يخشون أن يؤخذ عليهم. ومن المفارقات الغريبة أن يجد المرء عند ساسة إسرائيل، إذ يتكلمون بالعربية الفصحى، ما يدل على أنهم يتَوَقَّون الخطأ، ويتوخون تجويد الكلام، ولا يجد شيئا من ذلك عند ساسة العرب، بل قلَّما يجده عند سائر العرب[2]، حتى المثقفين. كما يجد في الإذاعات الأجنبية الناطقة بالعربية، والفضائيات الأجنبية التي تبث من عواصم غربية، كإذاعة بريطانية، وقناة الحرة الأمريكية، وإذاعة فرنسة ٢٤، وإذاعة موسكو، والقناة الروسية العربية، وصوت أمريكة، وإذاعة هولندة، وألمانية، وإذاعة إسرائيل، من الحفاظ على العربية، وصحتها، ووضوح التعبير، ما لا يجد في الإذاعات والفضائيات العربية، حتى إن بعض المدرسين كانوا يوجهون إليها تلامذتهم النجباء، ليستمعوا إليها، بخلاف نظائرها العربية، فإن الأخطاء تكثر فيها، ويكثر ما يدل على العي[3].

ولم يسلم من ذلك الرؤساء القوميون، فقد كانت لغتهم كلغة غير القوميين، على ما كانوا يرفعون من شعارات، ويدَّعون من دعاوي، ولم تكن

---

(١) اللغة العربية ومكانتها في الثقافة العربية الإسلامية، ١٣١.

(٢) لغتنا العربية والسياسة، ٣١.

(٣) الموضع السابق، ومستقبل اللغة العربية، ٣٨، وحاضر اللغة العربية، ١٧ وما بعدها.

للعربية مكانة في برنامجهم السياسي، يوم كانت القومية العربية في أوجها، ولا كانت لها في عهد بعضهم مكانة أفضل من مكانتها في عهد من قبلهم[1] وما كان من بعض الحكومات القومية، من إظهار الاستماتة في التعريب، والحرص عليه، كان دون المؤمل، مع أنها كانت قادرة على إمضاء ما أرادت، وقد أتيح لبعضها من المال ما يبلّغها ما تريد، وفوق ما تريد. وهذا يصدّق ما قال الدكتور عثمان سعدي، من أن موطن الضعف في جمال عبد الناصر أن لم تكن له عقيدة شاملة، ولا كان ذا وعي لغوي، أو صاحب نظرية وعقيدة ثورية، وإنما كان رجلَ مواقف؛ فلم يدرك أن بقاء سيطرة لغة المستعمر على قطاعات من حياة البلاد بقاء لهيمنته عليها، وآية ذلك أنه بعد الوحدة بين سورية ومصر قرَّر تعريب الطب، فعُرِّبت السنة الأولى، على أن يعرَّب سائر السنوات بالتدريج، فلما انفصل البلدان، جُمِّدت خطة التعريب، وبقيت السنة الأولى على تعريبها، ثم أعيدت إلى الإنجليزية بعد عشر سنين[2]. وهذا دليل على أن القومية عنده لم تكن مشروعا ثقافيا شاملا، إذ لم يكن له من العلم والفكر ما يبصِّره بذلك، ولا ما يبصِّره ببناء الدولة التي تبقى بعده، فقد كان هو وجلّ الرؤساء القوميين عسكريين، تقحَّموا السياسة؛ فلم يكن لهم من العلم والتجارب ما يهديهم إلى بناء الدول. وكان بهم -إلى ذلك- من التجبر والاستبداد ما جعلهم يستغنون بما يرون -على تواضعه- عن الخبراء والمتخصصين؛ فما كانت القومية العربية بأكثر من دعاية سياسية، تؤجِّج بها العواطف، وتجيِّش الشعوب لمناصرة موقف سياسي، قد يعدل عنه الرئيس إلى ضده، متى بان له أن يفعل، وإن لم يكن ما عدل عنه خيرا مما عدل إليه. أما المثقفون، فيرى أحدهم أن الخطأ في الإنجليزية والفرنسية منقصة، ولا يجد حرجا في أن يلحن اللحن الفاحش في مبادئ العربية، بل يُظْهر الاستهانة بها، بتنكُّبها في المناسبات الرسمية، واللقاءات الصحفية، ولا يبالي أن يتكلم بالعامية على الملأ، أو بعربية ركيكة، ملأى بالأخطاء[3]، وقد يفجأ محدِّثه

(١) مستقبل اللغة العربية، ٢٩.

(٢) التعريب في الجزائر، ١١٤ وما بعدها.

(٣) التعليم والعربية: رؤية من قريب، ٥٦ وما بعدها، واللغة العربية المعاصرة في الخليج العربي وقضية الهوية، ٣٨.

بالإمساك عن الكلام، أو العدول عن العربية إلى الفرنسية؛ لأنه غير قادر على الإبانة عما يريد بالعربية، وقد يسأله عن مرادف الكلمة أو العبارة الأجنبية بالعربية؛ لأنه لا يعرفه، على ما قد يكون من قربه وسهولته[1]، ولا يجد في نفسه حرجا من ذلك، وقد يعدُّه مفخرة؛ لأنه كناية عن اشتغاله عن العربية بما هو أهم منها، من اللغات والعلوم.

ويتفق بعض مثقفي مصر وعلمائها على أن المصريين مصابون بعقدة الخواجة، والشعور بالدونية إزاء الأوربيين والأمريكيين[2]، فقد قال الدكتور محمد عطية الأبراشي -مثلا-: إن «من الأدواء الدوية التي مُنِيَ بها المصريون تعلقهم بكل ما هو أجنبي، في اللغة وغير اللغة، يفضلونه على ما عندهم من نِدٍّ ونظير، وقد أورثهم ذلك عدم الثقة بالنفس، وفقدان الكرامة، وانطفاء نيران الغيرة، حتى إن بعض المفتونين ممن استهوتهم مدنية الغرب وحضارته يسوِّل لهم هذا الداء أن كل ما هو أجنبي عظيم، وكل مصري بجانبه حقير، في اللغة، والعلم، والصناعة، والتجارة»[3]. وتظهر هذه العقدة في صور شتى، منها احتقار العربية، والغرام باللغات الأجنبية، واعتقاد أنها وحدها السبيل إلى العلم والتقدم، وأن التكلم بها دليل علم، وعلامة رقي، كما قال محمد عطية الأبراشي -أيضا-: «فمن الكمال عندهم والجلال أن يصطنعوا الفرنسية أو الإنجليزية في حديثهم وبيعهم وشرائهم، ومن السخف والتأخر أن يتكلموا العامية العادية، وأسخف السخف أن يتكلموا أو يُخاطِبوا بالفصحى، فهؤلاء وأمثالهم حرب على اللغة، ولا يُنْتَظر منهم خير لها، مهما تعلموها، بل عقوق وكفران، واحتقار وازدراء»[4]. وكتب أحمد حسن الزيات عام ١٩٣٦ مقالا في «الرسالة»، عنوانه «استقلال اللغة»، عرض فيه لجانب من تلك العقدة، وما نشأ منها من اعتزاز باللغات الأجنبية والكلام بها، واستعمالها في المصارف والمتاجر والإعلان، والمستندات، وقصور الأمراء، ودور الكبراء، إلخ، واستصغار العربية ومن يتكلم بها[5]، كأنما

---

(١) الهوية الوطنية ومخاطر التعليم الأجنبي، ٢.

(٢) انظر مثلا: خرافة التقدم، ١٩ وما بعدها.

(٣) لغة العرب وكيف ننهض بها، ١٩.

(٤) الموضع السابق.

(٥) وحي الرسالة، ١/ ٣٣٦ وما بعدها.

يصف حال المصريين اليوم، لا حالهم قبل ما يزيد على ثمانين عاما. وكان ذلك من أسباب تلكُّؤ بعضهم في التعريب، لمّا أرادهم عليه محمد حسين هيكل، ومن أسباب معارضته إلى اليوم. ومن صور تلك العقدة أنه لما صدر مرسوم إنشاء مجمع اللغة العربية بالقاهرة، صدر في نسختين، عربية وفرنسية(١)، مع أن المجمع مؤسسة عربية خالصة، وكل شيء فيها يتعلق بالعربية وحدها، فنشر مرسوم إنشائها بالفرنسية لا معنى له، إلا أن يراد إعلام فرنسة بأن مصر أنشأت مجمعا، ولا معنى لأن تخبر به فرنسة دون غيرها من دول العالم، كما أنه لا معنى لأن تخبر به دولة غير عربية؛ لأنه لا يعنيها.

ومن الاستهانة بالعربية أن تكون العربية، في بعض الجامعات العربية، من التخصصات النادرة؛ لأن الطلاب يرغبون عنها كما يرغبون عن بعض الأقسام؛ لما يرون من صعوبتها، مع أن الجامعة تعطي الطلاب من الحوافز ما يحضهم على دراستها، ووزارة التربية في حاجة مستمرة إلى مدرسيها، فهي تحتاج كل عام إلى ٩٧ مدرسا، و١١٢ مدرِّسة، غير أن ذلك لم يغير من الأمر شيئا، فما زال خريجو العربية فيها في تناقص، والمنتقلون من قسمها في تزايد، فقد كان خريجو قسم العربية في جامعة الكويت عام ١٩٨٠/ ١٩٨١ -مثلا- ٣٦ طالبا، و٣٢ عام ٩٥/ ٩٦، و٢٧ عام ٩٦/ ٩٧(٢). ولعل الخريجين يتخرجون غير مؤهلين لتعليم العربية أيضا، إذ من المعلوم أن بعض أساتيذ الأقسام التي يحجم عنها الطلاب يستبْقون من يدخلونها بإعطائهم ما لا يستحقون من الدرجات مخافة أن تغلق؛ فيتخرج الطالب وهو أمي أو شبه أمي في تخصصه. وقد زاد ذلك الطينَ بلةً، وحالَ العربية سوءًا؛ إذ غدا من يعلِّمونها أقل الناس جدارة بتعليمها، فكان حتما أن يفعلوا بمن يخرِّجون ما فعل بهم من خَرَّجهم، كما قال أحد الجزائريين: أقسام العربية في الجامعات تستقبل الطلاب الضعاف، فتخرِّجهم بعد أربع سنين، فيلجون باب التعليم من غير إعداد تربوي، ولا تدريب ميداني(٣).

ومن الاستهانة بالعربية أيضا أن يتفرد العرب من دون شعوب العالم بتساوي

(١) التخطيط اللغوي في مصر، ١٤٠.

(٢) مناهج اللغة العربية في المرحلة الجامعية، ١/ ١٣ وما بعدها.

(٣) أزمة التعليم في العالم العربي: الجزائر أنموذجا، ١٨٥.

عالمهم وجاهلهم، ورئيسهم ومرؤوسهم، في استعمال العامية، على كل حال، وفي كل مقام، فيخطب بها الرئيس، ويدرِّس الأستاذ في أطوار التعليم كلها، كلَّ علم وفن، ويتكلم المفكر، والأديب، والمثقف، والناقد. وتَخُصُّ الشعوب مقامات الجد بضرب من اللغة، يترفع عما يُستعمَل في غيرها، ولا يراغ إلى العامية إلا حين الخوض في شؤون الحياة العادية. ومنها أن تسخِّر دول العالم إعلامها لخدمة شعوبها، وتعليمها وتثقيفها، وتعده مضاهيا للمدرسة في ذلك، ومتمما لمهمتها، ووسيلة من وسائل تعليم اللغة ونشرها[1]، وتَنْصب في إعداد الإعلاميين الذين يتولونه، وتلزمهم التكلم بلغتها الفصحى، ويرسم بعضها بغرامة مالية على من يخطئ فيها، ويوكَل الإعلام العربي إلى عوامَّ، وأشباه أميين، ليس لهم من العلم والوعي والنضج ما يبصِّرهم بمهمتهم، وعِظَم ما يتولون، فلا يكادون يستعملون إلا العامية، يخلطونها بما شدوا من مفردات اللغات الأجنبية، ويتعمدون ما هو معروف في الإعلام العربي من طغيان العامية في الأغاني والتمثيليات والبرامج طغيانا لا مثيل له في إذاعة من الإذاعات الأوربية التي يسرهم أن يتظاهروا بأنهم يقلدونها، ويتملقون بذلك عواطف العامة، ويحطون في هواهم، بدل أن يوجهوهم ويقودهم الى حيث ينبغي أن يتجهوا، ويتجاوزون ذلك إلى تسمية البرامج بالعامية واللغة الأجنبية إمعانا في إفساد العربية وهز مكانتها في النفوس؛ فيهدمون ما ينصب التعليم في تشييده، ويشن بعضهم عليها الحملات المنظمة، لإيقاع بغضها في النفوس، والصرف عنها إلى العامية، أو الإنجليزية أو الفرنسية، حتى وضعوا لها من الشنآن في القلوب ما حال دون تنميتها، وإنزالها منزلتها[2]؛ فصار شباب العرب يصرِّحون بأنهم لا يجدون علاقة شعورية بينهم وبينها، ويقولون إنهم يكتبون ويقرؤون ويتكلمون بالإنجليزية، وإذا احتاجوا إلى العربية، تكلموا بالعامية، وليست الفصحى عندهم بأحسن من القطعة الأثرية؛ لأن الإعلام لا يكاد يستعملها إلا في المسلسلات التاريخية، كأنها من العاديات التي ليس لها مكان في العصر؛

---

(١) انظر: الجامعة والتنمية، ١٦١ وما بعدها.

(٢) الإرهاب اللغوي، وأزمة اللغة العربية في المغرب بين اختلالات التعددية وتعثرات الترجمة في المشروع الثقافي المغربي، ٨٠، وواقع الهوية اللغوية في المجتمعات العربية بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١ م.

ولا يستنكفون من السخرية منها، وممن يتكلم بها[1]، وتلقى من بغض بعضهم وكراهيته واحتقاره أكثر مما تلقى من أولئك[2]، حتى إن طالبا سأل أستاذه في بيروت عن المعنى العربي لمصطلح أجنبي، فقال له: «وهل العربية لغة؟!»[3]، وتأبى الطفلة المغربية، في روضة الأطفال مراجعة دروس العربية، وتقول لأمها بالفرنسية: «ماما، أنا أكره العربية، لنقرأ الفرنسية»[4]. وتجرى الدراسات على طلاب الجامعة وأساتيذها، فيتبين منها أن كثيرا منهم يكرهونها وينفرون منها، ويفضلون استعمال العامية في المحاضرات، وكثير من الأساتيذ لا يستعملونها في التدريس، ومنهم من يتنقصها عند الطلاب، ويستهجنها كثير منهم، ولا يشجعونهم على استعمالها، ومنهم من يؤثر عليها الإنجليزية[5]. ولم يسلم من هذه الكراهية من يُفرَض أنه أنضج من هؤلاء جميعا، فقد قال أحد وزراء المعرب إن الحديث بالعربية يصيبه بالحمى[6]، كما لم يسلم منها بعض العامة، كما قال أحدهم: استوقف فتى لبناني لا يتكلم إلا بالعربية الفصحى سائق سيارة أجرة، فقال له: أذاهب أنت إلى البرج؟ فاستشاط السائق غضبا، من كلامه، وقال له معنِّفًا: «وَلا، أختك عَ أخت اللي جابك! روح وَلا!»[7]. وإنما يفعلون ذلك لأنهم يجهلونها، ومن جهل شيئا عاداه. وكان إعلاميون العرب مثقفين قبل أن يكونوا إذاعيين، وكان أحدهم يُنتقَى انتقاء، ويدقق في اختياره، حتى إن الإذاعة المصرية تقدَّمَ إليها مرة مئة شابٍّ، من خرِّيجي كلية الآداب، فما نجح منهم إلا ثلاثة، وكان كبيرُ المذيعين الذي اختبرهم يومئذ هو الدكتور علي الراعي، وأسقط من المتقدمين من غدا بعد ذلك من كبار المذيعين المصريين، وعلّل إسقاطه بأنه لا يخلو من مَضْغ الكلام، وإنما دخل الإذاعة بعد أن سافر عليٌّ إلى بريطانية لدراسة الدكتوراه[8]. وبعد الانتقاء يدرب تدريبا يؤهله لمهمته، وتُراجَع

(١) تدريس المقررات التعليمية بغير العربية في مدارس التعليم العام، ١٢٨، واللغة العربية وشباب الخليج العربي، ٢٥.
(٢) اللغة العربية في زمن الضعف والتبعية، ١٩.
(٣) اللغة العربية ومكانتها بين اللغات، فرحان السليم.
(٤) انقراض اللغة العربية خلال القرن الحالي، علي القاسمي، موقع فولتير نت.
(٥) إشكالية اللغة العربية وقضايا التعريب في جامعة الكويت، ١٠٧ و ١٢٢ و ١٣٣ وما بعدها.
(٦) جدل اللغة والهوية من جديد في دول المغرب العربي.
(٧) كتاب الأعاجيب في كلام الأعاريب في الصحافة والسياسة والإعلام، ٣٥.
(٨) الفصحى والعامية في وسائل الإعلام، ٣، وواقع الهوية اللغوية في المجتمعات العربية بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١.

لغة الإعلام مراجعة دقيقة، ويعاقب من يلْحن؛ فكانت الصحف والإذاعة تثقّف، وتعلِّم، وتُخْبر[1]. ثم تُرك الحبل على الغارب، فصار يتولى الإعلامَ كلُّ من هبَّ ودبَّ، ومن لا يعرف من العربية «إلا ما يعرف البقر من علم الهيئة»؛ فكان عملهم أشبه بالتهريج منه بكل شيء آخر.

(١) من هوان لغة التعليم إلى وهن الثقافة.

المراجع

- أبرز المشكلات التي تعوق مسيرة التعريب لدى أعضاء هيئة التدريس في الجامعات العربية، سلمان داود الواسطي، ندوة المسؤولين عن تعريب التعليم العالي في الوطن العربي بدمشق عام ٢٠٠٠ م.
- اتجاهات الشباب الجامعي نحو لغة التدريس في الجامعة وعلاقتها بكل من الشعور بالانتماء والرضا الأكاديمي لديهم: دراسة ميدانية بإحدى الجامعات الجزائرية، خديجة بن فليس، مجلة عالم التربية، العدد ٢٧، ٢٠١٦ م.
- اتجاهات الشباب نحو استخدام اللغتين العربية والإنجليزية في التعليم، ريما سعد الجرف، موقع ديوان العرب.
.http://www.diwanalarab.com/spip.php?page=article&id_article=748
- اتجاهات الطلاب نحو مقاييس اللغات الأجنبية في الجامعة الجزائرية، عبد الكريم قريشي ورمضان زعطوط، http://dspace.univ-biskra.dz:8080/ 11/1/5401/jspui/bitstream/123456789
- الاتجاهات الوطنية في الأدب العربي المعاصر، محمد محمد حسين، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط٧، ١٤٠٥ هـ.
- الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط٤، ١٣٩٨ هـ.
- أثر التعليم في المدارس والجامعات باللغة الأجنبية في اللغة العربية وهوية الطفل العربي: دراسة ميدانية في الجمهورية العربية السورية نموذجا، أحمد علي كنعان، ضمن بحوث مؤتمر لغة الطفل العربي في عصر العولمة، ١٧ - ١٩ فبراير ٢٠٠٧ م.
- أثر الثقافتين الفرنسية والإنجليزية في مصر منذ ابتداء النهضة الحديثة حتى قيام الجامعة المصرية سنة ١٩٢٥ م، ليلى سليمان نجار، رسالة الأستاذية بالجامعة الأمريكية ببيروت، عام ١٩٦٥ م.

أثر السياسة في اللغة: العربية نموذجا، مقبل علي الدعدي، بيروت: مركز نماء للبحوث والدراسات، ط١، ٢٠١٦ م.
أثر الصحراء في نشأة الشعر العربي وتطوره حتى نهاية العصر العباسي الثاني، حمد بن ناصر الدخيل موقع جامع الكتب المصورة، وموقع شذرات، http:/ .www.shatharat.net/vb/showthread.php?t 1370
- الأثر الفلسفي في التفسير، بكار محمود الحاج جاسم، سوريا ولبنان والكويت، دار النوادر، ط٢، ١٤٣٢ هـ.
- أثر اللغة العربية في إسهامات اليهود والنصارى في الأندلس أثناء عهدي الخلافة والطوائف، مجلة الأستاذ، العدد ٢٠٣، عام ١٤٣٣ هـ.
- اجتياز امتحان الكفاءة في اللغة العربية شرط للتعيين في المؤسسات العامة والخاصة، إبراهيم زيد الكيلاني، موقع مجمع اللغة العربية الأردني.
- أحادية الآخر اللغوية، جاك ديريدا، ترجمة عمر مهيبل، بيروت، الدار العربية للعلوم ناشرون، ط١، ١٤٢٩ هـ.
- الأداء اللغوي والإندماج الثقافي لدى المتعلمين الأجانب للعربية فدوى سعيدي ومصطفى بوعناني، أبحاث معرفية، ع ٣، ٢٠١٣ م.
- الأدب المقارن، محمد غنيمي هلال، القاهرة، دار نهضة مصر، د. ت.
- إرضاءً لِمَنْ ندوس على لغتنا؟، أبو بكر خالد سعد الله، موقع عربي٢١، .https://arabi21.com/story/1019668
- الإرهاب اللغوي، أحمد جواد العتابي، http://www.hamoudi.org/ htm.09/dialogue-of-intellenct/20
- ازدواجية لغة التعليم، إدريس الكتاني، مجلة اللسان العربي، العدد ١.
- الازدواجية اللغوية الأمارة، محمود الذوادي، تونس، تبر الزمان، ٢٠١٣ هـ.
- الازدواجية اللغوية في وسائل إعلام بلدان المغرب العربي: دراسة نقدية، محمد شطاح، ضمن بحوث المؤتمر الدولي الثاني للغة العربية بدبي، من ٢٧ - ٣٠ جمادى الآخرة ١٤٣٤ هـ.
- أزمة التعريب، محمود فوزي المناوي، القاهرة، مركز الأهرام للترجمة والنشر، ط١، ١٤٢٤ هـ.

- أزمة التعليم في العالم العربي: الجزائر أنموذجا، ذهبية حمو الحاج، مجلة عالم التربية، ع٢٤، ٢٠١٥ م.
- أزمة التعليم المعاصر وحلولها الإسلامية، زغلول النجار، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط١، ١٤١٦ هـ.
- أزمة سياسية في المغرب بسبب القناة التلفزيونية m٢، فوزي منصور، شبكة فوزي منصور الأخبارية، https://middle east-online.com.
- أزمة اللغة العربية في المغرب بين اختلالات التعددية وتعثرات الترجمة في المشروع الثقافي المغربي، قضايا استعمال اللغة العربية في المغرب (ندوة لجنة اللغة العربية بأكاديمية المملكة المغربية، الحلقة الثانية، فاس ١٦ - ١٧ ربيع الآخر ١٤٢٦ هـ).
- أزمة اللغة والترجمة والهوية في عصر الإنترنت والفضائيات والإعلام الموجه، علي محمد الدرويش، ملبورن (أستراالية)، شركة رايتسكوب، ط١، ٢٠٠٥ م.
- أزمة النظام التعليمي في المغرب: الأسباب والمعيقات، الحسين رحمون، وجدة (المغرب)، دار الهلال، ط١، ٢٠١٢ م.
- أزمة الهوية العراقية في ظل الاحتلال، عمار ياس الزيدي، إستراتيجية التدمير: آليات الاحتلال الأمريكي للعراق ونتائجه، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ط١، ٢٠٠٦ م.
- الاستشراق: المفاهيم الغربية للشرق، إدوارد سعيد، ترجمة محمد عناني، القاهرة، رؤية للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠٠٦ م.
- استعمار مصر، تيموثي ميتشل، ترجمة بشير السباعي وأحمد حسان، القاهرة، مركز مدارات للأبحاث والنشر، ط١، ١٤٣٤ هـ.
- استعمال اللغة العربية بين الواقع والآفاق: تصور لمستقبل الخطاب في الجامعة، بشير إبرير، مجلة اللغة العربية التي يصدرها المجلس الأعلى للغة العربية بالجزائر، ع ٦، ٢٠٠٢ م.
- أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق محمود شاكر، جدة، دار المدني، ط١، ١٤١٢ هـ.

الاشتقاق، ابن دريد، تحقيق عبد السلام هارون، بيروت، دار الجيل، ط١، ١٤١١ هـ.
- إشكالية تدريس اللغات في المنظومة الوطنية للتربية والتكوين، محمد فاتحي، مجلة عالم التربية، العدد ٢٧، عام ٢٠١٦ م.
- إشكالية تعريب التعليم العالي، محمود أحمد السيد، مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ع ٨١، جمادى الآخرة ١٤١٨ هـ.
- إشكالية اللغة العربية في الجزائر بين مخلفات الاستعمار وضغط العولمة، شمامة خير الدين، اللغة والهوية في الوطن العربي: إشكاليات تاريخية وثقافية وسياسية، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ط١، ٢٠١٣م.
- إشكالية اللغة العربية وقضايا التعريب في جامعة الكويت: آراء عينة من طلاب جامعة الكويت، علي أسعد وطفة، الكويت، جامعة الكويت، ٢٠١٤ م.
- الإشكالية اللغوية في الفلسفة العربية: دراسة تحليلية نقدية، جيرار جهامي، بيروت، دار المشرق، ط١، ١٩٩٤ م.
- إشكالية الهوية والتعدد اللغوي في المغرب العربي: المغرب نموذجا، إلياس بلكا ومحمد حراز، أبو ظبي، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الإستراتيجية، ط١، ٢٠١٤ م.
- أصالة المشاريع التربوية أو أزمة التعليم بالعالم العربي: التجربة التونسية نموذجا، نور الدين السافي، مجلة عالم التربية، العدد ٢٤، ٢٠١٤ م.
- أصالية أم انفصالية، مولود قاسم نايت بلقاسم، الجزائر، دار الأمة، ٢٠١٣ م.
- الإصلاحات التربوية بتونس وعلاقتها بالتصدي للتطرف الديني والإرهاب، مركز القدس للدراسات السياسية، http://www.alqudscenter.org/home/arabic/activity/2053#.VvobyNKrSt8.
- الإصلاحات التعليمية بالمغرب: دراسة على مستوى الوظائف والمكونات ١٩٥٦ - ٢٠٠١ م، محمد غزالي، جامعة الحسن الأول، ٢٠١٤ م.
- الإصلاح التربوي المنتظر في تونس: إصلاح في الصميم أم مجرد ترميم؟ بلقاسم حسن، موقع مركز الدراسات السياسية والدبلوماسية، http://www.csds-center.com.

- إصلاح التعليم والعوائق الخفية، عبد اللطيف محمد خطابي، موقع تنمية، https://www.tanmia.ma › Education.
- إصلاح النظام التربوي (في موريتانية)، موقع حزب الصواب.
- أصول التحديث في اليابان ١٥٦٨ - ١٨٦٨، محمد أعفيف، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ، ط١، ٢٠١٠ م.
- أضواء على مشكل التعليم بالمغرب، محمد عابد الجابري، الدار البيضاء، دار النشر المغربية، ط١، ١٩٧٣ م.
- الإعلام وانهيار السلطات اللغوية، نسيم الخوري، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ط١، ٢٠٠٥ م.
- أكد أن طلاب حائل يعانون ضعفاً في هذه المادة، د. النافع: قرار تدريس المناهج في جامعة حائل باللغة الإنجليزية نهائي ولا رجعة فيه، صحيفة الرياض، الخميس ٢ ربيع الآخر ١٤٢٨ هـ.
- الإمتاع والمؤانسة، أبو حيان التوحيدي، تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين، بيروت، دار مكتبة الحياة، د. ت.
- أمريكة والإبادات الثقافية، منير العكش، دار رياض الريس للكتب والنشر، ط١، ٢٠٠٩ م.
- الأمم الحية أمم قوية بلغاتها: نماذج تجارب ناجحة، صالح بلعيد، الأمم الحية أمم قوية بلغاتها، الجزائر، جامعة مولود معمري بتيزي وزو، مخبر الممارسات اللغوية بالجزائر، ٢٠١٢ م.
- انتهت أمس زيارة ماكرون إلى تونس: الحصيلة، صحيفة الصباح، الجمعة ٢فبراير ٢٠١٨ م.
- الإنجليزية تهزُّ عرش الفرنسية في الجزائر، بوابة إفريقية الأخبارية، https://www.afrigatenews.net/article.
- إنقاذ اللغة إنقاذ الهوية، أحمد درويش، القاهرة، دار نهضة مصر، د. ت.
- انقراض اللغة العربية خلال القرن الحالي، علي القاسمي، موقع شبكة فولتير، http://www.voltairenet.org/article145997.html
- إنية وأصالة، مولود قاسم نايت بلقاسم، الجزائر، دار الأمة، ٢٠١٣ هـ.

الإهانة، سعد بو عقبة، صحيفة اليوم، ٩/ ٤/ ٢٠٠٠ م.
- أهمية تدريس العلوم الطبية باللغة العربية، محمود السيد، مجلة التعريب، العدد٥٠، شعبان ١٤٣٧ هـ.
- أوريد: العشرية السوداء وراء إصلاح التعليم بالمغرب، موقع هسبريس، https://www.hespress.com/orbites/407693.html
- إيكس ليبان المؤامرة الكبرى في تاريخ المغرب، منتدى رياضي للعمل النقابي، http://riadii.yoo7.com/t299-topic#2929.
- أي علاقة للصراع اللغوي بجودة التعلمات، حسينة حماميد، مجلة عالم التربية، ع ٢٢ / ٢٣ ٢٠١٣ م.
- إيمانويل ماكرون: تونس ستكون قاعدة جديدة لتعليم اللغة الفرنسية، https:// www.babnet.net/cadredetail-1552.
- أي مستقبل للغات؟ الآثار اللغوية للعولمة، لويس جان كالفي، ترجمة جان ماجد جبور، بيروت، مؤسسة الفكر العربي، ١٤٣٩ هـ.
- البحث العربي ومجتمع المعرفة: رؤية نقدية، ساري حنفي وريغاس أرفانيتس، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ط١، ٢٠١٥ م.
- البحث اللغوي وأصالة الفكر العربي، عبد الرحمن الحاج صالح، مجلة الثقافة (تصدر عن وزارة الثقافة والإعلام الجزائرية)، العدد ٢٦، عام ١٩٧٥م، وموقع مجالس الألوكة http://majles.alukah.net/.
- البخلاء، الجاحظ، تحقيق أحمد العوامري بك وعلي الجارم بك، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٠٣ هـ.
- البخلاء، الجاحظ، القاهرة، دار ومكتبة الهلال، ط٢، ١٤١٩ هـ (موقع المكتبة الشاملة).
- البدائع والطرائف، جبران خليل جبران، بيروت، المكتبة الثقافية، د.ت.
- بدايات ملتبسة: أزمة الهوية في أقسام اللغة الإنجليزية في الجامعات المصرية، هدى الصدة وهبة شريف، موقع باحثات.
- البربر في المغرب العربي: تحديات قرن، نايل محمد شامة، http:// hadaracenter.com/pdfs/.

- البرنامج الاستعجالي ٢٠٠٩ ٢٠١١، المغرب، وزارة التربية الوطنية والتعليم العالي وتكوين الأطر والبحث العلمي، ديسمبر ٢٠٠٧ م.
- البصائر النصيرية في علم المنطق، زين الدين عمر بن سهلان الساوي، تقديم وتحقيق حسن المراغي، ٢٠٠٢ م.
- بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، محمود شكري الآلوسي، بيروت، دار الكتب العلمية، د. ت.
- بنية العقل العربي: دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة في الثقافة العربية، محمد عابد الجابري، بيروت والدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، ط٣، ١٩٩٣ م.
- البورقيبية والهوية: صراع مشاريع، الحسين بن عيسى، تونس، مكتبة تونس، ط١، ٢٠١٥ م.
- البيان المطرب لنظام حكومة المغرب: بنية المفهوم القديم للسلطة، محمد عابد الجابري، مجلة مواقف، العدد ٣، ١ مايو ٢٠٠٢ م.
- البيان والتبيين، الجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة، مكتبة الخانجي، ط٥، ١٤٠٥ هـ.
- التباسات الهوية في الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية من خلال رواية «سأهبك غزالة» لمالك حداد، ربيحة لمودع وخديجة قاسمي، رسالة ماجستير بكلية الآداب واللغات - جامعة منتوري - قسنطينة، ٢٠١١ م.
- إلجام العوام عن علم الكلام، الإمام الغزالي، القاهرة، المكتبة الأزهرية للتراث، ١٤١٨ هـ.
- بين الرشاد والتيه، مالك بن نبي، دمشق، دار الفكر، ط١، ١٣٩٨ هـ.
- تاريخ آداب اللغة العربية، جرجي زيدان، موفم للنشر، ١٩٩٣ م.
- تاريخ الترجمة والحركة الثقافية في عصر محمد علي، جمال الدين الشيال، القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٥١ م.
- تاريخ الحركات القومية في أوربا، نور الدين حاطوم، دمشق، ج١، دار الفكر، ط٢، ١٣٩٩ هـ وج٢، ١٣٨٩ هـ.

تاريخ فرنسا الثقافي من العصر الجميل إلى أيامنا هذه، باسكاله جوتشيل وإيمانويله لواييه، ترجمة مصطفى ماهر، القاهرة، المركز القومي للترجمة، ط١، ٢٠١١ م.
- تاريخ النظام التربوي: الشعبة العصرية الزيتونية، علي الزيدي، تونس، مركز البحوث في علوم المكتبات والمعلومات، ١٩٨٦ م.
- تأثير الإعلام المسموع في اللغة وكيفية استثماره لصالح العربية، عبد الرحمن الحاج صالح، مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، العدد ٩٤ (موقع المكتبة الشاملة).
- تأثير اللغة الفرنسية فى المستوى القيمى والاجتماعى والتعليمى فى المغرب، عكاشة بن المصطفى، المستقبل العربى، مج ٣٥، ع ٤٠٢، ٢٠١٢ م.
- تأملات في السياسة: السيادة الناقصة، محمد بو عزازة، الجزائر، دار الأمة، ط١، ٢٠٠٧ م.
- التبعية اللغوية أساس التخلف الشمولي، محمد الأوراغي، صحيفة العلم، السبت ١٤ شعبان ١٤١٩ هـ.
- التجارة بالتعليم في الوطن العربي: الإشكاليات والمخاطر والرؤية المستقبلية، محيا زيتون، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ط١، ٢٠١٣ م.
- التجارة بالتعليم في الوطن العربي: الإشكاليات والمخاطر، والرؤية المستقبلية، محيا زيتون، مجلة المستقبل العربي، http://www.caus.org.lb/PDF/EmagazineArticles/mustaqbal__mustaqbal_413_mohya%20zytoun.pdf.
- تجديد الفكر العربي، زكي نجيب محمود، بيروت والقاهرة، دار الشروق، ط٩، ١٩٩٣ م.
- تجربتي في تعليم الطب باللغة العربية، زهير أحمد السباعي، الدمام، نادي المنطقة الشرقية الأدبي، ط١، ١٤١٥ هـ.
- تجربة روسية الاتحادية في حماية ودعم اللغة الروسية، محمد نصر الدين الجبالي، الإستراتيجيات الدولية في خدمة اللغات الوطنية، الرياض، مركز الملك عبد الله بن عبد العزيز الدولي لخدمة اللغة العربية، ط١، ١٤٣٧ هـ.

- تجربة سورية في تعريب التعليم العالي، عبد الله واثق شهيد، موقع جامعة أم القرى.
- التجربة السورية في التعليم باللغة الأم، محمود أحمد السيد، اللغة العربية والتعليم: رؤية مستقبلية للتطوير، أبو ظبي، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الإستراتيجية، ط١، ٢٠٠٨ م.
- التجربة العربية في تعريب العلوم وعلوم الطب، صادق الهلالي، مجلة اللسان العربي، ع ٤٣.
- تجربة مجمع اللغة العربية الأردني في تعريب التعليم العلمي الجامعي: الإنجازات، والصعوبات، والتحديات، همام غصيب، موقع مجمع اللغة العربية الأردني وموقع المعرفة، http://www.marefa.org/sources/index.php.
- التجربة اليابانية: دراسة في أسس النموذج النهضوي، سلمان بو نعمان، بيروت، مركز نماء، ط١، ٢٠١٢ م.
- تحسين وسائل خدمة اللغة العربية في الوطن العربي، شكري فيصل، اللغة العربية والوعي القومي، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ط٢، ١٩٨٦م.
- التحضيرية والتدريس باللغة الإنجليزية في جامعاتنا السعودية: ضرورة أم ترف، عثمان العامر، موقع حائل. http://www.hailnews.sa/?p=.
- تحويل لغة التدريس في جامعاتنا إلى الإنجليزية كارثة ثقافية، عبد الرحمن محمد السلطان، الاقتصادية، الأحد ٢٨ يونيو ٢٠٠٩ م.
- التخطيط اللغوي في مصر، محمود فهمي حجازي، التخطيط والسياسة اللغوية: تجارب من الدول العربية، مركز الملك عبد الله بن عبد العزيز الدولي لخدمة اللغة العربية، ط١/ ١٤٣٧ هـ.
- التخطيط اللغوي والأمن اللغوي، عبد السلام المسدي، الرياض، مركز الملك عبد الله بن عبد العزيز الدولي لخدمة اللغة العربية، ١٤٣٦ هـ.
- التخطيط اللغوي والسياسة اللغوية في أستراليا: دراسة حالة، محمود بن عبد الله المحمود، مجلة الدراسات اللغوية، المحرم - ربيع الأول ١٤٣٦ هـ، المجلد ١٧، العدد ١.

التخطيط والسياسة اللغوية: تجربة القطر العربي السوري، محمد حسان الطيان، التخطيط والسياسة اللغوية: تجارب من الدول العربية، مركز الملك عبد الله بن عبد العزيز الدولي لخدمة اللغة العربية، ١٤٣٧ هـ.
- تدبير تدريس اللغات: الواقع والمأمول، ميلود أحبادو، المدرسة المغربية العدد ٣، مارس ٢٠١١ م.
- تدبير الوضع اللغوي بالمغرب من خلال الرؤية الإستراتيجية للإصلاح ٢٠١٥ - ٢٠٣٠ : دراسة وتحليل، يحيى شوطي، مجلة التخطيط اللغوي، السنة ٣، العدد ٦، رجب ١٤٣٩ هـ.
- التدريس باللغات الأجنبية في الجامعات المصرية، محمد السيد سليم، .http://www.egyptclub.de/Studium-in-Fremdsprache.htm
- تدريس اللغات الأجنبية بالمغرب (الفرنسية والإنجليزية)، ترجمة محمد اسليم، موقع محمد اسليم، http://aslimnet.free.fr/traductions/gharbi/fra5.htm
- تدريس المقررات التعليمية بغير العربية في مدارس التعليم العام، مجموعة كتاب، الرياض، مركز حمد الجاسر الثقافي، ط١، ١٤٢٩ هـ.
- الترجمة الأدبية مهمة شاقة لكنها ممتعة، صالح علماني، الترجمة وإشكالات المثاقفة، إعداد وتقديم مجاب إمام ومحمد عبد العزيز، قطر، منتدى العلاقات العربية الدولية، ط١، ٢٠١٤ م.
- الترجمة من حيث هي عامل هام من عوامل العدوى اللغوية، صالح القرمادي، مجلة الحوليات التونسية، ع١١، ١٩٧٤ م.
- تركيا: إحياء اللغة العثمانية إرث ثقيل في ميزان السياسة، موقع الخليج أونلاين /http://alkhaleejonline.net.
- تصفية استعمار العقل، نغوجي وا ثيونغو، ترجمة سعدي يوسف، دمشق، دار التكوين، ٢٠١١ م.
- التعدد اللغوي: انعكاساته على النسيج الاجتماعي، محمد الأوراغي، الرباط، كلية الآداب بجامعة محمد الخامس، ط١، ٢٠٠٢ م.

- التعدد اللغوي بين المجتمعي والسياسي، رحمة بورقية، المدرسة المغربية، العدد ٣، مارس ٢٠١١ م.
- التعددية اللغوية في الجزائر: الطلبة الجامعيون أنموذجا: دراسة ميدانية بجامعة سعد دحلب بالبليدة، سحنون شاوش أمينة وبهلول سميرة، مذكرة مقدمة لنيل الليسانس بكلية الآداب بجامعة سعد دحلب بالبليدة، ٢٠٠٨ - ٢٠٠٩ م.
- تعريب تدريس العلوم، شحادة الخوري، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، العدد ٨٠، المجلد ١، http://www.rcefnct.gov.sy/booksproject/mojama/80-1/5.pdf
- تعريب الجامعة والمرافق الإدارية والاقتصادية والخلفية السياسية، بو شعيب الزين، مجلة عالم التربية، العدد ٢٦، ٢٠١٦ م.
- تعريب التعليم الجامعي: ضرورات ملزمة، ومنافع مؤكدة، واعتراضات مفندة، عبد الحافظ حلمي محمد، مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، مج ٧٩، جمادى الآخرة ١٤١٧ هـ.
- تعريب التعليم الجامعي في الوطن العربي: الأردن نموذجا، سليمان العباس، أعمال المؤتمر الدولي: اللغة العربية والتنمية البشرية: الواقع والرهانات، ٢٠٠٨، مركز الدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية بوجدة.
-تعريب التعليم الطبي: رؤية واقعية وخطوات عملية، خالد بن عبد الغفار آل عبد الرحمن، ١٤٣١ هـ.
- تعريب التعليم في الجامعات الجزائرية، عبد الكريم بكري، مجلة اللغة العربية الجزائرية، العدد ١، ذو الحجة ١٤١٩ هـ.
- تعريب العلوم، ماهر محمد يس، موقع حزب الاستقلال http://estqlal.com/article.php?id=11923.
- تعريب العلوم: القضية، أحمد شفيق الخطيب، مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ع ٧٩، جمادى الآخرة ١٤١٧ هـ.
- التعريب في الجزائر بين تعريب الفكر والتعريب اللغوي، خثير عيسى، مجلة التعريب، ع ٥٠، شعبان ١٤٣٧ هـ.

التعريب في الجزائر: كفاح شعب ضد الهيمنة الفرنكفونية، عثمان سعدي، الجزائر، دار الأمة، ١٩٩٣ م.
- التعريب في الجزائر من خلال الوثائق الرسمية، عبد الرحمن بن سلامة بن الدوايمة، الجزائر، مكتبة الشعب، د. ت.
- التعريب: هدف ووسيلة، أحمد ذياب، مجلة اللسان العربي، ع ٤٣.
- التعريب والازدواجية في تونس، الطيب البكوش، مجلة الأصالة الجزائرية، العدد ١٧، ١٩٧٥ م.
- التعريب والتعليم في الجزائر، عبد الرحمن سلامة، مجلة الموقف الأدبي، ع ٧٨، يوليو ١٩٧٨ م.
- التعريب والتنمية البشرية، علي القاسمي، مجلة اللغة العربية، الجزائر، المجلس الأعلى للغة العربية، ط١، ١٤٣٠ هـ.
- التعريب والخلفية السياسية، بو شعيب الزين، مجلة عالم التربية، ع ٤، خريف ١٩٩٦.
- التعريب ونظرية التخطيط اللغوي: دراسة تطبيقية عن تعريب المصطلحات في السعودية، سعد بن هادي القحطاني، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ط١، ٢٠٠٢ م.
- التعريب ووسائل تحقيقه، محمد الفاسي، مجلة الأصالة الجزائرية، ع ١٧، ١٩٧٤ م.
- التعريفات، علي بن محمد الجرجاني، تحقيق إبراهيم الأبياري، بيروت، دار الكتاب العربي، ط٤، ١٤١٨ هـ.
- التعصب، أحمد بن نعمان، الجزائر، مطبعة دحلب، د. ت.
- تعلومهم: نظرة في تعليم الدول العشر الأوائل في مجال التعليم عبر تعليمهم الأساسي، عزام بن محمد الدخيل، بيروت، الدار العربية للعلوم ناشرون، ط٢، ١٤٣٥ هـ.
- التعليقات، الفارابي، حيدر آباد الدكن، دائرة المعارف العثمانية، ١٣٤٦ هـ.
- التعليم الأجنبي: مخاطر لا تنتهي، مهيمن عبد الجبار، موقع صيد الفوائد http://www.saaid.net/manahej/24.htm.

- التعليم بالعربية والإفرنجية، مجلة المقتطف، الجزء ١٧، عام ١٨٩٣ م.
- تعليم الجهل في زمن العولمة والإصلاح التربوي في تونس، الهادي التيمومي، تونس، دار محمد علي للنشر، ٢٠١٦ م.
- التعليم العالي بالمغرب، محمد منار، موقع جماعة العدل والإحسان، http: www.aljamaa.net/ar/document/33741.shtml
- التعليم العالي في السعودية: رحلة البحث عن هوية، أحمد العيسى، بيروت، دار الساقي، ط١، ٢٠١١ م.
- التعليم العالي في لبنان بين التعريب والتغريب، يحيى عباس حسن، ندوة المسؤولين عن تعريب التعليم العالي في الوطن العربي بدمشق عام ٢٠٠٠م.
- التعليم العالي والتبعية: الدراسة في الخارج حالة الوطن العربي، وديع محمد عدنان، شؤون عربية، ع ٦٤، ١٩٩٠ م.
- التعليم في المغرب العربي: دراسة تحليلية نقدية لسياسة التعليم في المغرب وتونس والجزائر، محمد عابد الجابري، الدار البيضاء، دار النشر المغربية، ١٩٨٩ م.
- التعليم في الوطن العربي: تقرير المرصد العربي للتربية عام ٢٠١٢ م، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم.
- تعليم اللغة الأجنبية (اللغة الثانية) اللغة الفرنسية في الجزائر، سوهيلة درويش، أعمال المنتدي الوطني حول التخطيط اللغوي: ٣، ٤، ٥ ديسمبر ٢٠١٢.
- تعليم وتعلم اللغة العربية على ضوء النظريات اللسانية الحديثة والبحوث التربوية المعاصرة، أحمد بكار، مجلة اللغة العربية، الجزائر، المجلس الأعلى للغة العربية، ع ٣، ٢٠٠٠ م.
- التعليم وثنائية اللغة، ميجل سجوان ووليام ف. مكاي، ترجمة إبراهيم بن حمد القعيد ومحمد عاطف مجاهد محمد، الرياض، جامعة الملك سعود، ١٤١٥ هـ.
- التعليم والعربية: رؤية من قريب، علي أبو المكارم، دار الهاني، ط١، ١٤٣٨ هـ.
- التعليمية وإشكالية التعريب في الجزائر: العلوم الاقتصادية نموذجا، مسعودة خلاف، رسالة دكتوراه بجامعة منتوري قسنطينة - الجزائر، ٢٠١٠/ ٢٠١١م.

تعميم الدلالة في ألفاظ الإبل، عبد الرزاق فراج الصاعدي، مجلة الدارة، س ٢٣، ع١، ١٤١٨ هـ.
- تفسير ما بعد الطبيعة، أبو الوليد بن رشد، بيروت، المطبعة الكاثوليكية، د. ت.
- التفكير الإبداعي اللغوي: نحو تأصيل نظري لتحليل النصوص، عبد الله بن محمد المفلح، ندوة الدراسات البلاغية: الواقع والمأمول، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ١٢-٢٢/ ٦/ ١٤٣٢ هـ.
- تقرير حول لغات التدريس في منظومة التعليم في المغرب، موقع الائتلاف الوطني من أجل اللغة العربية بالمغرب، http://www.iitilaf.org/.html.
- التقرير السنوي عن برنامج تعريب التعليم الهندسي، جدة: جامعة الملك عبد العزيز، مركز التعريب التقني، ١٤٠٢/ ١٤٠٣ هـ.
- التقرير العربي الرابع للتنمية الثقافية، مؤسسة الفكر العربي، ط١، ١٤٣٢ - ١٤٣٣ هـ.
- التقليدية والحداثة في التجربة اليابانية، عبد الغفار رشاد، بيروت، دار الأبحاث العربية، ط١، ١٩٨٤ م.
- تقويم تجربة التعريب في المغرب، فاطمة الجامعي الحبابي، التعريب ودوره في تدعيم الوجود العربي والوحدة العربية، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ط١، ١٩٨٢ م.
- تقويم سياسة إصلاح المنظومة التربوية في الجزائر، أحمد لشهب، مجلة دراسات نفسية وتربوية، ع ١٢، مارس ٢٠١٥ م.
- تقييم تجربة التعليم العالي، نبيل حامد حسن بشير، صحيفة الراكوبة الإلكترونية-https: / /www.alrakoba.net /articles-action-show-id-.
- تكوين العقل العربي، محمد عابد الجابري، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ط١٠، ٢٠٠٩ م.
- التلفزيون يراقب برقيات بو تفليقة، صحيفة الخبر، ٩/ ٤/ ٢٠٠٠ م.
- التوثيق اللغوي والإحياء اللغوي، محمد مازن جلال ومحمود بن عبد الله المحمود، انقراض اللغات وازدهارها: محاولة للفهم، الرياض، مركز الملك عبد الله بن عبد العزيز الدولي لخدمة اللغة العربية، ط١، ١٤٣٧ هـ.

- الثالث والعشرون من مارس ١٩٦٥: عند ما جرى الدم أنهارا في الدار البيضاء، إسماعيل عزام، موقع هسبريس https: www.hespress.com.
- ثقافتنا في ضوء التاريخ، عبد الله العروي، بيروت والدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، ط٤، ١٩٩٧ م.
- ثقافتنا في عصر العولمة، أحمد درويش، القاهرة، الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان، ط١، ٢٠٠٣ م.
-ثمانون عاما من الحرب الفرنكفونية ضد الإسلام واللغة العربية، إدريس الكتاني، الرباط، نادي الفكر الإسلامي، ط١، ١٤٢١ هـ .
- الثنائيات في قضايا اللغة العربية من عصر النهضة إلى عصر العولمة، نهاد الموسى، القاهرة، دار الشروق، ط١، ٢٠٠٣ م.
- الجامعة والتنمية، علي القاسمي، سلسلة المعرفة للجميع، ٢٠٠٢ م.
- جدل الهوية ولغة التعليم في المغرب الأقصى من منظور تاريخي، امحمد جبرون، اللغة والهوية في الوطن العربي: إشكاليات تاريخية وثقافية وسياسية، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ط١، ٢٠١٣ م.
- جدلية الحرف العربي وفيزيائية الفكر والمادة، محمد عنبر، دمشق، دار الفكر، ط١، ١٤٠٨ هـ.
- الجزائر: الأمة والمجتمع، مصطفى الأشرف، ترجمة حنفي بن عيسى، الجزائر، دار القصبة، ٢٠٠٧ م.
- الجزائر أول بلد متحدث بالفرنسية بعد فرنسا، صحيفة الشروق، ١٣/ ١١/ ٢٠٠٠.
- الجزائر في التاريخ، عثمان سعدي، الجزائر، دار الأمة، ٢٠١٣ م.
- الجمهورية العالمية للآداب، باسكال كازانوفا، ترجمة أمل الصبان، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، ط١، ٢٠٠٢ م.
- الحرب الكبرى على اللغة العربية، صحيفة المساء، ٤/ ٦/ ٢٠٠٩ م.
- حرب اللغات والسياسات اللغوية، لويس جان كالفي، ترجمة حمزة حسن، بيروت، المنظمة العربية للترجمة، ط١، ٢٠٠٨ م.

- حركة الترجمة بمصر خلال القرن التاسع عشر، جاك تاجر، القاهرة، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، ٢٠١٢ م.
- حركة الترجمة في تونس وأبرز مظاهرها في الأدب ١٨٤٠ - ١٩٥٥ م، محمد مواعدة، الدار العربية للكتاب، ١٩٨٦ م.
- الحركة الديغولية في الجزائر ١٩٤٠ - ١٩٤٥ م من الظهور إلى المواجهة مع الحركة الوطنية، لزهر بديده، رسالة دكتوراه بجامعة الجزائر، ١٤٣٠-١٤٣١هـ.
- الحروف اللاتينية بديلا عن العربية، مصطفى بكري، موقع بوابة داماس.
- الحروف اللاتينية بديلا عن العربية، مصطفى بكري، في التعريب والتغريب، محمود فوزي المناوي، القاهرة، مركز الأهرام للترجمة والنشر، ط١، ١٤٢٦هـ.
- حزب البعث الفرنسي، أحمد بن نعمان، الجزائر، دار الأمة، ٢٠٠٠ م.
- حزب فرنسا في المغرب، الحسن السرات، الجزيرة نت، http://www./aljazeera.net/news/presstour.
- الحفاظ على اللغة حفاظ على الهوية: كوريا والصين نموذجاً، فيحاء عبد الهادي، صحيفة الأيام، ١٥/ ٤/ ٢٠٠٧ م.
- حمروش فرمل تعريب الإدارة وخوَّف الشاذلي بالألمان، موقع بوابة الشرق، http://www.echoroukonline.com/ara/articles/229487.html
- حنين بن إسحاق: دراسة تاريخية ولغوية، أحمد بن محمد الدبيان، الرياض، مكتبة الملك فهد الوطنية، ١٤١٤ هـ.
- حوار حول التعريب واللغة العربية، صحيفة الرياض، الخميس جمادى الآخرة ١٤٢٩ هـ.
- حوار مع الذات، محمد بلقاسم خمار، دمشق، اتحاد الكتاب العرب، ٢٠٠٠م.
- حوار مع صديق أمازيغي، عبد السلام ياسين، الدار البيضاء، مطبوعات الأفق، ط١، ١٩٩٧م.
- حول آثار الاستعمار اللغوي والثقافي، صحيفة الصباح يوم ١٦/ ٣/ ٢٠٠٨ م.
- حول تعريب التعليم وتعريب العلم والتكنولوجيا، أحمد سعيدان، مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، عدد ١، مج١، عام ١٣٩٨ هـ.

- حول تعريب الطب، وائل خوري، في التعريب والتغريب، محمود فهمي المناوي، القاهرة مركز الأهرام للترجمة والنشر، ط١، ١٤٢٦ هـ.
- الحيوان، الجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط٢، ١٣٨٤ هـ.
- خرافة التقدم والتخلف، جلال أمين، القاهرة، مكتبة الشروق، ط٣، ٢٠٠٩ م.
- الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني، تحقيق محمد علي النجار، مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية، ١٣٧١ هـ.
- خمس عشرة سنة من النضال في خدمة اللغة العربية، الجزائر، الجمعية الجزائرية للدفاع عن اللغة العربية، ٢٠٠٥ م.
- الدارجة ضد الفصحى: في بعض أوجه السياسة اللغوية الاستعمارية بالمغرب، سلمان بو نعمان، الدارجة والسياسة اللغوية في المغرب، الرباط، المركز المغربي للدراسات والأبحاث المعاصرة، ط١، ٢٠١٢ م.
- دراسات في الأدب العربي الحديث، محمد مصطفى هدارة، بيروت، دار العلوم العربية، ط١، ١٤١٠ هـ.
- دراسات في تاريخ التعليم بالبلاد التونسية في الفترة المعاصرة، علي الزيدي، صفاقس، منشورات دار الفارابي، ٢٠١٤ م.
- دراسة نقدية للدستور المغربي للعام، محمد مدني وآخران، http://constitutionnet.org/sites/default/files/the_2011_moroccan_constitution-arabic_-_low.pdf.
-الدستور (دستور المغرب)، المغرب، الأمانة العامة للحكومة، مديرية المطبعة الرسمية، ٢٠١١ م.
- دستور الهند، https://www.constituteproject.org/constitution/India_.pdf?lang=ar
- الدعوة إلى الدارجة بالمغرب: الجُذور والامتدادات، الأهدافُ والمُسَوِّغاتُ، عبد العلي الودغيري، الدارجة والسياسة اللغوية في المغرب، الرباط، المركز المغربي للدراسات والأبحاث المعاصرة، ط١، ٢٠١٢ م.

دفاع عن تعليم الطب باللغة العربية، ماجد عثمان وزهير أحمد السباعي، موقع شبكة صوت العربية، http://www.voiceofarabic.net/ar/articles/2106.
- دفاعا عن اللغة العربية، كمال يوسف الحاج، بيروت، منشورات عويدات، ١٩٥٩ م.
- الدكتور فؤاد بو علي: السياسات اللغوية يجب أن تخضع لدراسة علمية وليس إلى المزايدة الأيديولوجية، صحيفة التجديد، ١٤/ ١٢/ ٢٠٠٨ م.
- دور الإعلام والفنون في النهوض بالفصحى ومواجهة التغريب، علي لغزيوي، اللغة العربية إلى أين؟، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (إيسيسكو)، ١٤٢٦ هـ.
- دور اللغة في تنمية الطاقات البشرية تجربة اللغات الاجنبية في البلدان الافريقية، إدريس الكتاني، اللسان العربي، مج ١٠ ، ع ١، ١٩٧٣ م.
- دور المجتمع المدني في خدمة اللغة العربية، عبد القادر سبيل، اللغة العربية في المنظمات الدولية، الرياض، مركز الملك عبد الله بن عبد العزيز الدولي لخدمة اللغة العربية، ط١، ١٤٣٦ هـ.
- ذاكرة ملك، إيريك لوران، جدة، الدار السعودية للنشر، ط٢، ١٩٩٣ م.
- الرئيس أردغان يدعو لإثراء اللغة التركية، صحيفة يني شفق، https://www.yenisafak.com/ar/news/3493913.
- رسائل الكندي الفلسفية، تحقيق محمد عبد الهادي أبو ريدة، القاهرة، دار الفكر العربي، ١٣٦٩ هـ.
- الرسالة، الإمام الشافعي، تحقيق أحمد محمد شاكر، بيروت، دار الكتب العلمية، د. ت.
- رسالة إلى صديق حول مستقبل اللغة العربية، صحيفة القبس، يوم ١٩/ ٤/ ٢٠١٢.
- رسالة في الطريق إلى ثقافتنا ضمن كتاب «المتنبي»، محمود شاكر، جدة، دار المدني، والقاهرة، مكتبة الخانجي، ١٤٠٧ هـ.
- الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية: دراسة سوسيو نقدية، إعداد أم الخير جبور، رسالة دكتوراه بكلية الآداب بجامعة وهران، ٢٠١٠ - ٢٠١١ م.

- سؤال المنهج: في أفق التأسيس لأنموذج فكري جديد، طه عبد الرحمن، جمع وتقديم رضوان مرحوم، بيروت، المؤسسة العربية للفكر والإبداع، ط١، ٢٠١٥ م.
- سؤال الهوية الكردية، عبد الكريم يحيى الزيباري، بيروت، دار الفارابي، ط١، ٢٠١٢ م.
- السجال اللغوي وتطور التعريب في الجزائر بعد الاستقلال، سفيان لوصيف، http://www.almaktabah.net/vb/showthread.php?t=10028.
- السجال اللغوي والثقافي حول اللغة الفرنسية في المغرب، مصطفى الغربي، ترجمة محمد اسليم، موقع محمد اسليم. http://aslimnet.free.fr/traductions/gharbi/fra3.htm.
- سفر التكوين، الإصحاح الثامن.
- سفر التكوين، الإصحاح الحادي عشر.
- السفير الروسي لمسؤولين مغاربة: كيف تطلبون مني الحديث بالفرنسية؟، ماجدة أيت لكتاوي، موقع هسبريس، https://www.hespress.com/societe/.
- سمط اللآلي في شرح أمالي القالي، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكري، تحقيق عبد العزيز الميمني، بيروت، دار الكتب العلمية، د. ت.
- السياسات اللغوية، لويس جان كالفي، ترجمة محمد يحياتن، الجزائر، منشورات الاختلاف، وبيروت، الدار العربية للعلوم ناشرون، ط١، ١٤٣٠ هـ.
- السياسات اللغوية: مسارات ومفاهيم، محمد خطابي، الرياض، مركز عبد الله بن عبد العزيز الدولي لخدمة اللغة العربية، ١٤٤٠ هـ.
- سياسة التسلط الاستعماري والحركة الوطنية الجزائرية ١٨٣٠ - ١٩٥٤ م، يحيى بو عزيز، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، ٢٠٠٧ م.
- السياسة اللغوية: التخطيط تحت ضغط السلاح، الصادق محمد آدم، موقع سودانيل وموقع سودارس، https://www.sudaress.com/sudanile/43751.
- السياسة اللغوية لدى الأمم الحية، ولي الله كندو، مجلة التخطيط والسياسة اللغوية، ع ١، س ١، ١٤٣٧ هـ.

- السياسة اللغوية والتخطيط اللغوي من عصر القومية إلى عصر العولمة، سو رايت، ترجمة أحمد عبد الله البنيان، الرياض، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ط١، ١٤٣٩ هـ.
- السياسة اللغوية والتخطيط: مسار ونماذج، عبد القادر الفاسي الفهري، الرياض، مركز الملك عبد الله بن عبد العزيز الدولي لخدمة اللغة العربية، ١٤٣٥ هـ.
- السيرة النبوية، ابن هشام، تحقيق مصطفى السقا وآخرين، بيروت، دار المعرفة، د. ت.
- الشذرات: مقالات ومحاضرات في الأدب والعلم والفلسفة، مصطفى الشهابي، بيروت، دار الكتاب الجديد، ١٣٨٥ هـ.
- شمس العرب تسطع على الغرب، زيغريد هونكه، ترجمة فاروق بيضون وكمال دسوقي، بيروت، دار صادر، ط٩، ١٤٢١ هـ.
- شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم، نشوان بن سعيد الحميري، تحقيق حسين بن عبد الله العمري وآخرين، بيروت، دار الفكر المعاصر ودمشق دار الفكر، ط١، ١٤٢٠ هـ.
- شيء من المأزق الهوياتي، في مؤسسات التعليم الجامعي الخليجي: الهجرة نحو الإنجليزية، عبد الله البريدي، قضايا التعليم وتحدياته في دول مجلس التعاون الخليجي لدول الخليج العربية، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الدوحة، ٢٠١٥ م.
- شيطانية الآيات الشيطانية وكيف خدع سلمان رشدي الغرب، أحمد ديدات، ترجمة علي الجوهري، القاهرة، دار الفضيلة، ١٩٩٠ م.
- صدام الحضارات وإعادة بناء النظام العالمي، صموئيل هنتنغتون، تعريب مالك عبيد أبو شهيوة ومحمود محمد خلف، ليبية، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، ط١، ١٤٢٩ هـ.
- الصراع اللغوي، إبراهيم علي الدبيان، أعمال مؤتمر علم اللغة الدولي الثالث بعنوان: التعليم باللغات الأجنبية في العالم العربي ١٤ - ١٥ فبراير ٢٠٠٦ م.
- الصراع اللغوي في الجزائر: تأزيم الهوية، ديدوح عمر، مجلة المعرفة، ١١/ ٢٨/ ١٤٣٠.

- الصراع اللغوي في العالم العربي بين دعاة العامية وأنصار الفصحى: المغرب نموذجاً، محمد علي الحنشي، العربية والترجمة، مج ٧، ع ٢٣، ٢٠١٥ م.
- صرخة مغربي، عبد الله لخلوفي، د. ت.
- الصعوبات التي تواجه تعريب التعليم العالي في الوطن العربي، سلطان الشاوي، المؤتمر الثاني للوزراء المسؤولين عن التعليم العالي والبحث العلمي في الوطن العربي، تونس ١٩٨٣ م.
- صفعة للفرنكوش: فرنسة تنتصر للإنجليزية، حسين لقرع، بوابة الشروق، https://www.echoroukonline.com/ara/articles/..
- صوت الطالب الزيتوني، عبد الباسط الغابري، منوبة (تونس)، مركز النشر الجامعي، ٢٠١١ م.
- ضباط فرنسة في المغرب العربي، عبد العالي رزاقي، الجزائر، دار الأمة، ٢٠١٣ م.
- ضعف التعريب النفسي في المجتمع التونسي وغيره من المجتمعات المغاربية، محمود الذوادي، مجلة المستقبل العربي، http://www.caus.org.lb/PDF/EmagazineArticles/mustaqbal_429_mahmoud_alzawadi.pdf.
- طرائف الذكريات عن كبار الشخصيات، علي القاسمي، الرياض، دار الثلوثية، ط١، ١٤٣٨ هـ.
- طريق العودة، بهارتي موكرجي، عبقرية اللغة، تحرير وتقديم ويندي ليسير، ترجمة حمد الشمري، السعودية، أثر، ط١، ١٤٤٠ هـ.
- ظاهرة التعدد اللغوي ومضاعفاتها في المحيط المجتمعي والتربوي المغربي، مبارك ربيع، المدرسة المغربية، ع ٣، مارس ٢٠١١ م.
- العامية الليبية من فصيحة تدرجت إلى دارجة تفصحت، علي فهمي خشيم، مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ع ٨٩، شعبان ١٤٢١ هـ.
- عبر منظار اللغة: لِمَ يبدو العالم مختلفا بلغات أخرى؟، غاي دويتشر، ترجمة حنان عبد المحسن مظفر، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب (سلسلة عالم المعرفة)، ٢٠١٥ م.

العدوان على العربية عدوان على الإسلام، عبد الرحمن رأفت الباشا، دار الأدب الإسلامي، ط١، ١٤١٧ هـ.
- العرب والانتحار اللغوي، عبد السلام المسدي، بيروت، دار الكتاب الجديد، ط١، ٢٠١١ م.
- العربية تواجه التحديات، عبد الرحمن طالب، موقع المكتبة الإسلامية، http://library.islamweb.net/newlibrary/display_umma.php?lang=&BabId=1&ChapterId=4&BookId=2155&CatId=201&startno=0.
- العربية الفصحى الحديثة: بحوث في تطور الألفاظ والأساليب، جاروسلاف ستتكيفتش، ترجمة محمد حسن عبد العزيز وتعليقه، القاهرة، دار النمر للطباعة، ١٩٨٥.
- العربية الفصيحة لغة التعليم في الوطن العربي، عبد العزيز البسام، اللغة العربية والوعي القومي، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ط٢، ١٩٨٦م.
- العربية وسؤال الهوية: صراع الهويات، موقع الائتلاف الوطني من أجل اللغة العربية بالمغرب.
- العربية: وظلم ذوي القربى، موقع بلا فرنسية، http://www.blafrancia.com/node/.
- عشرات المؤتمرات وآلاف العلماء والمتخصصين يؤكدون أنه طريق النهضة: تدريس الطب باللغة العربية، محمد هلال، موقع اللغة العربية صاحبة الجلالة، http://www.arabiclanguageic.org/view_page.php?id=296.
- عصر التشهير بالعرب والمسلمين: نحن والعالم بعد ١١ سبتمبر، جلال أمين، القاهرة، مكتبة الشروق، ط٢، ١٤٢٨ هـ.
- العصر العباسي الثاني، شوقي ضيف، القاهرة، دار المعارف، ط٤، ١٩٨١ م.
- العفن (مذكرات مالك بن نبي)، ترجمة نور الدين خندود، الجزائر، دار الأمة، ط١، ٢٠٠٧ م.
- العلاقة بين اللغة والفكر: دراسة للعلاقة اللزومية بين الفكر واللغة، أحمد عبد الرحمن حماد، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٥ م.

- علم الاجتماع، أنتوني غدنز، ترجمة فايز الصياغ، بيروت، المنظمة العربية للترجمة، ط١، ٢٠٠٥ م.
- علم اللغة الاجتماعي، د. هدسون، ترجمة محمود عياد، القاهرة، عالم الكتب، ط٢، ١٩٩٠ م.
- علم اللغة والترجمة، جورج مونان، ترجمة أحمد زكريا إبراهيم، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، ط١، ٢٠٠٢ م.
- العلم وبناء الأمم: دراسة تأصيلية لدور العلم في بناء الدولة، راغب السرجاني، القاهرة، مؤسسة اقرأ، ط١، ١٤٢٨ هـ.
- العلم واللغة: متى يتكلم العلم العربية؟، محمود توفيق المناوي، القاهرة، المكتبة الأكاديمية، ٢٠١١ م.
- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ابن رشيق القيرواني، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، بيروت، دار الجيل، ط٥، ١٤٠١ هـ.
- عناصر التعريب وقضيتنا الحضارية، محمد توفيق الرخاوي، مجلة اللسان العربي، ع ٥٢.
- عند ما تموت اللغات: انقراض لغات العالم وتآكل المعرفة الإنسانية، ك. ديفيد هريسون، ترجمة محمد مازن جلال، الرياض، جامعة الملك سعود. ١٤٣٢ هـ.
- عن ظاهرة العداء للغة العربية والدعوات إلى الدارجة، حميش، بنسالم، مجلة الفرقان ع ٧٣، ٢٠١٤ م.
- عنف اللغة، جان جاك لوسركل، ترجمة محمد بدوي، بيروت، الدار العربية للعلوم والمركز الثقافي العربي، ط١، ٢٠٠٥ م.
- عوامل تنمية اللغة العربية، توفيق محمد شاهين، القاهرة، مكتبة وهبة، ط١، ١٤٠٠ هـ.
- عولمة الثقافة، جان بيير فارنيي، ترجمة عبد الجليل الأزدي، القاهرة، الدار المصرية اللبنانية، ط١، ١٤٢٣ هـ.
- الغارة على العالم الإسلامي، أ.ل. شاتليه، ترجمة محب الدين الخطيب ومساعد اليافي، جدة، الدار السعودية، ط٤، ١٤٠٥ هـ.

غرائب الغرب، محمد كرد علي، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، ط١، ١٤٣٣هـ.
- الغريزة اللغوية: كيف يبدع العقل اللغة، ستيفن بنكر، ترجمة حمزة المزيني، الرياض، دار المريخ، ١٤٢٠ هـ.
- الغيث المسجم في شرح لامية العجم، صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٣٩٥ هـ.
- الفاسي الفهري: الدولة مسؤولة عن الأضرار التي تلحق بالعربية، موقع هسبريس، https://www.hespress.com/intervicws/.
- فرانكفوية بورقيبة هل بنت تونس أم دمرتها؟، نزار بولحية، القدس العربي، ٧ ديسمبر ٢٠١٦ م.
- الفرانكفونية والعلاقات الدولية، خالد رستم، مجلة الدبلوماسية الدولية، العدد ١٩، ١٤٢٥ هـ.
- الفرانكوفونية واللغة العربية، شاكر نوري، https://www.albayan.ac/paths/art/.
- فرنسا والأطروحة البربرية، أحمد بن نعمان، الجزائر، دار الأمة، ٢٠١١ م.
- الفرنسية أفسدت لغة الجزائريين وحولتها إلى أضحوكة، بوابة الشروق، https://www.echoroukonline.com/ara/articles/.
- الفرنسية دون دموع، لوك سانت، عبقرية اللغة، تحرير وتقديم ويندي ليسير، ترجمة حمد الشمري، السعودية، أثر، ط١، ١٤٤٠ هـ.
- الفرنسية في خطر ونسعى لجعلها لغة التدريس في الثانوي بالجزائر، قناة الجزائر، http://www.algeriachannel.net/.
- الفرنكفونية والسياسة اللغوية التعليمية الفرنسية بالمغرب، ترجمة وتقديم وتعليق عبد العلي الودغيري، الدار البيضاء، مطبعة النجاح الجديدة، ط١، ١٩٩٣ م.
- الفصحى والعامية في وسائل الإعلام، يوسف عز الدين، مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، العدد ٩٢، (موقع المكتبة الشاملة).
- فطرة الدفاع عن اللغة الأم بين التفعيل والتعطيل: وقائع ونماذج، رشيد أحمد بلحبيب، ضمن بحوث مؤتمر اللغة العربية ومواكبة العصر، بالجامعة الإسلامية عام ١٤٣٣ هـ.

- فقه الفلسفة، طه عبد الرحمن، بيروت والدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، ط٣، ٢٠٠٨م.
- فقه اللغة وأسرار العربية، الثعالبي، شرحه وقدم له ياسين الأيوبي، صيدا وبيروت، المكتبة العصرية، ط٢، ١٤٢٠ هـ.
- فلسفة اللغة، سليفان أورو وجاك ديشان وجمال كولوغلي، ترجمة بسام بركة، بيروت، المنظمة العربية للترجمة، ط١، ٢٠١٢ م.
- فلسفة اللغة، كمال يوسف الحاج، دار النشر للجامعيين، بيروت، ١٩٥٦ م.
- فلسفة اللغة العربية، عثمان أمين، القاهرة، مكتبة مصر، ١٩٦٥ م.
- الفلسفة وقضايا الحياة، برتراند رسل، ترجمة علي مصباح، تونس، دار المعرفة، د. ت.
- فن القول، أمين الخولي، القاهرة، دار الكتب المصرية، ١٩٩٦ م.
- في الأمن اللغوي، صالح بلعيد، الجزائر، دار هومة، ط٢، ٢٠١٢ م.
- في تشخيص أزمة التعليم الجامعي بالمغرب: الواقع الموجود والأمل المنشود، عبد الغني منديب، مجلة عالم التربية، ع ٢٤، ٢٠١٤ م.
- في سبيل البعث، ميشيل عفلق، د. ت.
- في سبيل العربية، محمد هيثم الخياط، القاهرة، مكتبة وهبة، ط٤، ١٤٢٥ هـ.
- في شرف العربية، إبراهيم السامرائي، موقع المكتبة الإسلامية http://library.islamweb.net/newlibrary/display_umma.php?lang=&BabId=14&ChapterId=14&BookId=242&CatId=201&startno=0.
- في علم الكتابة، جاك دريدا، ترجمة أنور مغيث ومنى طلبة، القاهرة، المركز القومي للترجمة، ط٢، ٢٠٠٨ م.
- في اللغة والفكر، عثمان أمين، القاهرة، معهد البحوث والدراسات العربية، جامعة الدول العربية، ١٩٦٦/ ١٩٦٧ م.
- القديم والحديث، محمد كرد علي، مصر، المكتبة التجارية الكبرى، ط١، ١٣٤٣ هـ.
- قضايا استعمال اللغة العربية في المغرب، ندوة لجنة اللغة العربية، أكاديمية المملكة المغربية، الحلقة الثانية، فاس ١٦ -١٧، ربيع الآخر ١٤٢٦ هـ.

- قضايا اللغة العربية في العصر الحديث، سمر روحي الفيصل، د. م، ٢٠٠٩ م.
- قوائم السيرك، بيرت كيزر، عبقرية اللغة، تحرير وتقديم ويندي ليسير، ترجمة حمد الشمري، السعودية، أثر، ط١، ١٤٤٠ هـ.
- قواعد اللغة الفارسية، برويز ناتل خانلري، ترجمة أمين عبد المجيد بدوي، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٣٩٦ هـ.
- كتاب الأعاجيب في كلام الأعاريب في الصحافة والسياسة والإعلام، علي محمد دريش، علي محمد الدرويش، ملبورن، شركة رايتسكوب (أوسترالية)،د. ت.
- كتاب الأموال، أبو عبيد القاسم بن سلام، القاهرة، مكتبة الكليات الأزهرية ودار الفكر، ١٤٠١ هـ.
- كتاب الحروف، أبو نصر الفارابي، تحقيق محسن مهدي، بيروت، دار المشرق، د. ت.
- كتاب الزينة، أبو حاتم الرازي، تحقيق سعيد الغانمي، بيروت، منشورات الجمل، ط١، ٢٠١٥ م.
- كتاب الشاء، الأصمعي، تحقيق صبيح التميمي، بيروت، دار أسامة، ١٤٠٧هـ.
- كتاب الماء: أول معجم طبي عربي، تقديم عبد الله التازي، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، مج ٧٥، ج ٤، رجب، ١٤٢١ هـ.
- كتاب مائية العقل ومعناه واختلاف الناس فيه، الحارث بن أسد المحاسبي، موقع الكتاب الإسلامي، http://www.islamicbook.ws/ageda/maeit-alaql.html.
- كتاب النوادر أبو مسحل الأعرابي، تحقيق عزة حسن، دمشق، مجمع اللغة العربية، ١٣٨٠ هـ.
- كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، محمد علي التهانوي، ترجمة عبد الله الخالدي، تحقيق علي دحروج، بيروت، مكتبة لبنان ناشرون، ط١، ١٩٩٦ م.
- كلمات العالم: منظومة اللغات الكونية، أبرام دوسوان، ترجمة صديق محمد جوهر، أبو ظبي، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث (كلمة)، ط١، ١٤٣٢ هـ.

- كلمة افتتاح الندوة، محمد بن شريفة، قضايا استعمال اللغة العربية في المغرب، ندوة لجنة اللغة العربية، أكاديمية المملكة المغربية، الحلقة الثانية، فاس١٦ -١٧، ربيع الآخر ١٤٢٦ هـ.
- كلمة في اللغة العربية، إسعاف النشاشيبي، القدس، مطبعة بيت المقدس، ١٩٢٥ م.
- لا بد من تكامل العولمة والهوية ليكون العالم واحدا ومتعددا، عبد الهادي بوطالب، بحوث ندوة العولمة ولهوية، أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، ١٩٩٧.
- «لا يا معالي رئيس الحكومة، إنما عزتنا في لغتنا»، فؤاد بو علي، موقع هسبريس، https://www.hespress.com/writers/.
- لسان آدم، عبد الفتاح كيليطو، ترجمة عبد الكبير الشرقاوي، الدار البيضاء، دار توبقال، ط٢، ٢٠٠١ م.
- لسان العرب، بيروت، دار صادر، د. ت.
- اللسان العربي: الهوية، الأزمة، المخرج، عبد الوارث سعيد، القاهرة، دار النشر للجامعات المصرية، د. ت.
- اللسان والإنسان: مدخل إلى معرفة اللغة، حسن ظاظا، دمشق، دار القلم، وبيروت، الدار الشامية، ط٢، ١٤١٠ هـ.
- اللغات تدريسا وتعلما وبحثا في المنظومات التربوية المعاصرة: تحليل مقارن، عبد الجليل العكاري، تدريس اللغات وتعلمها في منظومات التربية والتكوين: مقاربات شخصية واستشرافية، ٢٠ إلى ٢١ أكتوبر ٢٠٠٩ م.
- لغات في الطريق إلى الاندثار، حسني عبد الحافظ أحمد، مجلة الأمن والحياة، صفر ١٤٣٣ هـ.
- اللغات المغاربية في مواجهة التفوق الثقافي الأورومتوسطي، أحمد معتصم، مجلة المدرسة المغربية ع ٣، ٢٠١١ م.
- لغتنا الجميلة احتفاء أممي وغربة في عقر الدار، عبد الله باليزي، موقع تينجداد أنفو http://www.tinejdad.info/opinion/.

لغتنا العربية جزء من هويتنا، عمار بوحوش، اللغة العربية وأسئلة التطور الذاتي والمستقبل، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ط١، ٢٠٠٥ م.
لغتنا العربية والسياسة، عبد الحي عبد الحق، د. ت.
- اللغة، جورج فندريس، ترجمة عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصاص، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، د. ت.
- اللغة الأب، نجلاء عثمان التوم، http://mohamedrabeea.net/library/ 46af-92fa-50ff523dbcf9.pdf-pdf/3120690d-0b38
- لغة الإعلان في وسائل الإعلام، مسعود بوبو، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، ج٤، مج ٧٤.
- اللغة بين القومية والعالمية، إبراهيم أنيس، القاهرة، دار المعارف، ١٩٧٠ م.
- لغة التدريس في جامعة تعز: دراسة حالة، عباس علي السوسوة، أعمال مؤتمر علم اللغة الدولي الثالث بعنوان: التعليم باللغات الأجنبية في العالم العربي ١٤- ١٥ فبراير ٢٠٠٦ م.
- لغة التعليم العالي في الجامعات العربية: دور الإنجليزية في سياق التعرب، محمد راجي الزغول ورياض فايز حسن، مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، ع ٣٣، ذو القعدة ١٤٠٧ هـ.
- لغة التعليم وتأثيرها في الهوية العربية: دراسة ميدانية على عينة من الطلاب المصريين في ظل أنظمة تعليمية متباينة، أحمد حسين حسنين، اللغة والهوية في الوطن العربي، الدوحة، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ط١، ٢٠١٣ هـ.
- لغة الخطاب التعليمي الجامعي بين إيديولوجيا العامية وإيديولوجيا العولمية، مثل من الجزائر والمملكة العربية السعودية: رؤية سوسيو لسانية، نعمان بو قرة، التخطيط والسياسة اللغوية، س١، ع٢، ١٤٣٧ هـ.
- اللغة الشاعرة، عباس محمود العقاد، صيدا وبيروت، منشورات المكتبة العصرية. د. ت.
- لغة الطفل العربي في ظل العولمة، أحمد الضبيب، ضمن أعمال مؤتمر لغة الطفل العربي في عصر العولمة ١٧-١٩ فبراير ٢٠٠٧ م.

- لغة العرب وكيف ننهض بها، محمد عطية الأبراشي، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ط١، ١٣٦٦ هـ.
- اللغة العربية أساس التنمية في وطنها، محمد الأوراغي، أعمال المؤتمر الدولي: اللغة العربية والتنمية البشرية: الواقع والرهانات، وجدة - المغرب، مركز الدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ٢٠٠٨ م.
- اللغة العربية بين الاستجابة لمتطلبات التنمية وهاجس المحافظة على الهوية، الربعي بن سلامة، اللغة والهوية في الوطن العربي: إشكاليات التعليم والترجمة والمصطلح، الدوحة وبيروت، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ط١، ٢٠١٣ هـ.
- اللغة العربية بين تشويه الإعلام والإعلان، وليد محمد السراقبي، بحوث المؤتمر النقدي الحادي عشر لقسم اللغة العربية بكلية الآداب بجامعة جرش (اللغة العربية في مواجهة التحديات المعاصرة)، الأردن، أبريل ٢٠٠٨ م.
- اللغة العربية بين مهددات الفناء ومقومات البقاء والجدل حول واقعها المعاصر، رشدي أحمد طعيمة، اللغة العربية والتعليم: رؤية مستقبلية للتطوير، أبو ظبي، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الإستراتيجية، ٢٠٠٨م.
- اللغة العربية بين يأس في خليج العرب وأمل في أرخبيل الملايو، عادل الشيخ عبد الله أحمد، المؤتمر الدولي الثاني للغة العربية بدبي من ٢٧ - ٣٠ جمادى الآخرة ١٤٣٤ هـ، موقع اللغة العربية صاحبة الجلالة، http://www. alarabiahconference.org/uploads/.
- اللغة العربية في إسرائيل: سياقات وتحديات، محمد أمارة، الناصرة، المركز العربي للحقوق والسياسات، ط١، ٢٠١٠ م.
- اللغة العربية في الجامعة المغربية بين المتطلبات البيداغوجية والوظيفية، عبد القادر كنكاي، أعمال الندوة الوطنية: وضع اللغة والأدب العربيين في الجامعة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالقنيطرة - المغرب، عام ٢٠٠٣ م.
- اللغة العربية في الخطاب التشريعي والإداري والإعلامي بالمغرب، أكاديمية المملكة المغربية، ١١ - ١٢ ذو القعدة ١٤٣١ هـ.

اللغة العربية في خطر: عدم استعمال المختصرات والرموز العربية، حياة بناجي، العربية في خطر، مخبر الممارسات اللغوية بالجزائر، جامعة مولود معمري، تيزي وزو، ٢٠١٣ م.
- اللغة العربية في العصر الحديث: قيم الثبوت وقوى التحول، نهاد الموسى، عمان والقاهرة، ط١، ١٤٢٨ هـ.
- اللغة العربية في المدرسة المغربية: نتائج أعمال الورشة المتخصصة، سعيد بنكراد، تدريس اللغات وتعلمها في منظومات التربية والتكوين: مقاربات تشخيصية واستشرافية، ٢٠ إلى ٢١ أكتوبر ٢٠٠٩ م.
- اللغة العربية في مراحل الضعف والتبعية، عبد العلي الودغيري، بيروت، الدار العربية للعلوم ناشرون، ط١، ١٤٣٤ هـ.
- اللغة العربية في المنظمات الدولية، ناصر بن عبد الله الغالي، الرياض، مركز الملك عبد الله بن عبد العزيز الدولي لخدمة اللغة العربية، ط١، ١٤٣٦ هـ.
- اللغة العربية: قضايا الواقع والمعاصر، أحمد مطر العطية، اللغة العربية والتعليم: رؤية مستقبلية للتطوير، أبو ظبي، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الإستراتيجية، ط١، ٢٠٠٨ م.
- اللغة العربية المعاصرة في دول الخليج العربي وقضية الهوية، أحمد محمد المعتوق، بيروت، الدار العربية للعلوم ناشرون، ط١، ١٤٣٥ هـ.
- اللغة العربية هويتنا القومية، صالح الخرفي، من قضايا اللغة العربية المعاصرة، تونس، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ١٩٩٠ م.
- اللغة العربية وأسئلة العصر، وليد العناتي وعيسى برهومة، عمان، دار الشروق، ط١، ٢٠٠٧ م.
- اللغة العربية وتحديات العصر، بسام بركة، حوار العرب، إبريل ٢٠٠٥ م.
- اللغة العربية وتحديات العصر، عبد العزيز بن عبد الله، مجلة اللسان العربي، مج ١٣، ج ١.
- اللغة العربية والتعليم الجامعي، غالب عبد العزيز الامل، موقع الألوكة، ./40750/https://www.alukah.net/literature_language/0

- اللغة العربية ودورها في التشريع والقضاء، فهد أبو العثم، موقع مجمع اللغة العربية الأردني.
- اللغة العربية وسؤال الهوية، مصطفى شميعة وموسى الشامي، فاس، مطبعة آنفو برانت، ٢٠١٣ م.
- اللغة العربية وشباب الخليج العربي، بدر بن علي المقبل، القيمة المعنوية للغة العربية لدى الشباب في دول مجلس التعاون الخليجي، الرياض، مركز الملك عبد الله بن عبد العزيز الدولي لخدمة اللغة العربية، ط١، ١٤٣٦ هـ.
- اللغة العربية والصحوة العلمية الحديثة، كارم السيد غنيم، القاهرة، مكتبة ابن سينا، ١٤١٠ هـ.
- اللغة العربية ومكانتها في الثقافة العربية الإسلامية، جميل الملائكة، من قضايا اللغة العربية المعاصرة، تونس، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ١٩٩٠ م.
- اللغة العربية وهوية الأمة في مؤسسات التعليم العالي في الأردن (ندوة)، موقع مجمع اللغة العربية الأردني، http://www.majma.org.jo/index.php/.
- اللغة العربية وهيمنة لغة التكنولوجيا في عصر العولمة وصدام الحضارات واللغات، وقائع الأيام الدراسية: لغة الحق ولغة القانون، محمد اشتاتو، معهد الدراسات والأبحاث للتعريب - المغرب، ج ٣، ٢٠٠٤ م.
- اللغة في المجتمع، م. م. لويس، ترجمة تمام حسان وإبراهيم أنيس، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، ١٩٥٩ م.
- لغة كل أمة روح ثقافتها، محمد عبد الكريم الجزائري، باتنة - الجزائر، دار الشهاب، د. ت.
- اللغة النوبية، محمد متولي بدر، ٢٠١٠ م.
- اللغة والاقتصاد، فلوريان كولماس، ترجمة أحمد عوض، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب (سلسلة عالم المعرفة)، ٢٠٠٠ م.
- اللغة وتمثيل الهوية: تحليل مفهومي، محمد أمين، أشغال الندوة الوطنية: مفاهيم في اللغة والأدب - مقاربات للنشر والصناعات الثقافية - المغرب، ٢٠١٥ م.

اللغة والسحر، فالح شبيب العجمي، الرياض، ط١، ١٤٢٤ هـ.
اللغة والسلطة والمجتمع في المغرب العربي، جلبير غرانغيوم، ترجمة محمد اسليم، الدار البيضاء، إفريقيا الشرق، ٢٠١١ م.
- اللغة والسياسة في عالم ما بعد ١١ سبتمبر، ٤٣، محمد محمد داود، القاهرة، دار غريب، ٢٠٠٣ م.
- اللغة والمحيط، إدوارد سابير، ترجمة مختار الأحمدي نويوات، ضمن كتاب «عن اللسان وفي البيان، الجزائر، المجلس الأعلى للغة العربية، د. ت.
- اللغة والانتماء اللغوي، فؤاد بوعلي، موقع صوت العربية. http://www.voiccofarabic.net/index.php?option=com_content&view=article&id=956:2011-10-19-19-28-08&catid=69:2008-06-07-10-51-04&Itemid=452.
- اللغة والهوية، محمد نافع العشيري، الشارقة، دار الثقافة، ط١، ٢٠١٧ م.
- اللغة والهوية بين الثورة الجزائرية والثورة الفييتنامية، عثمان سعدي، الجزائر، دار الأمة، ٢٠١٤ م.
- لقاء مع وزير التربية الجزائري الأسبق علي بن محمد، برنامج بلا حدود، قناة الجزيرة.
- لماذا يحتقرونها؟، رشيد نيني، موقع بلا فرنسية، http://www.blafrancia.com/node/.
- ما الذي جعل اللغة الإنجليزية هي اللغة العالمية من دون غيرها من اللغات؟، موقع جامعة أم القرى http://uqu.edu.sa/page/ar/
- ما هو طريق مارتن هيدغر إلى اللغة؟، هيثم سرحان، صحيفة الاتحاد، الجمعة ١٦ ذو الحجة ١٤٣٥ هـ.
- المثقفون العرب والغرب، هشام شرابي، دار النهار، بيروت، ط٢، ١٩٧٨ م.
- مجلة عالم التربية في حوار مع الباحث الأكاديمي الدكتور عبد القادر الفاسي الفهري حول المسألة اللغوية في المغرب، ع ٢٦، ٢٠١٦ م.
- المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران خليل جبران: نصوص خارج المجموعة، جمع وتقديم أنطوان القوال، بيروت، دار الجيل، ط١، ١٤١٤ هـ.

- محاضرات في تاريخ الاصطلاحات الفلسفية العربية، لويس ماسنيون، تحقيق زينب محمود الخضيري، القاهرة، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية. د.ت.
- محاضرات في نشوء الفكرة القومية، ساطع الحصري، د. ت.
- المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيدة، تحقيق عبد الحميد هنداوي، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢١ هـ.
- المخصص، ابن سيدة، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٤١٧ هـ.
- المزهر في علوم اللغة وأنواعها، السيوطي، تحقيق محمد أحمد جاد المولى بك وآخرين، صيدا وبيروت، منشورات المكتبة العصرية، ١٩٨٦ م.
- المسألة الثقافية في الوطن العربي، محمد عابد الجابري، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ط٣، ٢٠٠٦ م.
- مسألة الهوية: العروبة والإسلام والغرب، محمد عابد الجابري، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ط٤، ٢٠١٢ م.
- مستقبل الثقافة في مصر، طه حسين، القاهرة، دار المعارف، ط٢، ١٩٩٦ م.
- مستقبل العربية في سوق اللغات، صحيفة العلم، ٢/ ٤/ ٢٠٠٩ م.
- مستقبل اللغة العربية، أحمد محمد الضبيب، الرياض، مركز الملك عبد الله بن عبد العزيز الدولي لخدمة اللغة العربية، ١٤٣٥ هـ.
- مستقبل اللغة العربية بين محاربة الأعداء وإرادة السماء، أحمد بن نعمان، الجزائر، دار النعمان، ٢٠١٤ م.
- المصادر الحقيقية لضعف لغتنا العربية في مدارسنا الثانوية، حسن الشارف، موقع منتديات بوابة العرب، http://vb.arabsgate.com/showthread.php?t=545217.
- مصطفى بن يخلف يتحدث عن تجربته في تعريب سلك مهندسي الإحصاء، مجلة عالم التربية، ع ٤، خريف ١٩٩٦م.
- المصطلحات العلمية في اللغة العربية في القديم والحديث، مصطفى الشهابي، بيروت، دار صادر، ط٣، ١٩٩٥ م.

مصير وحدة الجزائر بين أمانة الشهداء وخيانة الخفراء، أحمد بن نعمان، الجزائر، دار الأمة، ط١، ٢٠٠٥ م.
معاهدة التسليم أو الاستعمار الجديد، فؤاد بو علي، موقع وجدة، http://www.oujdacity.net/regional-article-ar.
- المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم، محمد حسن حسن جبل، القاهرة، مكتبة الآداب، ط١، د. ت.
- المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة، عبد المنعم الحفني، القاهرة، مكتبة مدبولي، ط٢، ٢٠٠٠ م.
- المعجم الفلسفي، جميل صليبا، بيروت، دار الكتاب اللبناني، ١٩٨٢ م.
- المعجم الفلسفي، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، ١٤٠٣ هـ.
- المعجم في الأساليب الإسلامية والعربية، محمد أديب عبد الواحد جمران، الرياض، مكتبة العبيكان، ١٤٢٠ هـ.
- معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، عمر رضا كحالة، دمشق، المكتبة الهاشمية، ١٣٦٨ هـ.
- معجم مقاييس اللغة، ابن فارس، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٤٢٢ هـ.
- معذبو الأرض، فرانز فانون، ترجمة سامي الدروبي وجمال الأتاسي، د. ت.
- المعلوماتية واللغة والأدب والحضارة، جوزف طانيوس لبُّس، بيروت، المؤسسة الحديثة للكتاب، ٢٠١٢ م.
- معيار العلم، أبو حامد الغزالي، تحقيق سليمان دنيا، القاهرة، دار المعارف، ١٩٦٩م.
- مفاهيم الترجمة: المنظور التعريبي لنقل المعرفة، محمد الديداوي، الدار البيضاء وبيروت، المركز الثقافي العربي، ط١، ٢٠٠٧ م.
- المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، تحقيق محمد سيد كيلاني، بيروت، دار المعرفة، د. ت.

- مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية، ، دنيس كوش، ترجمة منير السعيداني، بيروت، المنظمة العربية للترجمة، ط١، ٢٠٠٧ م.
- مقدمة ابن خلدون، تحقيق عبد السلام الشدادي، الدار البيضاء، ط١، ٢٠٠٥م.
- مقدمة ابن خلدون، بيروت، دار القلم، ط٦، ١٤٠٦ هـ.
- مقدمة لدراسة بلاغة العرب، أحمد ضيف، القاهرة، مطبعة السفور، ١٩٢١ م.
- مكانة اللغة الفرنسية في المغرب، حشادي حميد، موقع جماعة العدل والإحسان، https://www.aljamaa.net/ar/.
- ملاحظات نحو تعريف للثقافة، ت. س. إليوت، ترجمة شكري عياد، القاهرة، دار التنوير، ط١، ٢٠١٤ م.
- الممارسات اللغوية في الخطاب الإشهاري الجزائري، محمد خاين، التواصل في اللغات والثقافة والآداب، ع ٣٣، مارس ٢٠١٣ م.
- من الأديب مالك حداد إلى الأمير خالد الفيصل: اللغة العربية، عبدالله بن ثاني، صحيفة الجزيرة، الخميس ١٤ محرم ١٤٣١ هـ.
- مناهج اللغة العربية في المرحلة الجامعية، يعقوب أحمد الشراح، أشغال الندوة الوطنية: تعليم اللغة العربية والتعليم المتعدد، معهد الدراسات والأبحاث للتعريب بالرباط، ٢٠٠٢ م.
- من إشكالات الترجمة الأدبية وخصوصيتها الثقافية، ماهر شفيق، الترجمة وإشكالات المثاقفة، إعداد مجاب الإمام ومحمد عبد العزيز، منتدى العلاقات العربية الدولية، ٢٠١٤ م.
- من حاضر اللغة العربية، سعيد الأفغاني، بيروت، دار الفكر، ط٢، ١٩٧١ م.
- من هوان لغة التعليم إلى وهن الثقافة، الأهرام، السبت ٢١ صفر ١٤٣٦ هـ، ع ٤٦٧٥٨.
- موت اللغة، ديفيد كريستال، ترجمة فهد بن مسعد اللهيبي، د. ت.
- موسى الشامي رئيس الجمعية المغربية لحماية اللغة العربية لـ«التجديد»: لا نقبل أن نعبِّد الطريق إلى الفرنسية عبر هدم أركان العربية، بلال التليدي، التجديد ١٢/ ٥/ ٢٠٠٩ م.

الموسوعة اللغوية، تحرير ن. ي. كولنج، ترجمة محيي الدين حميدي وعبد الله الحميدان، الرياض، جامعة الملك سعود، ١٤٢١ هـ.
موسوعة مصطلحات علم الكلام الإسلامي، سميح دغيم، بيروت، مكتبة لبنان ناشرون، ط١، ١٩٩٨ م.
- موسوعة مصطلحات علم المنطق عند العرب، فريد جبر وآخرين، بيروت، مكتبة لبنان ناشرون، ط١، ١٩٩٦ م.
- موسوعة مصطلحات الفلسفة عند العرب، جيرار جهامي، بيروت، دار لبنان ناشرون، ط١، ١٩٩٨ م.
- موسوعة مصطلحات الكندي والفارابي، جيرار جهامي، بيروت، مكتبة لبنان ناشرون، ط١، ٢٠٠٢ م.
- موقع جمعية الدفاع عن اللغة العربية في تونس، https://www.facebook.com/pg 219734151421909/posts/?ref=page_internal.
- مولود قاسم نايت بلقاسم: حياته وآثاره، شهادات ومواقف، تحرير أحمد بن نعمان، الجزائر، دار النعمان، ٢٠١٦ م.
- النحو الوافي، عباس حسن، القاهرة، دار المعارف، ط٥، ١٩٧٥ م.
- نشأة اللغات وحاجة الأمة للمجمع اللغوي، محمود أحمد عمر النشوي، ط١، د. م.
- نعم ولا، أيمي تان، عبقرية اللغة، تحرير وتقديم ويندي ليسير، ترجمة حمد الشمري، السعودية، أثر، ط١، ١٤٤٠ هـ.
- النقد العربي الحديث ومدارس النقد الغربية، محمد الناصر العجيمي، صفاقس، دار محمد علي الحامي، وسوسة، كلية الآداب، ط١، ١٩٩٨ م.
- نكبة التعريب في الجزائر٢، محمد العربي الزبيري، صحيفة الشروق، ٦/ ١٢/ ٢٠٠٦ م.
- نكبة التعريب في الجزائر، محمد العربي الزبيري، الشروق أونلاين، https://www.echoroukonline.com/.
- النهضة اليابانية المعاصرة: الدروس المستفادة عربيا، مسعود ضاهر، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ط١، ٢٠٠٢ م.

- هل توجد لغة عبرية قديمة في الواقع اللغوي الشرقي القديم؟، محمد المختار العرباوي، مجلة اللغة العربية، الجزائر، ع ٢٣.
- الهويات القاتلة: قراءات في الانتماء والعولمة، أمين معلوف، دمشق، ورد للطباعة والنشر، ط١، ١٩٩٩ م.
- الهويات والتعددية اللغوية: قراءة في ضوء النقد الثقافي المقارن، عز الدين المناصرة، عمان، دار مجدلاوي، ط١، ١٤٢٥ هـ.
- هويتنا أو الهاوية، محمد بن أحمد بن إسماعيل المقدم، المكتبة الشاملة.
- الهوية اللغوية في ظل العولمة الثقافية: إشكاليات وتحديات، محمد عروس، كتاب المؤتمر الدولي الرابع للغة العربية بدبي من ٢١٠٧١/ ٧/ ١٤٣٦ هـ.
- الهوية الوطنية ومخاطر التعليم الأجنبي٢، محمد عبد العزيز الياهلي، موقع البيان، https://www.albayan.ae/opinions/1999-12-09-1.1094782.
- الهيمنة اللغوية، روبرت فليبسون، ترجمة سعد بن هادي الحشاش، الرياض، جامعة الملك سعود، ١٤٢٨ هـ.
- واقع اللغة العربية بين التفكير والتعبير وأثره في الهوية، مها حسن يوسف القصراوي، بحوث المؤتمر الدولي الأول للغة العربية ببيروت، ٢٦ - ٣ - ربيع الآخر، ١٤٣٣ هـ.
- واقع اللغة العربية في أجهزة الإعلام، أحمد بن نعمان، اللغة العربية إلى أين؟، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (إيسيسكو)، ١٤٢٦ هـ.
- واقع الهوية اللغوية في المجتمعات العربية بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١، عائض الردادي، موقع حماسة، http://www.hamassa.com/2016/04/15.
- وحي الرسالة، أحمد حسن الزيات، القاهرة، دار نهضة مصر، ١٣٨١ هـ.
- وزير التربية الجزائري الأسبق: فرنسا تريد استلاب عقول أطفالنا وخطاب بوتفليقة بعث صراعا كان في طريقه فإلى الخمود، الشرق الأوسط، ع ١٨٦١، يوم الاثنين ٧/ ١٤٢٢ هـ.

- الوساطة بين المتنبي وخصومه، القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي، بيروت، دار القلم، ١٣٨٦ هـ.
- الوضع اللغوي في الجزائر: لهذا لم تستعد العربية مكانتها، مولود بن زادي، القدس العربي، ٢٧ سبتمبر ٢٠١٧ م.

سلسلة الحرب الباردة على الكينونة العربية

التجني على الهوية

درس الكتاب ما أُلصق بالعربية من تهم، كالصعوبة، والشيخوخة، وعدم الصلاحية للعلم، وأبان أن ما نُسب إليها من ذلك كان بعضه في معرض التبغيض، وتسويغ الدعوة إلى التبدل بها. وبيَّن أن ليس في اللغة الإنسانية لغة صعبة بإطلاق، وأخرى سهلة بإطلاق، وأن في كل لغة ما يصعب وما يسهل، وأن صعوبة اللغة -إن فرضت صحتها- لا تسوغ التبدل بها، وإنما يجب عدُّها قدَرا، ليس للشعوب إلا التكيف معه. وليس في اللغات ما يصلح للعلم وما لا يصلح له بالطبع، وكل لغة عظيمة كانت يوما لهجة فقيرة، محدودة الانتشار، ثم صارت إلى ما صارت إليه بسلطان أهلها، وجدهم في ترقيتها. ولا معنى لشيخوخة اللغة ما دامت تؤدي ما يريد أهلها، واتصال حياة العربية وقدمُها فضيلة من فضائلها؛ لأنها ربطت حاضر العرب بماضيهم ومستقبلهم، وأتاحت لهم أن ينتفعوا بأقدم تراثهم كما ينتفعون بأحدثه، وعدم اتصال غيرها جعل تراث أهلها المكتوب قبل قرون يسيرة تراثا أجنبيا، لا تفيد منه إلا كما تفيد من تراث اللغات الأجنبية بالترجمة.

مختار الغوث

أ.د. بجامعة طيبة في المدينة المنورة

له من الكتب والبحوث: "لغة قريش"، و " الشعر القرشي في القرون الثلاثة الأولى"، والسموأل: أخباره والشعر المنسوب إليه"، و "النقد الأدبي في رسالة الغفران"، و "معلقة عمرو بن كلثوم: دراسة وتحليل"، و "دراسة في معلقة عنترة بن شداد"، و "اللهجات العربية الغربية القديمة لكايم رابين"، و"الوجيز في العروض والقافية"، و "مناهج البحث في اللغة والأدب" (بالاشتراك)، و " الحقيقة والخيال في الغزل العذري والغزل الصريح"، و "هل كان للجاهلية نقد أدبي؟"، " والنحل في شعر امرئ القيس"، و" شعر قريش في الجاهلية"، و " على الأطلال: دراسة في البناء واللغة"، و"النقد الأدبي في صدر الإسلام والعصر الأموي: دراسة نقدية للأخبار والمأثورات"، و "عبيد الشعر كل كانوا عبيدا؟، و "ابن قتيبة ومنتقدوه"، و "الحركة الإسلامية في تركيا"، و"العقل أولا" و "بناء الفكر" و "قضايا النقد العربي القديم".

وله مقالات كثيرة وبحوث في الأدب والنقد واللغة والفكر والسياسة، منشورة في صحف ومجلات إلكترونية شتى.

ISBN 978-9921-721-40-9

9 789921 721409

صوفيا

+965 5222 4643

@sophia_kwt

info.sophiakw@gmail.com